

مالك بن نبي

الظاهرة القرآنية

دار الفكر

مالك بن نبي

مشكلات الحضارة

الظاهرة القرآنية



دار الفكر
دمشق - سوريا

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الظَّاهِرَةُ الظَّرَانِيَّةُ

مالك بن نبي

مشكلات الحضارة

الظاهرة القرآنية

ترجمة
عبدالصبور شاهين

تقديم

محمد عبد الله دراز

مُحَمَّد مُحَمَّد شَاكِر

دار الفِكْر
دمشق - سوريا

باشراف
ندوة مالك بن نبي

الرقم الاصطلاحي : ٠٥٥٦,٠١١

الرقم الدولي : 978-1-57547-029-2

الرقم الموضوعي : ٢٢٠

الموضوع : القرآن وعلومه

التأليف : مالك بن نبي

العنوان : الظاهر القرآنية

الصف التصويري : دار الفكر - دمشق

التنفيذ الطباعي : المطبعة العلمية - دمشق

عدد الصفحات : ٣٢٨ ص

قياس الصفحة : ٢٥ × ١٧ سم

عدد النسخ : ١٥٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع
والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي
والسموع والخاسبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن

خطي من

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص. ب: (٩٦٢) دمشق - سوريا

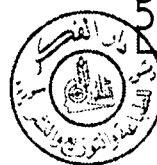
برقياً: فكر

فاكس ٢٢٣٩٧١٦

هاتف ٢٢١١١٦٦, ٢٢٣٩٧١٧

<http://www.fikr.com/>

E-mail: [info @fikr.com](mailto:info@fikr.com)



إعادة

١٤٢٠ = ٢٠٠٠

١٩٨٧ م : ط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في عام ١٩٧١ م ترك أستاذنا مالك بن نبي - رحمه الله - في المحكمة الشرعية في طرابلس لبنان ، وصيحة سجلت تحت رقم ٢٧٥ / ٦٧ في ١٦ ربيع الثاني ١٣٩١ هـ الموافق ١٠ حزيران ١٩٧١ م ، وقد حملني فيها مسؤولية كتبه المعنوية والمادية .

وتحملاً مني لهذه الرسالة ، ووفاءً لندوات سقتنا على ظمآن صافي الرؤية ، رأيت تسمية ما يصدر تنفيذًا لوصية المؤلف «ندوة مالك بن نبي» .

والتسمية هذه دعوة إلى أصدقاء مالك بن نبي وقارئيه ، ليواصلوا نهجاً في دراسة المشكلات ، كان قد بدأه .

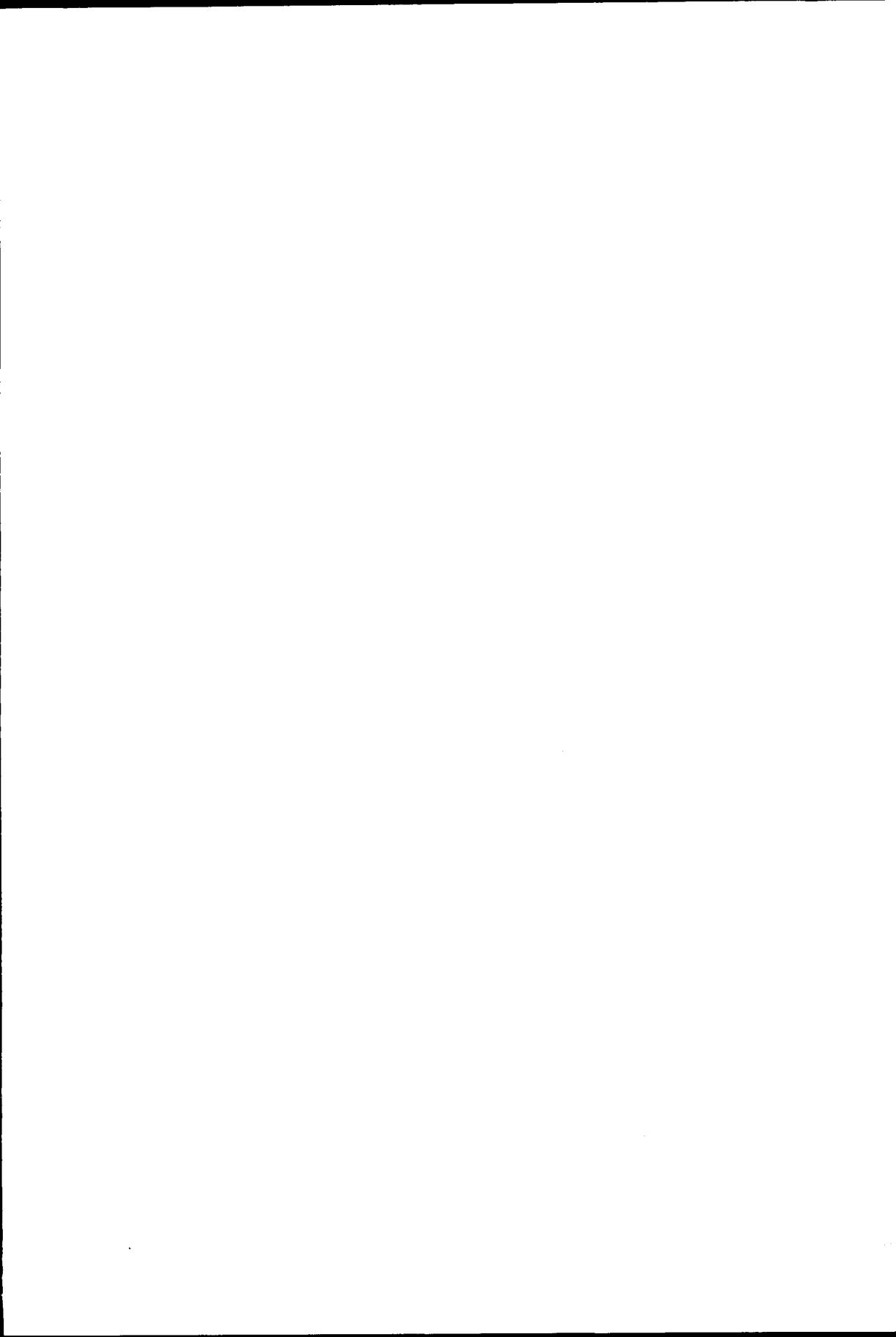
وهي مشروع نظره بوصفه نواة لعلاقات فكرية ، كان رحمه الله يرغبه في توثيقها .

وإنني لأرجو من أصدقاء مالك وقارئيه ، مساعدتنا على حفظ حقوق المؤلف في كل ما ينشر بالعربية أو غيرها مترجماً من قبل المترجمين أو غير مترجم . فقد حملني - رحمه الله - مسؤولية حفظ هذه الحقوق والإذن بنشر كتبه . فإن وجدت طبعات لم تذكر فيها إشارة إلى إذن صادر من قبلنا ، فهذه طبعات غير مشروعة ، ونرجو إبلاغنا عنها .

عمر مسقاوي

طرابلس لبنان ١٨ ربيع الأول ١٣٩٩ هـ

١٥ شباط (فبراير) ١٩٧٩ م



لله أكبر

إلى روح أمي ...

إلى أبي ...

والديين الذين قدما لي في المعهد

أثمن المدايا هدية الإيمان

ماله

تلبية لرغبة العديد من القراء ، عدنا إلى ترجمة المقدمة ، التي صدر بها المرحوم فضيلة الدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز ، الطبعة الفرنسية من كتاب (الظاهره القرآنية) عام ١٩٤٧ م .

وحيينا نشر « لأول مرة » مقدمة الشيخ دراز للطبعة الفرنسية ، نكون قد أثمننا نشر وثائق هذا الكتاب ، الذي استقبله قراء العربية بالاهتمام والتقدير .

والأستاذ الدكتور دراز من كبار العلماء الذين خدموا القرآن والفلسفة وعلم الأخلاق ، ومن الرواد الأزهريين الأوائل ، الذين اتصلوا بالثقافة الغربية ، وأوسعوا لها فسيحًا من علمهم وعيقًا من تأملهم . وهو من الذين بلغوا الفكر الإسلامي بوسائل الحضارة الحديثة لغة ومنهجاً .

لذا تبدو مقدمة الدكتور دراز ، صدى لذلك التكوين الفكري المتأثر بالديكارتية بوصفها منهج تفكير . وهي من هذا الجانب ، تبرز لنا ما للثقافة الغربية وما لفلسفتها من نفوذ على مناهج التفكير ذي الأصول الأزهرية في تلك الفترة من الزمن .

على أن أهمية هذه المقدمة تبدو في تلك الإيضاحات التاريخية ، على هامش الفكرة الأساسية ، التي تنتظم كتاب الظاهره ، وفي تلك الدعوة إلى تطوير وسائل تفكيرنا كاماً تطورت وسائل العلم ، وفي إبراز المنهج القرآني خطة موضوعية تستهدف المعرفة المطلقة . وهي إذا أضفناها إلى مقدمة الأستاذ الكبير محمود محمد شاكر استقام لنا كتاب الظاهره القرآنية خطة في إرساء العقيدة عن طريق العقل والإثبات معاً .

عمر مساواي

مقدمة الطبعة الفرنسية

للمرحوم الدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز

عزيزي السيد بن نبي
فرغت لتوi من قراءة كتابك القيم (الظاهرة القرآنية) ، وما أعطى
لموضوعك أهمية كبرى أنه قد يم وحديث معاً .

ففي ضوء العلم الحديث ، ولجت قضية رئيسية ما فتئت تشغل المفسرين في
كل زمان . ولعلي أنا لامستها في دراساتي عديدة سابقة ، سواءً ما كان منها
بالعربية أو الفرنسية .

إن الغبطة التي شعرت بها وأنا أقرؤه ، هي من العمق بقدر ما أتاحت لي
هذه القراءة أن أدرك من جديد ، ذلك الجهد الجاد المستقل والمتجرد ، يقود
الباحثين عن الحقيقة إلى نتائج متشابهة بل موحدة على الرغم من المسافة التي يمكن
أن تفصل بينهم في المكان والزمان .

وإذا نحننا جانباً أسلوبك الفني في الكتابة ، وطريقتك الرائعة في عرض
الأشياء ، فإننا نجد طرقنا في الدراسة متشابهة بصورة بارزة .

ليس هذا فحسب ، بل من غير النادر أن يحمل تفاصلا للأمر المثل نفسه
وأن يشير إلى المعنى ذاته .

إن المسألة هي في البحث عن المصدر الحقيقي للقرآن . وأن نعرف ما إذا كان
يمكن أن يكون هذا الكتاب قد استخرج من علم أو إدراك من أرسل به . أو من

معرفة بشرية على وجه العموم ، أم أنه على العكس من ذلك ، هنالك أسباب لا يمكن دفعها تخدونا للاعتقاد بصدره العلوي الإلهي .

تلك هي المسألة التي جئت بدورك تلزم نفسك بالعمل على حلها ، يأبجاد الأسس الثابتة والعقلية ، للإيان بالمصدر الإلهي لهذا الكتاب ، وتسلیط الأضواء عليها .

وإذا كان المفسرون التقليديون ، توصلأ إلى الهدف نفسه ، قد أكدوا بصورة خاصة على الجانب الأدبي من المسألة ، فإن هذا الموقف على كل حال يجد تفسيره وما يسوغه في السمة الأعم للقرآن . تلك السمة التي تميز بها الأسلوب القرآني في جمال لا يضاهى وجلال مميز ، وبالاعتراف الفوري بالعجز عن الإتيان بثله ، وهو الوجه الأقرب مناً لسائر البلوغ من البدو . على أنه من الصحيح أيضاً أن هؤلاء المفسرين ، وهم ينظرون في محتوى القرآن ، قد رأوا في اتساع وعمق المعرفة التي يحملها للإنسانية ، دليلاً في ذاته على خصائصه التي تتجاوز طاقة البشر ، وأن التعارض بين توجيهه بعض الآيات ، كآية ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكٌ عَلَيْكَ رَزْوَجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ، وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب ٣٧ / ٢٢] مثلاً ، والمشاعر الشخصية للرسول ﷺ ، لشهادة لا تردد على استقلالية القرآن عن النبي .

فهل يمكن أن يقال إن هذه النتائج المستخلصة من قبل أجدادنا ، تجعل كل محاولة لتفسير جديد عدية الجدوى ؟ .

هل يقال إن واجبنا يتعدد من الآن فصاعداً ، بتدوين هذه النتائج المعاذرة ، وبالنظر إليها كأنها الكلمة الأخيرة حول حقيقة الأشياء ؟ .
كلا ، ثم كلا .

إذ أنه بقدر ما تتطور معارفنا حول الطبيعة والنفس الإنسانية ، وكلما اكتسبنا سبباً جديداً يحملنا على أن نرى الأشياء من زاوية مختلفة ، فإن ذلك

يدعونا إلى أن نضع المشكلات حين ندرسها بما يتفق وهذا الجديد من واقع العلم .

والمسألة القرآنية لا ينبغي لها أن تخرج عن هذه القاعدة .

فإذا كان صحيحاً أن القرآن معجزة مستمرة ، وإذا كانت علام صدقه من ناحية أخرى لا تنحصر في عبارته فحسب ، بل في عالي الطبيعة والنفس أيضاً كما يقول القرآن نفسه ﴿ سَرِّهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت ٤١ / ٥٣] .

إذا كان الأمر كذلك فإن واجباً يقع على كل مؤمن متصل بمعطيات العلم .

إنه التقريب بين جانبي روحه : بين معتقده وعلمه . حين يواجهه النصوص المنزلة ، لا أقول بفرضيات العلماء التي لم تتحقق أو التي لا تقبل التحقيق ، ولكن بالنتائج الثابتة والمستخرجة من تجاربهم ، وأن يأخذ من تلك المواجهة ما ينتج عنها من دروس .

وإذا كان في الواقع هنالك حقائقان ، فإنه لا يحق لواحدة منها أن تنكر الأخرى ، بل على العكس من ذلك ، عليها أن تؤكدها وتشد من أزرها .

وإذا اتفق لمؤمن متعلم أن ملك موهبة الكتابة فوق هاتين الصفتين من الإيمان والعلم ، فإن واجباً آخر يقع على عاتقه : إنه إخراج ثمار عمله بلغة عصره ، كما يفعلنبي يخاطب قومه بلغتهم .

إنني أستطيع أن أؤكد بأنك قمت بكل الواجبين .

فقد تأملت بنضج ، ذلك الاتصال بالعقل والتراث ، بالعلم والعقيدة ؛ وأفرغت في عرض جميل واضح ومتواشك شرارة ما تفجر من ذلك اللقاء .

فسداد حكمك ، وحرارة عقيدتك ، وحداثة مصطلحاتك ، وجمال أسلوبك ؛ هذه كلها ميزات بارزة لا أستطيع أن أفيك ما تستحق من تهنئة عليها .

ولكنني أرى من الواجب أن أوجه كلمة إلى الشباب المثقف كلياً يتفادى التباساً يمكن أن يقع فيه حول المدف الحقاوي من هذه الدراسة .

أريد أن أقول لهؤلاء الشباب : إن الأمر لا يعني هنا نشرة جمع المعلومات وتخزينها في الذاكرة ، ولكن نوجهاً حياً من نقاش جدي ، فائدته الحيوية الكبرى بما يذكر من الطاقة الروحية لسائر القراء القادرين على التفكير بمنهجية ، كلياً يضع كل منهم بدوره قضية (الحقيقة) ويبحث بوسائله الذاتية بما يتعين عليه اتخاذها في سبيلها .

إذا استطاعت نشرة من هذا النوع أن تخدم بوصفها علاجاً للتتشكك الديني فتلذك زيادة في الخير ، إنما يبقى المدف الأساسي قبل كل شيء محاربة اللامبالاة حول مسألة (الحقيقة العلوية) .

على كل حال فإن دراسة كهذه ، لا تفك في أن تفرض نفسها على أنها نوع من العقيدة ، نقبله بعيون مغمضة وبغير نقاش . فهذا على ما يبدو لي أبعد ما يكون عن فكر المؤلف ، فضلاً عن أنه يتنافي مع المبادئ القرآنية التي يدافع عنها .

فالقرآن لم يعلن فحسب بأن الإيمان لا يفرض من الخارج ، ولكنه أدان بقوة كل اتباع أعمى يلقي بزمامه إلى سلطة لا تستند إلى العقل . وقد دعا دائماً باستمرار إلى التأمل الفردي المنسحب من تأثير الوسط الخارجي والأفكار المسبقة ، ومن كل فكرة مستقاة بعفوية دون تمحیص .

إن (ديكارت) لم يفعل غير ذلك ، حينما رفض أسلوب الهيبة ، مطالبًا بحق العقل ، مؤكداً واجب كل أمرٍ بـألا يأخذ بغير الثابت والبداهي الذي لا مراء فيه .

أكثر من هذا : وفي هذا الإطار يبدونا المذهب الديكارتي من هذه الناحية ، أقل تشدداً وتقسماً من القرآن .

فن المعروف بأية عنایة أوضح الفيلسوف الفرنسي تأملاه ، وهو يضع تلك القاعدة المنهجية التي لا تقبل غير الأفكار الواضحة والمحددة . فهو لم يشاً بذلك التكلم عن الأمور التي تنظر إلى الإيمان والمثل ، ولكن عن الحقائق المجردة التي لا يمكن معرفتها إلا بالضوء الطبيعي وحده .

فإذا كان (ديكارت) قد اضطر إلى مثل هذا التحفظ ، لأنه يعد الإيمان المسيحي تكتنفه أمور غامضة بوصفه موضوعاً ، فهذا الذي لا يرى أن هذا التحفظ لا محل له في العقيدة القرآنية ؟ .

مهما يكن من أمر فإنني لا أرى جيداً السبب الذي يستطيع أن يسوغ التقليل من شأن الفكر الديكارتي . فهناك انطباع بأنك تضعف بطريقة منهجية من شأن هذا الفكر ، كاً لو أن ديكارت ذلك الوجه الكبير في الفلسفة الحديثة ، كان كافراً أو متشككاً أو رجلاً يعتقد بسذاجة ، بكمال الفكر الإنساني واستقلاليته المطلقة تجاه كل تحسس خارجي ، مستمد من الطبيعة أو ما هو فوق الطبيعة .

ولهذا أتمنى أن تحمل الطبعات القادمة ما يحدد بعناية هذا الالتباس .

وهناك ملاحظة أخرى صغيرة .

إنها تتعلق بحياة محمد ﷺ .

يبدو لي أنك أخذناً بتأكييدات بعض المستشرقين ، قبلت بدون صعوبة افترضهم حول مدة اعتكاف النبي قبل نزول الوحي .

فنحن نعلم موضوعهم المفضل في هذا الإطار .

إنه يرتكز على القول إنها فترة احتضان وتخمر للأفكار الدينية التي سبقت وضوح القرآن في الوعي الحمدي .

وبما أن فكرة تهدف لعمل واسع عظيم كالقرآن ، لا يمكن التصور بأن تتعدد

معالها بين ليلة وضحاها ، ويقتضي لها الوقت الضروري والطبيعي لتحضيرها ، فإن هؤلاء الكتاب قد التزموا جانب الافتراض ، وافتضوا لهذا الاعتزال مدة تتدبر سنين عديدة .

وهكذا تhtm على محمد أن يختفي منذ زواجه في سن الخامسة والعشرين ، ليفرغ إلى تأملاته ، ولا يعود للظهور إلا وهو يحمل رسالته ذات صباح .

وعلى الرغم من أنك جهت في تفنيد ورفض فكرة الاعتكاف هذه ، فإنك تبدو مع ذلك قد أفسحت المجال لوجود خلفية وسند مادي لها ، أعني بذلك انطواء الرسول لمدة خمسة عشر عاماً .

إن فرضية غياب كهذا ، ليست فحسب مجانية لا سند لها ، بل إنها غير صحيحة على الإطلاق من الوجهة التاريخية .

فالمصادر الوثيقة جداً تحدد في الواقع تاريخ هذا الاعتكاف بالضبط بشهر قبل نزول القرآن . كما تحدد بدقة أكثر أن هذا الشهر تخلله عودة إلى منزله مرات عده كثيرة . وقد سبقت هذا الشهر أيضاً رؤى واضحة كان يراها الرسول في منامه ثم ما يلبث أن يجدها حقيقة كفلق الصبح .

لقد حدثت هذه الإرهاصات جميعها في الأربعين من عمره ، أي في عام هبوط الوحي .

وإذا ذهبتنا بعيداً ، وافتضنا جدلاً أن هذا الشهر من الاعتكاف ، قد داوم عليه الرسول في كل عام ، منذ زواجه حتى نزول الوحي ؛ يبقى أن نلاحظ بأن أحد عشر من اثنين عشر شهراً من سني حياته في هذه الفترة قد قضاها في محيط اجتماعي ، وأمام أعين مواطنه .

والقرآن الكريم في قوله تعالى ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوَّتْهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيْكُمْ عَمَراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس ١٦/١٠] إنما يستخرج

بالضبط ، حجة من استمرار إقامة الرسول بين قومه فترة واسعة وكافية ، ليدرك الناس جميعاً ميزاته واهتماماته ، وعجزه الشخصي عن القيام بوضع آيات القرآن .

فإذا كانت أفعاله في تلك المرحلة الانتقالية ؟ .

هناك حديث محمد وأكيد على الأقل . ففي نحو الثلاثين من عمره شارك في إعادة بناء الكعبة . ومن المعلوم من ناحية أخرى أنه تحمل بكفاءة ونشاط أعباء العائلية ؛ إذ رزق أكثر أولاده قبل قيامه بالرسالة .

وإذا كنا لا نملك تفاصيل أكبر حول أعماله اليومية قبلبعثة ، فرد ذلك بدون شك ، إلى أنه فيما عدا السمة البارزة لعظيم أخلاقه ، لا نجد في تلك الفترة من الزمن أمراً منفصلاً عن مألف وسطه يكن التحدث عنه .

فسكت سائر رجال السيرة ، عن التفصيلات الإضافية في هذا المخصوص ، نقطة نسجلها كلاماً لا حظت بحق ، لصالح التراث الإسلامي الذي تحلى دائماً بأمانة تاريخية متشددة إلى أقصى حد ، حين عزف عن كل توسيع أو تقليل ، للمعطيات الثابتة التي يجدها في متناوله ، سواء كانت هذه المعطيات لصالح قضيته أو في غير صالحها .

بعد هذا كله ، أعود لأهنتك مرة أخرى على واسع الجهد ، الذي به نجحت في إلقاء ضوء جميل حول المسألة الدينية في عمومها ، وحول الفكر القرآني خاصة ، كيما تسهم في دعم الأساس العقلاني للإيمان .

فحسناً تجد أعظم ثوابك في ذلك النجاح المعنوي الذي يستحقه كتابك . وعسى نداءك النطقي والشاعري الذي أطلقته ليلامس أصحاب العقول النيرة ، يتسرّب إلى عميق نفوسهم فيبعث فيهم من جديد حياة القلب والعقل معاً .

محمد عبد الله دراز
أستاذ في الأزهر الشريف

باريس ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٦ م

شكر وتنبيه

كان من فضل الله أن تولى أستاذنا الكبير (محمود محمد شاكر) تقديم كتاب (الظاهرة القرآنية) إلى القراء ، هذا التقدم الثمين ، الذي يعد بحق من أروع ما كتب في مسألة اتصال بيان العرب في الجاهلية بقضية (إعجاز القرآن) .

وإني لأرجو الله مخلصاً أن يتولى عنا جزاء أستاذنا بقدر ما بذل من جهده ، وما ضحي من وقته على عظيم تبعاته وخطر مسؤولياته .

وإني لأنقدم بالشكر هنا إلى الأستاذ الدكتور (محمود قاسم) رئيس قسم الدراسات الفلسفية بكلية دار العلوم في جامعة القاهرة ، على توجيهاته التي أفادت منها كثيراً ، وإلى الأستاذ المحدث (محمد فؤاد عبد الباقي) على تفضله بتحقيق ما عسر على تحقيقه من أحاديث الكتاب ، وهي التي رمنا إليها في المامش بعرف (ف) .

والحمد لله الذي هدانا لهذا . وما كنا لننهي لولا أن هدانا الله .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المترجم

تقديم

فصل في إعجاز القرآن

للأستاذ محمود محمد شاكر

الحمد لله وحده لا شريك له ، حمدًا يقربنا إلى رضوانه ، وصلوة الله وسلامه على نبيه المصطفى من أبناء الرسولين الكريمين إبراهيم وإسماعيل ، صلاة تزلفنا إلى جنته .

☆ ☆ ☆

هذا كتاب (الظاهرة القرآنية)

وكفى ، فليس عدلاً أن أقدم كتاباً هو يقدم نفسه إلى قارئه . وبحسب أخي الأستاذ مالك بن نبي وبحسب كتابه أن يشار إليه ، وإنه لعسير أن أقدم كتاباً هو نهج مستقل ، أحسبه لم يسبقه كتاب مثله من قبل . وهو منهج متكامل يفسره تطبيق أصوله ، كا يفسره حرص قارئه على تأمل مناحيه . ولا أقول هنا ثناء ، فأنا أعلم أن رجلاً أثني على رجل عند النبي ﷺ فقال له : « ويلك ! قطعت عنق صاحبك » ، قالها ثلثاً . ومالك أعزُّ عليًّا من أن أقطع عنقه بثنائي أو أهلكه بياطري .

ولكن أحسبني من أعرف الناس بخطر هذا الكتاب ، فإن صاحبه قد كتبه لغاية بيّنها ، ولأسباب فصلها . وقد صهرتني المحن دهراً طويلاً ، فاصطليت (٢) الظاهرة القرآنية

بالأسباب التي دعته إلى اتخاذ منهجه في تأليف هذا الكتاب ثم أفضت إلى الغاية التي أرادها ، بعد أن سلكت إليها طرقاً موحشة مخوفة . وقد قرأت الكتاب وصاحبته ، فكنت كلما قرأت منه فصلاً وجدت نفسي كالسائر في دروب قد طال عهدي بها ، وخيل إلىّ أن مالكًا لم يؤلف هذا الكتاب إلا بعد أن سقط في مثل الفتن التي سقطت فيها من قبل ، ثم أقال الله عثرته بالهدایة فكان طريقه إلى المذهب الصحيح ، هو ما ضمته كتابه من بعض دلائل إثبات إعجاز القرآن ، وأنه كتاب منزل ، أنزله الذي يعلم الخباء في السموات والأرض ، وأن مبلغه إلى الناس ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، رسول صادق قد بلغ عن ربه ما أمره بتبليغه ، وأن بين هذا الرسول الصادق وبين الكلام الذي بلغه حجازاً فاصلاً ، وأن هذا الحجاز الفاصل بين القرآن وبين مبلغه حقيقة ظاهرة ، لا يخطئها من درس سيرة رسول الله فاحصاً متأملاً ، ثم درس كتاب الله بعقل يقظ غير غافل .

وهذا المنهج الذي سلكه مالك ، منهج يسند أصوله من تأمل طويل في طبيعة النفس الإنسانية ، وفي غريزة التدين في فطرة البشر ، وفي تاريخ المذاهب والعقائد التي توسم بالتناقض أحياناً ، ولكنها تكشف عن مستور التدين في كل إنسان . ثم هو يسند أصوله من الفحص الدائب في تاريخ النبوة وخصائصها ، ثم في سيرة رسول الله ، بأبي هو وأمي ، منذ نشأته إلى أن لحق بالرفيق الأعلى . ثم في هذا البلاغ الذي جاء ليكون بنفسه ، دليلاً على صدق نفسه ، أنه كلام الله ، المفارق لكلام البشر من جميع نواحيه .

وخلال هذا النهج تستعلن لك الحنة التي عانها مالك ، كما عانيتها أنا ، وكما عانها جيل من المسلمين في هذا القرن . بل إنك لتجد الحنة ماثلة في (مدخل الدراسة) وهو الفصل الذي استفتح به كتابه ، فقد صور لك مشكلة الشباب المسلم المتعلّم في هذا العصر ، وما كان قاساه وما يزال يقاسيه ، من العنت في إدراك إعجاز القرآن ، إدراكاً يرضاه ويطمئن إليه .

وهذا (العقل) الحديث الذي يفكر به شباب العالم الإسلامي ، والذي يريد أن يدرك ما يرضيه ويطمئن إليه من دلائل إعجاز القرآن ، هو لب المشكلة ، فإن (العقل) هبة الله لكل حي ، ولكن أساليب تفكيره كسب يكتسبه من معالجة النظر ومن التربية ومن التعليم ، ومن الثقافة ومن آلاف التجارب التي يحياها المرء في هذه الحياة . فينبغي ، قبل كل شيء ، أن نتدبر أمر هذا (العقل) الحديث في العالم الإسلامي ، لأن فهم هذا (العقل) ، هو الذي يحدد لنا طريقنا ومنهجنا في كل دراسة صحيحة ، نحب أن نقدمها إليه حتى يطمئن ويرضى .

منذ أول الإسلام ، خاضت الجيوش الإسلامية معارك الحرب في جميع أنحاء الدنيا ، وخاض معها العقل الإسلامي معارك أشد هولاً حيث نزل الإنسان المسلم . وتقوضت أركان الدول تحت وطأة الجندي المظفر ، وتقوضت معها أركان الثقافات المتباعدة تحت نور العقل المسلم المنصور ، وظلت الملاحم دائرة الرحى قرونًا متطاولة ، في ميادين الحرب وميادين الثقافة ، حتى كان هذا العصر الأخير .

انبعثت الحضارة الأوربية ، ثم انطلقت بكل سلاحها لتخوض في قلب العالم الإسلامي ، أكبر معركة في تاريخنا وتاريخهم . وهي معركة لم يحط بها ساليبها وميادينها أحد بعد في هذا العالم الإسلامي ولم يتحقق أحد آثارها فيينا . ولم يتکفل بدراستها من جميع نواحيها من يطيق أن يدرس ، ولست أزعم أنني سأدرسها في هذا الموضوع ، ولكن سأدل على طرف منها ، ينفع قارئ هذا الكتاب ، إذا صح عزمه على معاناة دراسته دراسة الحرirsch المتغلغل .

لم تكن المعركة الجديدة بين العالم الأوربي المسيحي ، وبين العالم الإسلامي ، معركة في ميدان واحد ، بل كانت معركة في ميادين : ميدان الحرب ، وميدان الثقافة . ولم يلبث العالم الإسلامي أن ألقى السلاح في ميدان الحرب ، لأسباب

معروفة . أما ميدان الثقافة ، فقد بقىت المعارك فيه متتابعة جيلاً بعد جيل ، بل عاماً بعد عام ، بل يوماً بعد يوم . وكانت هذه المعركة أخطر المعركتين ، وأبعدها أثراً ، وأشدتها تقوياً للحياة الإسلامية والعقل الإسلامي . وكان عدونا يعلم مالاً نعلم ، كان يعلم أن هذه هي معركته الفاصلة بيننا وبينه ، وكان يعلم من خباياها مالاً نعلم ، ويدرك من أسرارها وسائلها مالاً ندرك ، ويعرف من ميادينها مالاً نعرف ، ويصطنع لها من الأسلحة مالاً نصطنع ، ويتحرى لها من الأسباب المفضية إلى هلاكنا مالاً نتحرى أو نلقي إليه بالأ . وأعانه وأيده أن سقطت الدول الإسلامية جميعاً هزيمة في ميدان الحرب . فسقطت في يده مقاليد أمرها في كل ميدان من ميادين الحياة ، وصار مهيمناً على سياستها واقتصادها وصحافتها ، أي سقطت في يده مقاليد التوجيه الكامل للحياة الإسلامية ، والعقل الإسلامي .

وميادين معركة الثقافة والعقل ميادين لا تعد ، بل تشمل المجتمع كله في حياته وفي تربيته وفي معاشه ، وفي تفكيره وفي عقائده وفي آدابه وفي فنونه وفي سياسته ، بل كل ما تصبح به الحياة حياة إنسانية ، كما عرفها الإنسان منذ كان على الأرض . والأساليب التي يتخذها العدو للقتال في معركة الثقافة ، أساليب لا تعد ولا تحصى ، لأنها تتغير وتبدل وتتجدد على اختلاف الميادين وتراحبها وكثرتها ، وأسلحة القتال فيها أخفى الأسلحة ، لأن عقل المثقف يتكون يوماً بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة ، وهو يتقبل بال التربية والتعليم والاجتاع ، أشياء يسلّمها بـالإلف الطويل وبالعرض المتواصل وبال默ك الخفي ، وبالجدل المضلل وبالمراد المتلون وبالهوى المتغلب ، وبضروب مختلفة من الكيد الذي يعمل في تحطيم البناء القائم ، لكي يقيم العدو على أنقاضه بناء كالذى ي يريد ويرجو .

وقد كان ما أراد الله أن يكون ، وتابعت هزائم العالم الإسلامي في ميدان الثقافة جيلاً بعد جيل ، وكما بقىت معارك الحرب متتابعة سراً مكتوماً

لا يتدارسه قادة الجيوش الإسلامية وجندها حتى هذا اليوم ، بقيت أيضاً معارك الثقافة على تطاوتها ، سراً خافياً لا يتدارسه قادة الثقافة الإسلامية وجندها : بل أكبر من ذلك : فقد أصبح أكثر قادة الثقافة في العالم الإسلامي وأصبح جنودها أيضاً ، تبعاً يأتمرون بأمر القادة من أعدائهم ، عارفين أو جاهلين أنهم هم أنفسهم قد انقلبوا عدواً للعقل الإسلامي الذي ينتسبون إليه ، بل الذي يدافعون عنه أحياناً دفاع غيرة وإخلاص .

لم يكن غرض العدو أن يقارع ثقافة بثقافة ، أو أن ينال ضلاًّ بهدئ ، أو أن يصارع باطلًا بحق ، أو أن يحوّل أسباب ضعف بأسباب قوة ؛ بل كان غرضه الأول والأخير أن يترك في ميدان الثقافة في العالم الإسلامي ، جرحى وصرعى لا تقوم لهم قائمة ، وينصب في أرجائه عقولاً لا تدرك إلا ما يريد لها هو أن تعرف ، فكانت جرائمه في تحطيم أعظم ثقافة إنسانية عرفت إلى هذا اليوم ، كجرائم في تحطيم الدول وإعجازها مثلاً بمثل . وقد كان ما أراد الله أن يكون ، وظفر العدو فيما كان يبغى ويريد .

وقد فصل مالك في (مدخل الدراسة) مخنة (العقل) الحديث في العالم الإسلامي ، على يد أمضى أسلحة العدو في تهديم بعض جوانب الثقافة ، بل أهمل جوانبها ، وهو سلاح (الاستشراق) ، سلاح لم يدرسه المسلمون بعد ، ولم يتبعوا تاريخه ، ولم يكتشفوا عن مكايده وأضاليله ، ولم يقفوا على الخفي من أسرار مكره ، ولم يستقصوا أثره في نواحي حياتهم الثقافية ؛ بل في أكثر نواحي حياتهم الإنسانية ، كيف ؟ بل كان الأمر عكس ما كان ينبغي أن يكون ، فهم يتدارسون ما يلقيه إليهم على أنه علم يتزوده المتعلم ، وثقافة تشربها النفوس ، ونظر تقتفيه العقول ، حتى كان كما قال مالك : « إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين ، قد بلغت درجة خطيرة من الإشعاع لا نكاد نتصورها » وتفصيل أثر هذا الإشعاع في تاريخنا الحديث ، وفي سياستنا وفي عقائدهنا ، وفي كتبنا وفي

ديننا وفي أخلاقنا وفي مدارسنا وفي صحفتنا ، وفي كل أقوالنا وأعمالنا ، شيء لا يكاد يحيط به أحد .

وهذا الإشاعع كاسمه مالك ، كان من أعظم الأسباب وأبعدها خطراً في (العقل) الحديث ، الذي يريد أن يدرك دلائل إعجاز القرآن إدراكاً يرضي عنه ويطمئن إليه . وهو الذي أوقع الشك في الأصول القدية التي قامت عليها أدلة إعجاز القرآن ، بل أكبر من ذلك ، فإنه قد أتى أساليب غاية في الدهاء والخفاء ، أفضت إلى تدمير الوسائل الصحيحة التي ينبغي أن يتذرع بها كل من درس نصاً أدبياً ، حتى يباح له أن يحكم على جودته أو رداءته ، فضلاً عن بلاغته أو إعجازه .

وقد ذكر مالك في (مدخل الدراسة) تلك القضية الغريبة التي عرفت بقضية (الشعر الجاهلي) ، والتي أثارها المستشرق (مرجليوث) في بعض مجلات المستشرقين ، ثم تولى كبرها (طه حسين) في كتابه (في الشعر الجاهلي) ، يوم كان أستاذاً للأدب العربي بالجامعة المصرية . ولن ذكر هنا تلك المعارك التي أثارها كتاب (في الشعر الجاهلي) ، ولكنني أذكر ، كما ذكر مالك ، أن هذه القضية بأداتها ومناهجها ، قد تركت في (العقل) الحديث في العالم الإسلامي ، أثراً لا يحيى إلا بعد جهد جهيد ; والعجب أن (مرجليوث) قد أتى في بحثه بزيف كثير ، كان هو الأساس الذي بنى عليه هذا (العقل) ، وقد حاول مئات من رجال الفكر أن يزيفوا الأدلة والمناهج ، ولكن هذا الزيف بقي بعد ذلك طابعاً مميزاً لأكثر ما ينشره الطلبة والأساتذة إلى يومنا هذا . ولا تحاكم مرجليوث وأشياعه إلى رأيك ونظرك ، بل دع محامته إلى مستشرق مثله ، هو (آربري) ، يقول في خاتمة كتابه (المعلقات السبع) وقد ذكر أقوال مرجليوث وفندها : « إن السفسطة - وأخشى أن أقول : الغش - في بعض الأدلة التي ساقها الأستاذ (مرجليوث) ، أمر بَيْنَ جَدَّاً ، ولا تليق البتة بِرَجُلٍ كَانَ ، ولا رِيبٌ مِنْ أَعْظَمْ أئمَّةِ الْعِلْمِ فِي عَصْرِهِ » .

وهذا حكم شنيع ، لا على (مرجليوث) وحده ، بل على كل أشياعه وكتبه وعلى ما جاؤوا به من حطام الفكر .

ولكن العجب عندي بعد ذلك أن مالكًا ارتكز على ذكر هذه القضية ، وعلى أثرها في العقل الحديث ، ثم انطلق منها إلى نتيجة أخرى فقال : « وعلى هذا فالمشكلة بوضعها الراهن تتجاوز في مداها نطاق الأدب والتاريخ ، وتهם مباشرة منهج التفسير القديم كله ، ذلك التفسير القائم على موازنة الأسلوبية ، معتمدًا على الشعر الجاهلي بوصفه حقيقة لا تقبل الجدل ؛ وعلى أية حال فقد كان من الممكن أن تثور هذه المشكلة تبعًا للتطور الجديد في الفكر الإسلامي ، وإنما بصورة أقل ثورية ، فمنهج التفسير القديم يجب أن يتعدل في حكمة وروية ، لكي يتفق مع مقتضيات الفكر الحديث » .

ثم قال : « لقد قام إعجاز القرآن حتى الآن على البرهان الظاهر على سمو كلام الله فوق البشر . وكان لجوء التفسير إلى الدراسة الأسلوبية لكي يضع لإعجاز القرآن أساساً عقلياً . فلو أننا طبقنا تائج فرض (مرجليوث) ، لانهار ذلك الأساس ، ومن هنا توضع مشكلة التفسير على أساس هام بالنسبة لعقيدة المسلم ، أعني : برهان إعجاز القرآن في نظره » .

ثم أفضى إلى هذا الحكم : « والحق أنه لا يوجد مسلم ، وخاصة في البلاد غير العربية - يمكنه أن يوازن موضوعياً بين آية قرآنية ، وفقرة موزونة أو مقفاة من أدب العصر الجاهلي . فمنذ وقت طويل ، لم نعد نملك في أذواقنا عقريمة اللغة العربية ، ليكننا أن نستنبط من موازنة أدبية نتيجة عادلة حكمة » .

وأنا أحب أن أناقش هذه المقالة حتى أعين القارئ على أن يضع كتاب (الظاهرة القرآنية) في مكانه الذي ينبغي له ، وحتى تبين له معالم الطريق الذي يسير فيه وهو يقرأ هذا الكتاب ، وحتى يستفيد من أداته وبراهينه قوة تعينه على أن يضع أساساً يقيم عليه عقيدته وإيمانه .

ولا أدرى ما الذي أبدأ أخي مالكاً إلى ذكر (تفسير القرآن) ومنهجه القديم في هذا الموضع ...؟ إنه إقحام لباب من علوم الإسلام قائم برأسه لا يمسه فرض (مرجليلوث) من قريب أو بعيد . وعلم تفسير القرآن كأسسه القدماء ، لا يقوم على موازنة الأساليب ، اعتناداً على شعر الجاهلية أو شعر غير الجاهلية ، وإذا اقتضتنا الحاجة أن ندخل تعديلاً على منهج التفسير القديم ، فإنه عندئذ تعديل لا علاقة له بتة بالشعر الجاهلي ، لا من قبل الشك في صحته ، ولا من قبل موازنة الأساليب الجاهلية بأسلوب القرآن . وكل ما عند القدماء من ذكر الشعر الجاهلي في تفسيرهم ، فهو أنهم يستدلون به على معنى حرف في القرآن ، أو بيان خاصة من خصائص التعبير العربي ، كالتقديم والتأخير والحدف وما إلى ذلك ، وهذا أمر يصلاح له شعر الجاهلية ، كا يصلاح له شعر الإسلام ؛ وغاية علم تفسير القرآن - كا ينبغي أن يعلم - إنما هي بيان معاني ألفاظه مفردة ، وجمله مجتمعة ، ودلالة هذه الألفاظ والجمل على المبني ، سواء في ذلك آيات الخبر والقصص ، وأيات الأدب وأيات الأحكام ، وسائر ما اشتملت عليه معاني القرآن . وهو أمر عن (إعجاز القرآن) بعزل .

أما الأمر المرتبط بالشعر الجاهلي ، أو بقضايا الشعر جمعاً ، والمتعلق بأساليب الجاهلية وغير الجاهلية ، وأساليب العربية وغير العربية وموازنتها بأسلوب القرآن ، فهو علم (إعجاز القرآن) ، ثم (علم البلاغة) .

ولا مناص لتكلم في (إعجاز القرآن) ، من أن يتبين حقيقتين عظيمتين قبل النظر في هذه المسألة ، وأن يفصل بينهما فصلاً ظاهراً لا يلتبس ، وأن يميز أوضح التمييز بين الوجوه المشتركة التي تكون بينهما :

أولاًها : أن (إعجاز القرآن) كا يدل عليه لفظه وتاريخه ، وهو دليل النبي ﷺ على صدق نبوته ، وعلى أنه رسول الله يوحى إليه هذا القرآن ، وأن النبي ﷺ كان يعرف (إعجاز القرآن) من الوجه الذي عرفه منه سائر من آمن به

من قومه العرب ، وأن التحدي الذي تضمنته آيات التحدي ، من خو قوله تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأَتَوْا بِعَشْرِ سُورٍ مُّفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . إِنَّمَا لَمْ يَسْتَعْجِبُوكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَا أَنْزَلَ بِعِلْمٍ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهُلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [هود ١١ / ١٤ و ١٣]. قوله : ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَ إِنْسَانٌ وَجَنٌّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِثِلَّهٍ هَذَا الْقُرْآنُ لَا يَأْتُونَ بِثِلَّهٍ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإِسْرَاءُ ١٧ / ٨٨] . إنما هو تحدٌ بلفظ القرآن ونظمه وبيانه لا شيء خارج عن ذلك . فما هو بتحدى بالإخبار بالغيب المكنون ، ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بعد دهر من تنزيله ، ولا بعلم مالا يدركه علم المخاطبين به من العرب ، ولا بشيء من المعاني مما لا يتصل بالنظام والبيان .

ثانيها : أن إثبات دليل النبوة ، وتصديق دليل الوحي ، وأن القرآن تنزيل من عند الله ، كما نزلت التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من كتب الله سبحانه ، لا يكون منها شيء يدل على أن القرآن معجز ، ولا أظن أن قائلًا يستطيع أن يقول إن التوراة والإنجيل والزبور كتب معجزة ، بالمعنى المعروف في شأن إعجاز القرآن ، من أجل أنها كتب منزلة من عند الله . ومن بين أن العرب قد طولبوا بأن يعرفوا دليل نبوة رسول الله ، ودليل صدق الوحي الذي يأتيه ، بمجرد سماع القرآن نفسه ، لا بما يجادلهم به حتى يلزمهم الحجة في توحيد الله ، أو تصديق نبوته ، ولا بمعجزة كمعجزات إخوانه من الأنبياء مما أمن على مثله البشر ، وقد يبين الله في غير آية من كتابه أن سماع القرآن يقتضيهم إدراك مبaitته لكلامهم ، وأنه ليس من كلام بشر ، بل هو كلام رب العالمين وبهذا جاء الأمر في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ إِسْتَعْجَلَكَ فَأَجْرِهِ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَلْفَهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبه ٩ / ٦] .

فالقرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة ، أما صحة النبوة فليست برهاناً على إعجاز القرآن .

والخلط بين هاتين الحقيقتين ، وإهمال الفصل بينهما في التطبيق والنظر ، وفي دراسة (إعجاز القرآن) ، قد أفضى إلى تخليط شديد في الدراسة قد يبدأ وحديثاً ، بل أدى هذا الخلط إلى تأخير علم (إعجاز القرآن) و (علم البلاغة) ، عن الغاية التي كان ينبغي أن ينتهي إليها .

وحسن أن أزيل الآن لبساً قد يقع فيه الدرس لكتاب (الظاهرة القرآنية) ، ففي (مدخل الدراسة) : وفي بعض فصول الكتاب ما يوهم أن من مقاصده تثبيت قواعد في (علم إعجاز القرآن) ، من الوجه الذي يسمى به القرآن معجزاً . وهو خطأ ، فإن منهج مالك في تأليفه دالًّاً أوضح الدلالة على أنه إنما عني بإثبات صحة دليل النبوة ، وبصدق دليل الوحي ، وأن القرآن تنزيل من عند الله ، وأنه كلام الله لا كلام بشر ، وليس هذا هو (إعجاز القرآن) كما أسلفت ، بل هو أقرب إلى أن يكون باباً من (علم التوحيد) ، استطاع مالك أن يبلغ فيه غايات بعيدة ، قصر عنها أكثر من كتب من المحدثين وغير المحدثين : فجزاه الله عن كتابه ونبيه أحسن الجزاء .

أما مسألة (إعجاز القرآن) ، فقد بقىت خارج هذا الكتاب ، وهي عندي أعقد مشكلة يمكن أن يعانيها (العقل) الحديث ، كا يسمونه ، حتى بعد أن يتمكن من إرساء كل دعامة يقوم عليها إيمانه بصدق نبوة رسول الله ﷺ ، وبصدق الوحي وبصدق التنزيل . وأيضاً فهي المسألة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقضية الشعر الجاهلي ، وبالكيد الحفي الذي اشتملت عليه هذه القضية ، بل إنها لترتبط ارتباطاً لا فكاك له بثقافتنا كلها ، وبما ابتدى به العرب في جميع دور العلم ، من فرض منهاج خال من كل فضيلة في تدريس اللغة وأدابها . بل إنها لتشمل ما هو أرحب من ذلك ، تشمل بناء الإنسان العربي أو المسلم ، من حيث هو إنسان قادر على تذوق الجمال في الصورة والفكر جيغاً .

ومعرفة معنى (إعجاز القرآن) ، وما هو وكيف كان ، أمر لا غنى عنه لسلم

ولا لدارس ، وشأنه أعظم من أن يتكلم فيه أمرؤ بغير تثبت من معناه ، وتمكن من تاريخه ، وتتبع للآيات الدالة على حقيقته . وأنا لا أزعم أنني مستقصيه في هذا الموضوع ، ولكنني مستعين بالله . فذاكر طرفاً مما يعين المرء على معرفته .

وذلك أن رسول الله ﷺ ، بأبي هو وأمي ، حين فجأه الوحي في غار حراء ، وقال له : « اقرأ » ، فقال : « ما أنا بقارئ » ، ثم لم يزل حتى قرأ ﴿ اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمَنْ . عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق ٩٦ / من الآية ١ - ٥] .

رجع بها وهو يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة فقال : « زملوني زملوني » ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع . وذلك أنه قد أتاه أمر لا قبل له به ، وسمع مقالاً لا عهد له بثله ، وكان رجلاً من العرب ، يعرف من كلامها ما تعرف ، وينكر منه ما تنكر : كان هذا الروع الذي أخذه ، بأبي هو وأمي ، أول إحساس في تاريخ البشر ، ببيانه هذا الذي سمع ، للذي كان يسمع من كلام قومه ، وللذي كان يعرف من كلام نفسه . ثم حمي الوحي وتتابع ، وأمره ربه أن يقرأ ما أنزل عليه على الناس على مكتٍ . فتتبع الأفراد من عشيرته وقومه ، يقرأ عليهم هذا الذي نزل إليه . ولم يكن من برهانه ولا مما أمر به أن يلزمهم الحجة بالجدال حتى يؤمنوا أنها هو إله واحد ، وأنه هو نبي الله ، بل طالبهم بأن يؤمنوا بما دعاهم إليه ، ويقرروا له بصدق نبوته ، بدليل واحد هو هذا الذي يتلوه عليهم من قرآن يقرؤه . ولا معنى لمثل هذه المطالبة بالإقرار مجرد التلاوة ، إلا أن هذا المقوء عليهم ، كان هو في نفسه آية فيها أوضح الدليل على أنه ليس من كلامه هو ، ولا من كلام بشر مثله . ثم أيضاً لا معنى لها البتة إلا أن يكون وكان في طاقة هؤلاء السامعين أن يميزوا تمييزاً واضحاً بين الكلام الذي هو من نحو كلام البشر ، والكلام الذي ليس من نحو كلامهم .

وكان هذا القرآن يَنْزَلُ عليه منجًا ، وكان الذي نزل عليه يومئذ قليلاً كَا تعلم ، فكان هذا القليل من التنزيل هو برهانه الفرد على نبوته . وإذاً ، فقليل ما أوحى إِلَيْهِ من الآياتَ يومئذ ، وهو على قلته وقلة ما فيه من المعاني التي تَتَامَّتْ وَتَجَمَّعَتْ في القرآن جملةً كَا تقرؤه اليوم ، منطوي على دليل مستبين قاهر ، يَحْكُمُ لَهُ بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ . وبذلك يكون دليلاً على أن تاليه عليهم ، وهو بشر مثلهم ، نَبِيٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مَرْسُلٌ .

فِإِنْفَاداً صَحُّ هَذَا ، وَهُوَ صَحِيحٌ لَا رِيبَ فِيهِ ، ثَبَّتْ مَا قَلَنَاهُ أَوَّلًا مِّنْ أَنَّ الْآيَاتِ الْقَلِيلَةِ مِنَ الْقُرْآنِ ، ثُمَّ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ ، ثُمَّ الْقُرْآنُ كُلُّهُ ، أَيًّا ذَلِكَ كَانَ ، فِي تَلَاوَتِهِ عَلَى بِسَامِعِهِ مِنَ الْعَرَبِ ، هُوَ الدَّلِيلُ الَّذِي يَطَالِبُهُ بِأَنْ يَقْطَعَ بِأَنَّ هَذَا الْكَلَامُ مُفَارِقٌ لِجُنْسِ كَلَامِ الْبَشَرِ ، وَذَلِكَ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ وَجْهُ الْبَيَانِ وَالنَّظَمِ .

وَإِنْ صَحَّ أَنَّ قَلِيلَ الْقُرْآنِ وَكَثِيرُهُ سَوَاءٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، ثَبَّتْ أَنَّ مَا فِي الْقُرْآنِ جُمْلَةً - مِنْ حَقَائِقِ الْأَخْبَارِ عَنِ الْأَمْمِ السَّالِفَةِ ، وَمِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ وَمِنْ دَقَائِقِ التَّشْرِيعِ ، وَمِنْ عَجَائِبِ الدَّلَالَاتِ عَلَى مَا لَمْ يَعْرِفْهُ الْبَشَرُ مِنْ أَسْرَارِ الْكَوْنِ إِلَّا بَعْدِ الْقَرْوَنِ الْمُتَطَاوِلَةِ مِنْ تَنْزِيلِهِ - كُلُّ ذَلِكَ بِعْزَلٍ عَنِ الْذِي طَوَّبَ بِهِ الْعَرَبُ ، وَهُوَ أَنْ يَسْتَبِينُوا فِي نُظُمِهِ وَبِيَانِهِ افْنَاكِهِ مِنْ نُظُمِ الْبَشَرِ وَبِيَانِهِمْ ، مِنْ وَجْهِ يَحْسُمُ الْقَضَاءَ بِأَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَهُنَّا مَعْنَى زَائِدٍ ، فِيَّهُمْ إِذَا أَقْرَوْا أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِهَذَا الدَّلِيلِ ، كَانُوا مُطَالِبِينَ بِأَنْ يَؤْمِنُوا بِأَنَّ مَا جَاءَ فِيهِ مِنْ أَخْبَارِ الْأَمْمِ وَأَنْبَاءِ الْغَيْبِ وَدَقَائِقِ التَّشْرِيعِ ، وَعَجَائِبِ الدَّلَالَاتِ عَلَى أَسْرَارِ الْكَوْنِ ، هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ لَا رِيبَ فِيهِ ، وَإِنْ نَاقَضُ مَا يَعْرِفُونَ ، وَإِنْ بَاَيَنُ مَا اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ عَنْهُمْ أَوْ عَنْهُمْ حَقٌّ لَا يَشْكُونَ فِيهِ . وَإِذنَ فَإِقْرَارُهُمْ مِنْ وَجْهِ النُّظَمِ وَالْبَيَانِ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، دَلِيلٌ يَطَالِبُهُمْ بِالْإِقْرَارِ بِصَحَّةِ مَا جَاءَ فِيهِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ ، أَمَّا صَحَّةِ مَا جَاءَ فِيهِ ، فَلِيَسْتَ هِيَ الدَّلِيلُ الَّذِي يَطَالِبُهُمْ بِالْإِقْرَارِ بِأَنَّ

نظم القرآن وبيانه ، مباین لنظم البشر وبيانهم ، وأنه بهذا من كلام رب العالمين . وهذا أمر في غاية الوضوح .

فمن هذا الوجه كاترى طوب العرب بالإقرار والتسليم ، ومن هذا الوجه تحيرت العرب فيما تسمع من كلام يتلوه عليهم رجل منهم ، تجده من جنس كلامها لأنه نزل بلسانهم ، لسان عربي مبين ؛ ثم تجده مباینًا لكلامها ، فما تدري ما تقول فيه من طغيان اللدد والخصوصة . وإنه لخبر مشهور ، خبر تحرير النفر من قريش فيه وعلى رأسهم (الوليد بن المغيرة) . لقد ائترت قريش يومئذ حين حضر الموسم ، لكي يقولوا في هذا الذي يتلى عليهم وعلى الناس قوله واحداً لا يختلفون فيه ، وأداروا الرأي بينهم في تاليه على أهل الموسم ، وتشاوروا أن يقولوا : كاهن ، أو مجنون ، أو شاعر أو ساحر ، فلما آلت المشورة إلى ذي رأيهم وسنهم وهو (الوليد بن المغيرة) ، رد كل ذلك بالحججة عليهم ، ثم قال : « والله إن لقوله حلاوة ، وإن أصله لعنة ، وإن فرعه لجنة ؛ وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر جاء بقول يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته » .

فهذا التحير المظلم الذي غشّاهم وأخذ منهم بالكم ، والذي نعته الوليد فاستجاد النعut ، كان تحيراً لما يسمعون من نظمه وبيانه ، لا لما يدركون من دقائق التشريع ، وخفى الدلالات ، وما لا يؤمنون به من الغيب ، وما لا يعرفون من أنباء القرون التي خلت من قبل .

وحي الولي وتابع عاماً بعد عام ، وأقبل عليه يلح جهراً فيقرأ القرآن عليهم وعلى من طاف بهم من العرب في بطن مكة ، وفي مواسم الحج والأسواق ؛ وهبت قريش تناوئه وتنازعه ، وتلنج في اللدد والخصوصة ، وفي الإنكار والتکذيب ، وفي العداوة والأذى ؛ فلما طال تکذيبهم وإنكارهم ، على ما يجدون

في أنفسهم من مثل الذي وجد الوليد ، ومن مثل الذي آمن عليه من آمن من قومه العرب ، صب الله عليهم من الوحي ما هاهم وأفزعهم ؛ كانوا يتحيرون في هذا الذي يتلى عليهم ، وظل رسول الله ﷺ عكمة ثلاثة عشر عاماً وال المسلمين قليل مستضعفون في أرض مكة ، وظل الوحي يتتابع وهو يتحداهم أن يأتوا بثل هدا القرآن ، ثم بعشر سور مثله مفتريات . فلما اقطعت قواهم ، قطع الله عليهم وعلى الثقلين جميعاً منافذ اللدد والعناد ، فقال : ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُونَ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِثَلِيلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِثَلِيلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَبْعَدِ ظَهَيرَاً ﴾ [الإسراء ٨٨] . وكذلك كان !

فكان هذا البلاغ القاطع الذي لا معقب له ، هو الغاية التي انتهى إليها أمر هذا القرآن ، وأمر الزراع فيه ، لا بين رسول الله وبين قومه من العرب فحسب ، بل بينه وبين البشر جميعاً على اختلاف أنسنتهم وألوانهم ، لا .. بل بينه وبين الإنس والجن مجتمعين متظاهرين . وهذا البلاغ الحق الذي لا معقب له من بين يديه ولا من خلفه ، هو الذي اصطدحنا عليه فيما بعد ، وسيئناه (إعجاز القرآن) .

وهذا الذي اقتصته لك ، تاريخ مختصر أشد الاختصار ، ولكنه مجرئ في الدلالة على تحديد معنى (إعجاز القرآن) بمعنى الذي يفهم من هذا اللفظ على إطلاقه ، ومجزئ في الدلالة على هذا (الإعجاز) . من أي وجوه الإعجاز كان إعجازاً ، وإنه ليكشف عن أمور لا غنى لدارس عن معرفتها :

الأول : أن قليل القرآن وكثيره في شأن (الإعجاز) سواء .

الثاني : أن الإعجاز كائن في رصف القرآن وبيانه ونظمه ، ومبانينة خصائصه المعهود من خصائص كل نظم وبيان في لغة العرب ، ثم في سائر لغات البشر ، ثم بيان الثقلين جميعاً ، إنسهم وجهم متظاهرين .

الثالث : أن الذين تحداهم بهذا القرآن قد أوتوا القدرة على الفصل بين الذي هو من كلام البشر ، والذي هو ليس من كلامهم .

الرابع : أن الذين تحداهم به كانوا يدركون أن ما طولبوا به من الإثبات بمثله ، أو بعشر سور مثله مفتريات ، هو هذا الضرب من البيان الذي يجدون في أنفسهم أنه خارج من جنس بيان البشر .

الخامس : أن هذا التحدي لم يقصد به الإثبات بمثله مطابقاً لمعانيه ، بل أن يأتوا بما يستطيعون افتراه واحتلاقه ، من كل معنى أو غرض ، مما يعتلج في نفوس البشر .

السادس : أن هذا التحدي للثقلين جيئاً إنسهم وجنهم متظاهرين ، تحدٌ مستمر قائم إلى يوم الدين .

السابع : أن ما في القرآن من مكنون الغيب ، ومن دقائق التشريع ومن عجائب آيات الله في خلقه ، كل ذلك بعزل عن هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز ، وإن كان ما فيه من ذلك كله يعد دليلاً على أنه من عند الله تعالى ، ولكنه لا يدل على أن نظمه وبيانه مباني لنظم كلام البشر وبيانهم ، وأنه بهذه المبانية كلام رب العالمين ، لا كلام بشر مثلهم .

فهذه أمور تستخرجها دراسة تاريخ نزول القرآن ، ومدارسة آياته في جدال المشركين من العرب في صحة الآيات التي جاءتهم من السماء ، كما جاءت سائر آيات الأنبياء ومعجزاتهم ، وحسبك في بيان ذلك ما قال رسول الله عليه السلام : « ما من نبي إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى إليّ ، فأنا أرجو أن أكون أكثراً منهم تابعاً يوم القيمة » ، فالقرآن هو آية الله في الأرض ، آيته المعجزة من الوجه الذي كان به معجزاً للعرب ، ثم للبشر ، ثم للثقلين جيئاً .

وكل لبس يقع في ضبط هذه الأمور المتعلقة بمعنى (إعجاز القرآن) ، وكل اختلال في تمييزها وتحديد ما تقتضيه في العقل والنظر ، سبيل إلى انتشار أغض اللبس ، وأبلغ الخلل في فهم معنى (إعجاز القرآن) ، من الوجه الذي صار به القرآن معجزاً للعرب ، ثم لسائر البشر على اختلاف ألسنتهم ، ثم للثقلين جائعاً متظاهرين .

☆ ☆ ☆

هذا بعض ما أدى إليه النظر المجرد في استخراج المعنى الذي هو مناط التحدي ومفصل الإعجاز ؛ وأرجو أن أكون قد بلغت في كشفه مقنعاً ورضي . ولكنه بقي مالا بد منه : أن نستنبط بهذا الأسلوب من النظر المجرد ، صفة القوم الذين يتحداهم ، وصفة لغتهم .

إذا صح أن (الإعجاز) كائن في رصف القرآن ونظمه وبيانه بلسان عربي مبين ، وأن خصائصه مبادئ المعهود من خصائص كل نظم وبيان تطبيقه قوى البشر في بيانهم ، لم يكن لتعديهم به معنى إلا أن تجتمع لهم وللغتهم صفات بعينها : أولاً : أن اللغة التي نزل بها القرآن معجزاً ، قادرة بطبيعتها هي ، أن تحتمل هذا القدر الهائل من المفارقة بين كلامين : كلام هو الغاية في البيان فيما تطبيقه القوى ، وكلام يقطع هذه القوى ببيان ظاهر المبادئ له من كل الوجوه .

ثانيها : أن أهلها قادرون على إدراك هذا المجاز الفاصل بين الكلامين . وهذا إدراك دالٌ على أنهم قد أوتوا من لطف تذوق البيان ومن العلم بأسراره ووجوهه ، قدرأً وافراً يصح معه أن يتحداهم بهذا القرآن ، وأن يطالبهم بالشهادة عند ساعده ، أن تاليه عليهم نبي من عند الله مرسل .

ثالثها : أن البيان كان في أنفسهم أجلًّا من أن يخونوا الأمانة فيه ، أو

يجوروا عن الإنفاق في الحكم عليه . فقد قرّرُهم وعيرُهم وسفهُ أحالمهم وأديانهم ، حتى استخرج أقصى الضرورة في عداوتهم له . وظل مع ذلك يتعذّهم ، فنهتهم أمانتهم على البيان عن معارضته ومناقضته وكان أبلغ ما قالوه : هـ قَدْ سِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا هـ [الأنفال ٢١/٨] ، ولكنهم كفوا ألسنتهم فلم يقولوا شيئاً : هذه واحدة . وأخرى : أنه لم ينصب لهم حكماً ، بل خلّ بينهم وبين الحكم على ما يأتون به معارضين له ، ثقة ينضافهم في الحكم على البيان ، فهذه التخلية مرتبة من الإنفاق لا تدانها مرتبة .

رابعها : أن الذين اقتدروا على مثل هذه اللغة ، وأتوا هذا القدر من تذوق البيان ، ومن العلم بأسراره ، ومن الأمانة عليه ، ومن ترك الجور في الحكم عليه ، يوجب العقل أن يكونوا قد بلغوا في الإعراب عن أنفسهم بألسنتهم المبينة عنهم ، مبلغاً لا يداني .

وهذه الصفات تفضي بنا إلى القاسم ما ينبغي أن تكون عليه صفة كلامهم ، إن كان بقي من كلامهم شيء ، فالنظر المجرد أيضاً ، يوجب أمرين في نعت ما خلفوه :

الأول : أن يكون ما بقي من كلامهم ، شاهداً على بلوغ لغتهم غاية من التمام والكمال والتساوئ ، حتى لا تعجزها الإبانة عن شيء مما يعتلّج في صدر كل مبين منهم .

الثاني : أن تجتمع فيه ضروب مختلفة من البيان ، لا يجزئ أن تكون دالة على سعة لغتهم وقامتها ، بل على سجاحتها أيضاً ، حتى تلين لكل بيان تطيقه ألسنة البشر على اختلاف ألسنتهم .

فهل بقي من كلامهم شيء يستحق أن يكون شاهداً على هذا ودليلًا . نعم ، بقي (الشعر الجاهلي) !

وإذن ! ينبغي أن نعيد تصور المشكلة وتصويرها . فإن النظر المجرد والنطق المتساوق والتحيص المتتابع ، كل ذلك قد أفضى بنا إلى تجريد معنى (إعجاز القرآن) مما شابه وعلق به ، حتى خلص لنا أنه من قبل النظم والبيان ، ثم ساقنا الاستدلال إلى تحديد صفة القوم الذين تحداهم وصفة لغتهم ، ثم خرج بنا إلى طلب نعت كلامهم ، ثم التسنا الشاهد والدليل على الذي أدانا إليه النظر ، فإذا هو (الشعر الجاهلي) .

وإذن ، فالشعر الجاهلي هو أساس مشكلة (إعجاز القرآن) كما ينبغي أن يواجهها العقل الحديث ؛ وليس أساس هذه المشكلة هو تفسير القرآن على المنهج القديم كا ظن أخي مالك ، وكما يذهب إليه أكثر من بحث أمر إعجاز القرآن على وجه من الوجوه .

ولكن الشعر الجاهلي قد صبَّ عليه بلاءً كثير ، آخرها وأبلغها فساداً وإفساداً ذلك المنهج الذي ابتدعه (مرجليوث) لينسف الثقة به ، فيزعم أنه شعر مشكوك في روايته ، وأنه موضوع بعد الإسلام ؛ وهذا المكر الخفي الذي مكره (مرجليوث) وشيعته وكهنته والذين ارتكبوا له من السفسطة والغش والكذب ما ارتكبوا ، كما شهد بذلك رجل من جنسه هو (آر بري) ، كان يطوي تحت أدلته ومناهجه وحججه ، إدراكاً لمزلة الشعر الجاهلي في شأن إعجاز القرآن ، لا إدراكاً صحيحاً مستيناً ، بل إدراكاً خفياً مبهماً ، تحالطه ضغينة مستكينة للعرب وللإسلام .

وهذا المستشرق وشيعته وكهنته ، كانوا أهون شأناً من أن يحوزوا كبيراً بنهم الذي سلقوه ، وأدلتهم التي احتطبوها لما في تشكيكهم من الزيف والخداع ؛ ولكنهم بلغوا ما بلغوا من استفاضة مكرهم وتغلغلهم في جامعاتنا ، وفي العقل الحديث في العالم الإسلامي ، بوسائل أعانت على نفاذهم ، ليست من العلم ولا من النظر الصحيح في شيء ؛ وقد استطاع رجال من أهل العلم ، أن يسلكوا

إلى إثبات صحة الشعر الجاهلي مناهج لا شك في صدقها وسلامتها ، بلا غش في الاستدلال وبلا خداع في التطبيق ؛ وبلا مراء في الذي يسلم به صريح العقل وصريح النقل ، إلا أنهم لم يلکوا بعد من الوسائل ما يتتيح لهم أن يبلغوا بحقهم ما بلغ أولئك بياطلهم .

وقد ابتهلت أنا بمحنة (الشعر الجاهلي) ، عندما ذرّ قرن الفتنة أيام كنت طالباً في الجامعة ؛ ودارت بي الأيام حتى انتهيت إلى ضرب آخر من الاستدلال على صحة (الشعر الجاهلي) ؛ لا عن طريق روایته وحسب ، بل عن طريق أخرى هي الصدق بأمر (إعجاز القرآن) . فإني مهضت ما مهضت من الشعر الجاهلي ، حتى وجدته يحمل هو نفسه في نفسه أدلة صحته وثبوته . إذ تبيّنت فيه قدرة خارقة على (البيان) ، وتكشف لي عن روائع كثيرة لا تُحَدّ ، وإذا هو علم فريد منصوب لا في أدب العربية وحدها ، بل في آداب الأمم قبل الإسلام وبعد الإسلام . وهذا الانفراط المطلق ، ولا سيما انفراده بخصائصه عن كل شعر بعده من شعر العرب أنفسهم ، هو وحده دليل كاف على صحته وثبوته .

ولقد شغلني (إعجاز القرآن) كاً شغل العقل الحديث ، ولكن شغلني أيضاً هذا (الشعر الجاهلي) ، وشغلني أصحابه فأدّى بي طول الاختبار والامتحان والمدارسة إلى هذا المذهب الذي ذهبت إليه ، حتى صار عندي دليلاً كافياً على صحته وثبوته . فأصحابه الذين ذهبوا ودرجوا وتبدّلت في الثرى أعيانهم ، رأيتهم في هذا الشعر أحياناً يغدون ويروحون ، رأيت شابهم ينزو به جهله ، وشيخهم تدلّف به حكمته ، ورأيت راضيهم يستنير وجهه حتى يشرق ، وغاضبهم تربّد سحنته حتى تظلم ، ورأيت الرجل وصديقه ، والرجل وصاحبته ، والرجل الطريد ليس معه أحد ، ورأيت الفارس على جواده ، والعادي على رجليه ، ورأيت الجماعات في مبداهن ومحضرهم ، فسمعت غزل عشاقهم ، ودلال فتياتهم ، ولاحظت لي نيرانهم وهم يصططون ، وسمعت أنين باكيهم وهم للفارق مزمرون ؛ كل

ذلكرأيته وسمعته من خلالألفاظ هذاالشعر ، حتى سمعت في لفظالشعر همس
الهامس وبُحَة المستكين ، وزفرة الواجد وصرخة الفزع ، وحتى مثلوا بشعرهم
نصب عيني ، كأني لم أفقدهم طرفة عين ، ولم أفقد منازلهم ومعاهدهم ، ولم تغب
عني مذاهبهم في الأرض ، ولا ما أحسوا ووجدوا ، ولا ما سمعوا وأدرکوا ، ولا ما
قادوا وعانوا ، ولا خفي عني شيء مما يكون به الحي حيًّا في هذه الأرض التي
بقيت في التاريخ معروفة باسم (جزيرة العرب) .

وهذا الذي أفضيت إليه من صفة الشعر الجاهلي كا عرفته ، أمر ممكن لمن اتخذ هذه المعرفة أسبابها ، بلا خلط ولا لبس ولا تهاؤن ولا ملل . وهذه المعرفة هي أول الطريق إلى دراسة شعر أهل الجاهلية ، من الوجه الذي يتيح لنا أن نستخلص منه دلالته على أنه شعر قد انفرد بخصائصه عن كل شعر جاء بعده من شعر أهل الإسلام . فإذا صح ذلك . وهو عندي صحيح لا أشك فيه . وجب أن ندرس هذا الشعر دراسة معمقة ، ملقيسين فيه هذه القدرة البينية التي يمتاز بها أهل الجاهلية عن جاء بعدهم ، ومستبطنين من ضروب البيان المختلفة التي أطاحتها قوى لغتهم وأسلتهم . فإذا تم لنا ذلك ، فمن الممكن القريب يومئذ أن نتلمس في القرآن الذي أعجزهم بيانه ، خصائص هذا البيان المفارق لبيان البشر .

وهنا أمر له خطر عظيم ، فلا تظنن أن الشأن في دراسة (الشعر الجاهلي) ، هو شأن المعاني التي تناولها ، والأغراض التي قيل فيها ، والصور التي انطوى عليها ، واللغة التي استخدمها من حيث الفصاحة والعذوبة وما يجري مجريها ، بل الشأن في ذلك أبعد وأعمق وأعوّص ، إنه تميّز القدرة على البيان ، وتجريد ضروب هذا (البيان) على اختلافها ، واستخلاص الخصائص التي أتاحت للغتهم أن تكون معدناً للسمو ، بالإبانة عن جوهر إحساسهم ، سمواً يجعل للكلام حياة كنفخ الروح في الجسد القائم ، وكقوة الإبصار في العين الجامدة ، وكسجية النطق في الbitrary المتجلجة المسماة باللسان .

إِذَا اخْتَدَنَا لَهُذِهِ الْدِرَاسَةِ أَهْبَتْهَا ، وَأَعْدَدْنَا لَهَا مِنَ الصَّبْرِ وَالْجَدِّ وَالْحَذْرِ
مَا يَنْبَغِي لَهَا ، وَاللِّسَانُ لِسَانُنَا ، وَالْقَوْمُ أَسْلَافُنَا ، وَالسَّلَائِقُ مَغْرُوزَةُ فِي أَعْمَاقِ
طَبَاعِنَا ، ثُمَّ أَصَّلَنَا لِلْدِرَاسَةِ مَنَاهِجَ تَعْنِيهَا ، وَاسْتَحْدَثَنَا لَهَا أَسْلُوبًا يَلَائِهَا ،
فَعِنْدَئِذٍ يَدْنُو الَّذِي نَرَاهُ بَعِيدًا ، وَيَتَجَلِّ لَنَا مَا كَانَ غَامِضًا ، وَيَكْشَفُ لَنَا (الْشِعْرُ
(الْجَاهْلِيُّ) عَنْ أَرْوَعِ رَوَائِعِهِ ، وَيَبْذُلُ لَنَا مَا اسْتَكِنَ فِيهِ وَاسْتَرَ مِنْ أَصْوَلِ
(الْبَيَانِ) الْإِنْسَانِيِّ ، بَغْيَرِ تَحْصِيصِ لِلْغَةِ الْعَرَبِ ، فَنَرَاهَا مَاثَلَةً عَلَى أَدْقِ وَجْوَهِهِ
وَأَغْضَبَهَا ، وَفِي أَتْمِ صُورِهِ وَأَكْلَمُهَا .

وَهَذَا الَّذِي أَفَضَّتْ فِيهِ مِنْ ذِكْرِ الشِّعْرِ الْجَاهْلِيِّ ، وَمَا وَجَدَتْهُ فِيهِ فِي نَفْسِي
بَابٌ عَظِيمٌ ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَعِينَنِي بِجُوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، حَتَّى أَكْشَفَ عَنْهُ وَأَجْلِيهِ ، وَحَتَّى
أُؤْيِدَهُ بِكُلِّ بَرْهَانٍ قَاطِعٍ عَلَى تَعْيِيزِهِ عَنْ كُلِّ شِعْرِ الْعَرَبِ بَعْدِهِ ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ نَفْسَهُ
دَلِيلًا حَاسِمًا عَلَى صَحَّةِ رَوَايَتِهِ ، وَعَلَى أَنَّ الرَّوَاةَ لَمْ يَنْحَلُّوْهُ الشُّعْرَاءَ افْتَرَاءَ عَلَيْهِمْ .

وَغَيْرُ خَافِ أَنَّ الَّذِي وَصَلَنَا إِلَى هَذَا الْيَوْمَ مِنْ شِعْرِ الْجَاهْلِيَّةِ ، قَلِيلٌ مَا رَوَتْهُ
الرَّوَاةُ مِنْهُ ، وَالرَّوَاةُ الْقَدِيمَاءُ أَنْفُسُهُمْ لَمْ يَصْلِمُمْ مِنْ شِعْرِهَا إِلَّا الَّذِي قَالَ أَبُو
عُمَرُ بْنُ الْعَلَاءَ ، فِي أَوَّلِ الْقَرْنِ الْثَانِي مِنَ الْهِجْرَةِ : « مَا اتَّهَى إِلَيْكُمْ مَا قَالَتْ
الْعَرَبُ إِلَّا أَفْلَهَهُ ، وَلَوْ جَاءَكُمْ وَافِرًا لَجَاءَكُمْ عِلْمٌ وَشِعْرٌ كَثِيرٌ ». وَمَعَ ذَلِكَ فَهَذَا الْقَلِيلُ
مَجْزِئٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي الدِلَالَةِ عَلَى مَا نَرِيدُ مِنْ الإِبَانَةِ عَنْ تَمِيزِ شِعْرِهِمْ عَنْ شِعْرِ مَنْ
جَاءَ بَعْدِهِمْ ، وَفِيهِ جَمِّ وَافٍ مِنْ خَصَائِصِ الْبَيَانِ الَّتِي امْتَازَ بِهَا أَهْلُ الْجَاهْلِيَّةِ .

وَلَكِنَّ كَيْفَ بَقَى هَذَا الشِّعْرُ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا؟ .. بَقَى مَادَةً لِلْغَةِ الْعَرَبِ ،
وَشَاهِدًا عَلَى حَرْفِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَعَلَى بَابِ مِنَ النَّحْوِ ، وَعَلَى نَكْتَةِ الْبِلَاغَةِ .
وَبَقَى ذَخْرًا لِلرَّوَاةِ ، وَرَكَازًا يَسْتَقْدِمُ مِنْهُ شُعْرَاءُ الْإِسْلَامِ ، وَمَنْبِعًا لِتَارِيخِ الْعَرَبِ فِي
الْجَاهْلِيَّةِ ، بَلْ بَقَى كَنْزًا لِلْعِلُومِ الْعَرَبِيَّةِ جَمِيعًا ، لِكُلِّ عِلْمٍ مِنْهُ نَصِيبٌ عَلَى قَدْرِهِ .
وَلَكِنَّ غَابَ عَنَا أَعْظَمُ مَا بَقَى لِهِ هَذَا الشِّعْرُ : أَنْ يَكُونَ مَادَةً لِدِرَاسَةِ الْبَيَانِ
الْمُفْطُورُ فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ ، مَقَارِنًا بِهَا الْبَيَانِ ، الَّذِي فَاقَ طَاقَةَ بَلْغَاءِ الْجَاهْلِيَّةِ ،

وكانـت له خــصــائـص ظــاهــرـة ، تــجــعــل كلــمــقــتــدــر بــلــيــغ مــبــيــن ، وــكــلــمــتــذــوــق لــلــبــلــاغــة والــبــيــاــن ، لا يــمــلــك إــلــا إــلــقــار لــه ، بــأــنــه مــنــغــير جــنــس مــا يــعــهــدــه ســمــعــه وــذــوقــه ، وــأــنــمــبــلــغــه إــلــى النــاســ نــيــ مــرــســل ، وــأــنــه لا يــطــيــقــ أــنــ يــخــتــلــقــه أو يــفــتــرــيــه لــأــنــه بــشــرــ لا يــدــخــلــ فــي طــوــقــه إــلــا مــا يــدــخــلــ مــثــلــه فــي طــوــقــ الــبــشــر ، وــأــنــه إــنــ تــقــوــلــ غــيــرــ مــا أــمــرــ بــتــبــلــيــغــه وــتــلــاــوــتــه ، بــاــنــ لــلــبــشــرــ كــذــبــه ، وــحــقــ عــلــيــه قــوــلــ مــنــزــلــه مــنــ الســمــاءــ ســبــحــانــه : ﴿ وَلَوْ تَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ، لَأَخْذُنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينِ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزٌ ﴾ [سورة الحــاقــة ٦٩ / ٤٤ - ٤٧]

ولــســائــلــ أــنــ يــســأــلــ : فــحــدــثــي إــذــنــ ، لــمــ بــقــيــ شــعــرــ الــجــاهــلــيــةــ بــهــذــهــ الــنــزــلــةــ لــمــ يــتــجــاــوــزــهــاــ ؟ وــكــيــفــ غــابــ هــذــاــ الــذــيــ زــعــتــ عــنــ أــنــهــ الــعــلــمــ مــنــ قــبــلــكــ ؟ وــكــيــفــ أــخــطــأــهــ عــلــمــاءــ الــبــلــاغــةــ ، وــهــمــ الــذــيــنــ قــصــدــ بــعــلــمــهــ قــصــدــ الــإــبــانــةــ عــنــ إــعــجــازــ الــقــرــآنــ ، وــهــمــ أــقــرــبــ بــالــتــنــزــيلــ عــهــدــاــ مــاــ وــمــنــكــ ؟ وــمــاــ الــذــيــ صــدــ العــقــوــلــ الــبــلــيــغــةــ عــنــ ســلــوــكــ هــذــاــ الــمــنــهــجــ ، وــمــاــ نــهــضــتــ إــلــاــ لــلــمــرــاــمــاــ دــوــنــ إــعــجــازــ الــقــرــآنــ ، فــيــ الــقــدــيمــ وــالــحــدــيــثــ ؟ .

وــحــقــ عــلــيــ أــنــ أــجــيــبــ ، وــلــكــ يــقــتــضــيــ جــوــاــبــ هــذــهــ الــمــســأــلــةــ أــنــ أــقــتــصــ قــصــةــ أــخــرــىــ ، لــاــ أــســتــوــعــ بــالــقــوــلــ فــيــ حــكــاــيــتــهــ تــفــصــيــلــاــ ، بــلــ أــوــجــ الــمــقــالــ فــيــهــاــ إــجــازــاــ مــدــفــوــعــاــ عــنــهــ الــخــلــلــ مــاــ أــطــقــتــ ، وــعــلــىــ ســامــعــهــ أــنــ يــدــفــعــ عــنــ نــفــســهــ الــغــفــلــةــ مــاــ أــطــقــ ؟ .

فــأــهــلــ الــجــاهــلــيــةــ هــمــ مــنــ وــصــفــتــ لــكــ مــنــزــلــتــهــمــ مــنــ الــبــيــاــنــ ، وــقــدــرــتــهــمــ عــلــ تــصــرــيــفــهــ بــأــلــســنــتــهــمــ ، وــتــمــكــنــهــمــ مــنــ تــذــوــقــهــ بــأــدــقــ حــاســةــ فــيــ قــلــوــبــهــ وــنــفــوــســهــ ، وــعــلــمــهــ بــأــســارــهــ ، وــتــغــلــفــهــمــ فــيــ إــدــرــاــكــ الــحــجــازــ الــفــاــصــلــ بــيــنــ مــاــ هــوــ مــنــ نــحــوــ بــيــانــ الــبــشــرــ ، وــمــاــ لــيــســ مــنــ بــيــانــهــ ؛ أــهــلــ الــجــاهــلــيــةــ هــؤــلــاءــ ، هــمــ الــذــيــنــ جــاءــهــ كــتــابــ مــنــ الســمــاءــ بــلــســانــهــ ؛ هــوــ فــيــ آــيــاتــ اللــهــ بــنــزــلــةــ عــصــاــ مــوــســىــ ، وــإــبــرــاءــ الــأــكــمــهــ وــالــأــبــرــصــ فــيــ آــيــاتــ أــنــبــيــائــهــ ، لــتــكــونــ تــلــاــوــتــهــ عــلــ أــســمــاعــهــ بــرــهــاــ قــاــهــرــاــ يــلــزــمــهــ بــإــلــقــارــ لــهــ بــصــحــةــ تــنــزــيلــهــ مــنــ الســمــاءــ عــلــ قــلــبــ رــجــلــ مــنــهــ ، وــأــنــ هــذــاــ الرــجــلــ نــيــ مــرــســلــ ، عــلــيــهــمــ أــنــ يــتــبــعــهــ وــأــنــ يــســتــجــيــبــوــ لــاــ

دعاهم إلية ، فلما كذبوا وأنكروا نبوته ، تخدأهم أن يأتوا بمثل هذا الذي يسعون في نظمه وبيانه ، وألح عليهم يتحداهم في آيات منه كثيرة ، ولكنهم وجدوا في أنفسهم مفارقتهم لبيان البشر ، وجداناً الجأهم إلى ترك المعارضة إنصافاً للبيان أن يجأر على حقه ، وتنزياً له أن يزري به جورهم عن هذا الحق .

وعلى الذي تلقوه به من اللدد في الخصومة والعناد لم يلبث أن استجاب له النفر بعد النفر إقراراً وتسليماً بأن الكتاب كلام الله ، وأن الرجل نبي الله ، ثم تتابع إيمان المؤمنين منهم ، حتى لم تبق دار من دور أهل الجاهلية إلا دخلها الإسلام أو عَهَا ، وألقوا إليه المقادرة على أنه لا يتم إيمان أحدهم حتى يكون هذا الرجل ، بأبي هو وأمي ؛ أحب إليه من أهله وولده . وهذه أعمالهم تصدق ذلك كله .

فأقبل كل بلية منهم مبين ، وكل متذوق للبيان ناقد يتحفظ ما نزل من القرآن ويتلوه ويتبعده به ، ويتبني تزيله تتبع الحريص المتهلك ، ويصيخ له وينصت حين يتلى في الصلوات وعلى المنابر يوماً بعد يوم ؛ وشهرأً بعد شهر ؛ وعاماً بعد عام ، وكلهم مختب خاشع لذكر الله وما نزل من الحق ، يصدق إخبارهم وخشوعهم ما قال الله سبحانه : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًاً مَتَّشِّهًاً مَثَانِيَ تَقْسِعُّ مِنْهُ جَلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، ثُمَّ تَلَيْنَ جَلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذَكْرِ اللَّهِ، ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَالَّهُ مِنْ هَادِ﴾ [سورة الزمر ٢٩/٢٣].

ثم صار للقرآن في جزيرة العرب دوي كدو النحل ، وخشعت أسماع للجاهلية كانت بالأمس ، للذي يتلى عليهم من كلام الله الذي خلقهم ، وجعل لهم السمع والأبصار والأفءدة ، وأخبت ألسنة للجاهلية كانت بالأمس ، إقراراً لهذا القرآن بالعبودية ، كما أقرواهم للذي اصطفى لغتهم لكلامه سبحانه بالعبودية ، وماجت بهم جزيرة العرب مهليين مكبرين مسبحين ، كلما علوا شرفاً أو هبطوا وادياً ، وأقاموا تالين للقرآن بالغدو والآصال ، وبالليل والأسحار وانطلقوا يتبعون سنن نبيهم ويتلقفونها ، وخلعوا عن قلوبهم ونفوسهم وعقولهم وألسنتهم

ظلمة الجاهلية ، ودخلوا بألسنتهم وعقولهم ونقوشهم وقلوبهم في نور الإسلام .

ثم طار بهم هذا القرآن في كل وجه ، يدعون الناس أسودهم وأحرارهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويحملون إليهم هذا الكتاب المعجز ببيانه لبيان البشر ، والذي نزل بلسانهم حجة على الخلق ، وهدى يخرجهم من الظلمات إلى النور . فكان من أمرهم يومئذ ما وصفه ابن سلام في كتاب (طبقات فحول الشعراء) حين ذكر مقالة عمر بن الخطاب في أهل الجاهلية : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ». فقال ابن سلام تعليقاً على ذلك : « فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، وهلت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب في الأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب . وألفوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير ». .

ولا يغرك ما قال (ابن سلام) ، فتحسب أن أهل الجاهلية الذين هدأهم الله للإسلام ، طرحوا شعر جاهليتهم دبر آذانهم ، فانصرفوا عنه صماً وبكماً ، وخلعوا عن عقولهم وألسنتهم كاً خلعوا جاهليتهم ، فهذا باطل تكذبه أخبارهم ، وينقضه منطق طبائع البشر وتاريخ حياتهم ، بل كان أكبر ما لحقه من الضيم : أن نازعه القرآن فصرف همهم إليه ، فكان نصيبيه من إنشادهم وقصيدتهم القصائد أقل مما كان في جاهليتهم ، ولكنه بقي مع ذلك هو الذي يؤوبون إليه إذا شق عليهم طول مدارسة القرآن ، وهو الذي يستريحون إليه إذا فرغوا مما فرض عليهم ربهم ، وسن لهم نبيهم ﷺ . وظل ذلك دأبهم في أول إسلامهم ، ونشأ أبناءهم يسمون منهم شعر جاهليتهم ويستمعون إلى مكتوز بيانهم في ألسنتهم ، فيخرجون أيضاً مركزاً ذلك البيان في طباعهم ، وينتقل ذلك بما يشبه العدوى إلى مسلمة الأعاجم وأبناءهم .

وحيث نزل أهل الجاهلية الذين أسلموا نزل معهم الذكر الحكيم ، ونزل شعر الجاهلية وتدارسوه وتناشدوه ، وقوموا به لسان الذين أسلموا من غير العرب . وأصبح زاد المتفقه في معرفة معاني كتاب ربه ، هو مدارسة الشعر الجاهلي ، لأنه لا يستقل أحد بفهم القرآن حتى يستقل بفهمه وحسبك أن تعرف مصداق ذلك قول الشافعي فيما بعد ، في القرن الثاني من الهجرة : « لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله ، إلا رجلاً عارفاً بكتاب الله ، بناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشا به ، وتأوyleه وتنتزيله ومكيمه ومدنيه وما أريد به . ويكون بعد ذلك بصيراً بحديث رسول الله ﷺ ، وبالناسخ والمنسوخ ، ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن ، ويكون بصيراً باللغة بصيراً بالشعر ، وما يحتاج إليه للسنة والقرآن ». فليس يكفي أن يكون عارفاً بالشعر ، بل بصيراً به أشد البصر ، كما قال الشافعي رحمه الله ، والذي قاله الشافعي بعد قرن ، هو الذي جرى العمل عليه في أول الإسلام .

واستفاضت بالمسلمين الفتوح ، واستفاض معهم شعر جاهليتهم ، وأسلمت الأمم ودخلت في العربية كا دخلت في الإسلام ، ونزل بيان القرآن كالغيث على فطرة جديدة ، فطرة أهل الألسنة غير العربية ، بعد أن رويت من بيان الجاهلية في الشعر الجاهلي . وامتزجت العرب من الصحابة والتابعين وأبنائهم ، بأهل هذه الألسنة التي دخلت في العربية ، فنشأ من امتزاج ذلك كله بيان جديد ، ظل ينتقل ويتغير ويتبدل جيلاً بعد جيل ، ولكن بقي أهله بعد ذلك كله ، محتفظين بقدرة عتيدة حاضرة ، هي تذوق البيان تذوقاً عليماً ، يعينهم على تقييز بيان البشر كتعهده سلائقهم وفطراهم ، وبيان القرآن الذي يفارق خصائص بيانهم من كل وجه .

ثم فارت الأرض بالإسلام من حد الصين شرقاً إلى حد الأندلس غرباً ، ومن حد بلاد الروم شمالاً إلى حد الهند جنوباً ، وسمع دوي القرآن العربي في أرجاء الأرض المعمورة . وقامت المساجد في كل قرية ومدينة وازدحمت في ساحاتها

صفوف عباد الرحمن ، وعلا منابرها الدعاة إلى الحق ، وتحلقت الخلق في كل مسجد ، وتداعى إليها طلاب العلم ، فطائفة تتلقى القرآن من قرائه ، وطائفة تدرس تفسير آياته ، وطائفة تروي حديث رسول الله عن حفاظه ، وطائفة تأخذ العربية عن شيوخها ، وطائفة تتلقى شعر الجاهلية والإسلام عن رواته ، طوائف بعد طوائف في أنحاء المساجد المتدانية ، طوائف من كل لون وجنس ولسان ، كلهم طالب علم ، وكلهم يتنقل من مجلس شيخ إلى مجلس شيخ آخر ، فكل ذلك علم لا يستغنى عنه مسلم تال للقرآن . لا بل حتى أسواقهم قام فيها الشعراء ينشدون شعرهم ، أو يتنافرون به ويتهاجون ، والرواة تحفظ ، والناس يقبلون ينصتون ، وينقلبون يتجادلون ، وعجبت نواحي الأرض بالقرآن وباللسان العربي ، لا فرق بين ديار العجم كانت وديار العرب .

وبعد دهر نبتت نابتة الشيطان في أهل كل دين ، وجاؤوا بالمراء والمجد ، وباللدد والخصام ، وشققا الكلام بالرأي والهوى ، فنشأت بوادر من النظر في كل علم ، وعندئذ نجم الخلاف ، وانتهى الخلاف إلى الجرأة ، وأفضت الجرأة يوماً إلى رجل في أواخر دولة بني أمية يقال له (الجعد بن درهم) ، وكان شيطاناً خبيثاً الذهب ، تلقى مذهبة عن رجل من أبناء اليهود ، يقال له : (طالوت) ، فكذب القرآن في اتخاذ إبراهيم خليلاً ، وفي تكليم موسى ، إلى هذا وشبهه ، وكان من قوله : إن فصاحة القرآن غير معجزة ، وإن الناس قادرون على مثلها وأحسن منها !! .. فضحى به خالد بن عبد الله القسري في عيد الأضحى ، في نحسنة ١٢٤ من المجرة .

وكلام (الجعد) كما ترى ، استطالة رجل جريء اللسان خبيث المبت ، بلا حجة من تاريخ أو عقل .

ولم تكدر دولة بني العباس ترسي قواعدها حتى دخلت بعض العقول إلى فحص (إعجاز القرآن) ، من باب غير باب السفة والاستطالة ، فقام بالأمر كهف

المعتزلة ولسانها : (أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام) . فأئمها من قبل الرأي والنظر ، حتى زعم أن الله قد صرف العرب عن معارضته القرآن ، مع قدرتهم عليها ، فكانت هذه الصرفة هي المعجزة ؛ أما معجزة القرآن فهي في إخباره بكل غيب مضى وكل غيب سيأتي . وهذه مقالة لا أصل لها إلا الحيرة والابهار من هذا الذي أعجز أهل الجاهلية وأسكنتهم . وهب قوم يعارضونه ويجادلونه ، منهم صاحبه أبو عثمان الجاحظ ، فألف كتابه في (نظم القرآن) ، وأنه غاية في البلاغة ، وقال الجاحظ وغيره ومن يليهم ، ولكن ظل الأمر محصوراً في إثبات (الصرفة) وإبطالها ، وفي طرف من الاستدلال على بلاغة القرآن وسلامته مما يشين لفظه ، وخلوه من التناقض ، واشتاله على المعاني الدقيقة ، ومما فيه من نبأ الغيب ، إلى آخر ما تجده مبسوطاً في كتب القوم ، والذي عرفت قولنا فيه فيما مضى من كلامنا .

ثم كثرت اللجاجة بين هذه الفئات من عرروا باسم المتكلمين ، وكان أمرهم أمر جدال وبسطة لسان وغلبة حجة ومناهضة دليل بدليل ، حتى إذا صارت مسألة (إعجاز القرآن) مسألة تستوجب أن ينبرى لها رجل صادق ، انبرى لهؤلاء المتكلمين (أبو بكر الباقلاني) المتوفى سنة ٤٠٢ هـ ، والناس يومئذ بين رجلين ، كما قال هو نفسه : « ذاهب عن الحق ، ذاهل عن الرشد ، وأخر مصدود عن نصرته مكدوذ في صنعته ؛ فقد أدى ذلك إلى خوض الملحدين في أصول الدين ، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين ، وذكر لي عن بعض جهالهم أنه جعل يعدله بعض الأشعار ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ، ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه ، وليس هذا يدع من ملحدة هذا العصر ، وقد سبقهم إلى عُظم ما يقولون إخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم » (كتابه إعجاز القرآن ص ٥ ، ٦) وهذا هو الذي حفظه وأهاجه ، حتى كتب كتابه المعروف (إعجاز القرآن) . وكتب الباقلاني كتابه وأهل اللسان العربي يومئذ هم الناس ، ولم ينزل

تندوتهم للبيان ما وصفت لك ، تذوق ملتبس بالطبع مردود إلى السائق ، مشحوذ بمدارسة الشعر وسماعه وروايته ؛ ولكن لم يضر جمورو هذا الطياع شيئاً أن استفاض الجدل وظهر سلطانه ، وأن صارت كل فرقه تضطر كلاماً ، تناضل به عن رأيها ، وتقطع به حجة خصها ، طلباً للغلبة لا تحيصاً للرأي ، وفحضاً عن الحق .

ورضي الله عن أبي بكر الباقلاني ، فقد جمع في كتابه خيراً كثيراً ، واستفتح بسليم فطرته أبواباً كانت قبله مغلقة ، وكشف عن وجوه البلاغة حجاباً مستوراً . ولكنه زل زلة كان لها بعد ذلك آثار متلاحقة ، وإن لم يقصد بها هو قصد العاقبة التي انتهت إليها .

كان الباقلاني حقيقةً أن ينهج النهج الذي أدناه إليه تحيص مسألة (الإعجاز) ، ويومئذ يجعل الشعر الجاهلي أصلاً في دراسة بيان عرب الجahلية ، من ناحية تمثله لخصائص بيان البشر ، والباقلاني رضي الله عنه كان يجد في نفسه وجداناً واضحاً أن خصائص بيان القرآن مفارقة لخصائص بيان البشر ، وقد ألمح إلى ذلك في كتابه ، كما ألمح إليه من سبقه . بيد أن جدل المتكلمين قبله وعلى عهده ، وخوض الملحدين في أصول الدين كما قال ، ومنهجهم في اللجاجة وطلب الغلبة ، كل ذلك لم يدعه حتى استغرقه في الرد عليهم ، على مثل منهاجم من النظر . ثم دارت به الدنيا ، لما بلغه أن بعض جهالهم يعدل القرآن ببعض الأشعار ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام .

وأنت تستطيع أن تقرأ كتابه فصلاً فصلاً لتجد مصداق ما أقول لك . حتى إذا انتهى إلى الذي هاجه ، من موازنة القرآن ببعض الأشعار ، هب إلى تسفيه هذه الموازنة ، فدعاك في أوسط كتابه أن تعمد معه إلى مالا تشک في جودته من شعر أمرئ القيس ، وما لا ترتتاب في براعته ، ولا تتوقف في فصاحته ، كما قال في كتابه (ص ٢٤١) ، فطرح بين يديك هذه القصيدة ، وجعل يفصلها وينقدها

ويحول من محسنها ويثبت ، ويقف بك على مواضع خللها ، ويفضي بك إلى مكامن ضعفها ، ولم يزل يعرّيها حتى كشف الغطاء عن عوارها ، ثم ختم ذلك بقوله : « وقد بینا لك أن هذه القصيدة ونظائرها ، تفاوت في أبياتها تفاوتاً بیناً في الجودة والرداءة ، والسلasse والانعداد ، والسلامة والانحلال ، والتکن والاستصعب ، والتسهيل والاسترسال ، والتتوحش والاستکراه ، وله شركاء في نظائرها ، ومنازعون في محسنها ، ومعارضون في بداعها ». .

فليما انتهى من ذلك افتتح فصلاً شريفاً نبيلاً ، ذكر فيه آيات من القرآن ، وحاول أن يقف بك على بداع نظمها وبيانها ، وهذا الفصل هو أدل الدليل على أن الباقلاني ، لو كان استقام له المنهج الذي ذكرناه ، لبلغ فيه غاية يسبق فيها المتقدم ، ويکد فيها جهد المتأخر ؛ ولكنه لم يزد في هذا الفصل على أن جعل يقف بك على بيان شرف الآيات لفظاً ومعنى ، ولطيف حکايتها ، وتلاؤم رصها وتشاکل نظمها ، وأن نظم القرآن لا يتفاوت في شيء ، ولا يتباين في أمر ، ولا يختل في حال ، بل له المثل الأعلى والفضل الأعلى (كتابه ص ٢٠٢ ، ٣٥) ؛ وذكر تنااسب الآيات في البلاغة والإبداع ، وتقايلها في السلasse والإعراب ؛ وانفرادها بذلك الأسلوب ، وتحصصها بذلك الترتيب . أما غيرها من الكلام ، فهو يضطرب في مجاريه ويختل تصرفه في معانيه ، وهو كثیر التلون دائم التغير والتنکر ، ويقف بك على بدیع مستحسن ، ويعقبه بقبيح مستهجن ، و يأتيك باللفظة المستنكرة ، بين الكلمات هي كالآلئ الزهر ، (كتابه ص ٢١٢ ، ٣١٤) . ثم انتهى إلى قوله في القرآن : « وعلى هذا فقس بحثك عن شرف الكلام ، وما له من علو الشأن ، لا يطلب مطلباً إلا افتح ، ولا يسلك قلباً إلا انشرح ، ولا يذهب مذهباً إلا استنار وأضاء ، ولا يضرب مضرباً إلا بلغ فيه السماء ، ولا تقع منه على فائدة فقدرت أنها أقصى فوائدتها إلا قصرت ، ولا تظهر بحكمة فظننت أنها زبدة حکمها إلا قد أخللت . إن الذي عارض القرآن بشعر امرئ القيس ، لأضل من حمار باهله ، وأحمق من هبنقة» (كتابه ص ٢٢١ ، ٣٢٢) .

وصدق الباقلاني في كل ما قال ، إلا أنه لم يزد على أن بين خلو القرآن من الاختلاف والتغيير ، وبراءته من كل ما يلحق كلام الناس من عيب وخلل ، وكل ما هو قرین لضعف طبائعهم ، وإن استحکمت قواهم ، ودار على عماهم عن كثير من الحق ، وإن استنارت بصائرهم . ولعمري إنه الحق لا ينال منه الباطل ، ولكنه غير الذي ينبغي أن تطلبـه من كشف أصول البيان التي يفارقـها بيان القرآن بيان البشر من الوجه الذي فصلناه .

وليس هذا موضع بحثنا الآن ، ولكن بحثنا عن الشعر الجاهلي ، وما كان من أمره . فهذه الموازنة التي هاجت الباقلاني كا ذكرـه ، حملـته على هـتكـ السـترـ عن معلقة امرئ القيـس ، ليكشفـ للـنـاسـ عـيـبـهـاـ وـخـلـلـهـاـ ، لا لـيـسـتـخـرـجـ منـهـ خـصـائـصـ بـيـانـهـ ، وكـيـفـ كـانـتـ هـذـهـ خـصـائـصـ مـفـارـقـةـ لـخـصـائـصـ بـيـانـ الـقـرـآنـ ، فـلـماـ زـلـ الـبـاقـلـانـيـ هـذـهـ زـلـةـ وـأـخـطـأـ الـطـرـيـزـ ، زـلـ بـهـ مـنـ بـعـدـهـ وـأـخـطـأـهـ ، وـأـخـذـواـ الشـعـرـ الجـاهـلـيـ كـلـهـ هـذـاـ المـأـخـذـ ، وـلـكـنـ العـجـبـ بـعـدـ ذـلـكـ أـنـ (ـالـشـعـرـ الجـاهـلـيـ)ـ ظـلـ عـنـ الـبـلـغـاءـ وـجـمـهـورـ النـاسـ هـوـ مـثـقـفـ الـأـلـسـنـةـ وـالـحـجـةـ عـلـىـ الـلـغـةـ ، وـالـشـاهـدـ عـلـىـ النـحوـ وـمـاـ إـلـىـ ذـلـكـ . وـلـكـنـهـ إـذـاـ جـاؤـواـ لـذـكـرـ الـقـرـآنـ وـإـعـجـازـهـ ، اـخـذـوـهـ هـدـفـاـ لـلـنـقـدـ وـالـتـفـلـيـةـ وـإـظـهـارـ الـعـيـبـ وـتـبـيـنـ الـخـلـلـ ، بـإـزـاءـ كـلـامـ بـرـيـءـ مـنـ كـلـ عـيـبـ وـخـلـلـ ؛ فـيـبـقـىـ الـأـمـرـ مـوـازـنـةـ لـاـ عـدـلـ فـيـهـ . وـكـانـ حـسـبـهـ مـنـ الدـلـلـ أـنـ أـهـلـ الـجـاهـلـيـةـ بـتـرـكـهـ مـعـارـضـةـ الـقـرـآنـ بـشـعـرـهـ أـوـ كـلـامـهـ ، هـوـ إـقـرـارـ لـاـ مـعـقـبـ عـلـيـهـ بـفـضـلـ هـذـاـ الـقـرـآنـ عـلـىـ شـعـرـهـ وـكـلـامـهـ ، فـلـمـ تـكـنـ بـالـبـاقـلـانـيـ حـاجـةـ إـلـىـ سـلـوكـ هـذـاـ الـطـرـيـقـ الـذـيـ سـلـكـهـ ، إـلـاـ مـاـ حـمـلـهـ عـلـيـهـ مـاـ نـعـقـ بـهـ جـاهـلـ مـنـ جـهـالـ الـمـتـلـعـدـةـ ، مـنـ الـمـواـزـنـةـ بـيـنـ الـكـلـامـيـنـ ، وـتـفـضـيـلـ شـعـرـهـ عـلـىـ الـقـرـآنـ .

وـكـانـ قـدـ نـازـعـ ذـلـكـ بـاـبـ آـخـرـ مـنـ الـلـجـاجـةـ ، فـيـ الـمـواـزـنـةـ بـيـنـ شـعـرـ الـجـاهـلـيـةـ ، وـشـعـرـ الـمـحـدـثـيـنـ مـنـ شـعـرـاءـ الـإـسـلـامـ ، وـظـلـ الـجـدـالـ فـيـ تـفـضـيـلـ أحـدـهـاـ عـلـىـ الـآـخـرـ بـاـبـاـ تـقـتـحـمـهـ الـأـلـسـنـةـ طـلـبـاـ لـمـعـالـبـةـ وـالـظـهـورـ ، وـدـاـخـلـ ذـلـكـ مـنـ إـلـزـاءـ عـلـىـ الـشـعـرـ

الجاهلي وعييه ما داخل ، فكان هذا أيضاً صارفاً عن مدارسته على الوجه الذي طلبناه في صدر حديثنا . وفي خلال ذلك كله ، تجمعت على فهم الشعر الجاهلي أخطاء شديدة الخطأ ، غَشَّتْ حقيقته بمحاجب كثيف من الغموض ، زاده كثافة ما لحق الشعر الجاهلي من التشتيت والضياع ، وما أصابه من اختلال الرواية بالزيادة والنقصان والتقديم والتأخير ، حتى اختلطت فيه المعاني أحياناً اختلاطاً ، سهل لكل عائب أن يقول فيه ما عنَّ له . ومع كل ذلك أيضاً بقي الشعر الجاهلي مثقفاً للألسنة ، ومعدناً لشواهد اللغة والنحو والبلاغة .

فليت شعري أي بلاء ترى أصاب هذا الشعر !!

ثم تابعت العصور على ذلك وعلى ما هو أشنع منه ، حتى أفضينا به في هذا العصر الحديث إلى أقبح الشناعة ، يوم فرض الاستعمار الغربي الفازي ، على مدارسنا منهاجاً من الدراسة لا يقوم على أصل صحيح ، كان يرمي في نهايته إلى إضعاف دراسة العربية إضعافاً شائناً ، لا مثيل له في كل لغات العالم التي يتلقاها الشباب في معاهد التعليم على اختلاف درجاتها . ثم طمت الشناعة بعد سنين ، حين عزلت اللغة العربية كلها عزلاً مقصوداً عن كل علم وفن ، وأصبح الشباب يتعلم لغته على أنها درس محدد ، هو ثقيل بهذا التحديد المجرم على كل نفس ، وخاصة نفوس الشباب الغض . ثم لما أنشئت الجامعة ، ودخلها هؤلاء الشباب على ما هم فيه من الملل بلغتهم ، ومن الاستهانة بأمرها ، طلع قرن الشيطان بفتنة (الشعر) والتشكيك في صحة روایته ، وطار الشر إلى الصحافة ، فاتخذت اللغة القدية كلها لا الشعر الجاهلي وحده ، مادة للهزة والسخرية ، وللنكتة والزراية ، لا بل تندروا بكل من بقي على شيء من المحافظة على سلامية اللغة ، سلامية هي كبراء الذمة لا أكثر ولا أقل .

هذا تاريخ مختصر للأسباب التي وقفت بالشعر الجاهلي حيث وقف قدماً ، فحالت بين علماء البلاغة والمنهج الذي كشفته وبينته ، وكان لزاماً عليهم وعلينا

أن نسلكه لدراسة إعجاز القرآن ، دراسة صحيحة سلية من الآفات . وهو تاريخ أشد اختصاراً للذى تبع ذلك في العصر الحديث ، لما صار (الشعر الجاهلي) ملهاة يتلهى بها كل من ملك لساناً ينطق ، حتى ألقى ذلك كله ظلاً من الكابة والظلمة على دراسات المحدثين في الجامعة وغير الجامعة ، حين يدرس أحدهم هذا الشعر . هذا الشعر الذي كان حين أنزل الله القرآن على نبيه ﷺ ، نوراً يضيء ظلمات الجاهلية ، ويعكف أهله لبيانه عكوف الوثني للصنم ، ويسجدون لآياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها لأوثانهم قط . فقد كانوا عبدة البيان قبل أن يكونوا عبدة الأوثان ! وقد سمعنا من استخف منهم بأوثانهم ، ولم نسمع قط بأحد منهم استخف ببيانهم .

وأنت خليق أن تعرف أن الشيء الذي طلبه واحتجبت له ، وحاولت أن أكشف عن منهاجه ومذهبه ، إنما يتعلق بخصائص البيان في القرآن ، وخصائص بيان البشر على اختلاف أسلوباتهم ، وأن مخرج هذا غير مخرج هذا ، وأن الشعر الجاهلي ، إنما هو مادة الدراسة الأولى ، لأن القرآن نزل بلسان العرب ، والذين نزل عليهم ثم تحدّاهم وأعجزهم ، هم أصحاب هذا الشعر والمفتونون به وبيانه . وهذا باب غير الباب الذي افتتحه الباقلاني ، ثم فجر عيونه إمام البلاغة (عبد القاهر الجرجاني) المتوفى سنة ٤٧٤ هـ في كتابه (دلائل الإعجاز) ، و (أسرار البلاغة) ، ثم أبدع فيه العلماء ما أبدعوا ، وزادوا فيه عليه ونقصوا . وكان ذلك بعد أن أغلق الباب الذي فصلنا القول فيه ، كان هو الجدير بأن يفتتحه الباقلاني وعبد القاهر .

إذا تم ما دعونا إليه لأهل هذا اللسان العربي يوماً ما ، وعسى أن يكون ذلك بتوفيق الله ، فسيكون ذلك فتحاً مبيناً لا في تاريخ البلاغة العربية وحدها ، بل في تاريخ بلاغة الجنس الإنساني كله . وسيكون أيضاً مقناً ، ورضي لهذا (العقل الحديث) الذي يتطلب في معرفة (إعجاز القرآن) ما يرضي عنه

ويطمئن إليه ، وليس هذا فحسب ، بل إن أهل الحق من أهل الإسلام ، سيجدون يومئذ وسيلة لا تدانيها وسيلة ، تسهل لهم ما استغلق عليهم من دعوة الناس إلى كتاب الله الذي خص به العرب ، وجعل فيه ذكرهم على الدهر حين أنزله بلسانهم ، ولكنه جعله هدى للبشر جميعاً عربهم وعجمهم . ويومئذ ستبطل فتنة (ترجمة القرآن) من أصلها ، لسبب ظاهر أشد الظهور . فإن البشر إذا لم يكن في طاقتهم بالسنن التي يدعون في شعرها ونثرها ، أن يأتوا ببيان القرآن ، تدل تلاوته على أنه بيان مفارق لبيان البشر ، فمن طول السفة وغلبة الحماقة ، أن يدعى أحد أنه يستطيع أن يترجم القرآن ، فيأتي في الترجمة ببيان مفارق لبيان البشر . فإذا لم يكن ذلك في طاقة أحد ، لم يكن لهذه الترجمة معنى بل سيكون فيها من القصور والتخلف ، ما يجعل القرآن كلاماً كسائر الكلام ، لا آية فيه ولا حجة على أحد من العالمين ، ولا توجب ترجمته على أحد أن يؤمن بما فيه ، وإن خالف ما جرى عليه اعتقاده أو علمه ، إلا إذا آمن من قبل أنه كتاب منزل من السماء . وهذا عكس لآية القرآن ، وهي أن بيانه هو الدليل القطع على أنه ليس من كلام البشر ، وأنه كتاب منزل من السماء ، وأنه هو كلام رب العالمين الذي تبعدهنا بتلاوته ، والذي قال فيه رسول الله ﷺ : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه ، وهو عليه شاق ، له أجران ». وقال أيضاً : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول هـ ألم حرف ، ولكن أقول ألف حرف ، ولا محرف ، وميم حرف ».

☆ ☆ ☆

وأما بعد ، فعسى أن يكون الله قد ادخل آخر هذه الأمة ، بعض ما يلحقها بفضل أولها ، فتفتح بالقرآن آذاناً صاً وعيوناً عميأً وقلوباً غلفاً ، وتخرج بهديه الناس من ضلالتهم ، وتذودهم به عن اتباع خطوات الشيطان ، إلى اكتفاء

الصراط المستقيم ، والله تعالى يقول لنبيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَا كَبُونَ ﴾ [المؤمنون ٢٣/٧٤] .

وعسى أن يتم على يد آخرها ما خباء الله عن أولها ، وعسى أن يكون ذلك مخبوءاً في هذا الفصل الذي نجده في أنفسنا بين بيان الله سبحانه ، وبين عباده من البشر .

﴿ قُلْ فَلَلَّهِ الْحَجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَا كُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [سورة الأنعام ٦/١٤٩] .

ورحم الله مالك بن أنس إذ يقول : « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » ، فإذا كان أولها لم يصلح إلا بالبيان ، فآخرها كذلك لن يصلح إلا به ، وإن امرأ يقتل لغته وبينها ، وآخر يقتل نفسه لشلان ، والثاني أعقل الرجلين ! .

وشكر الله لأخي مالك بن نبي ، وقد دعاني إلى كتابة مقدمة لكتابه : (الظاهرية القرآنية) ، ففتح لي به باباً من القول في (إعجاز القرآن) كنت أهتسب أن الجبه ، وباباً آخر من القول في (الشعر الجاهلي) كنت أماطل نفسي دونه ، وأنا أعلم أنني قد قصرت في ذلك كله واختصرت ، وإن كنت قد أطلت ، وأخشى أن أكون قد أمللت ، ولكن عذرني أن الرأي فيها كان قد شابه ما كدره ، فبذلك جهدي أن أحص القول فيها ، حتى أنفني عنها القدى ، وأخلصها من الأذى ، مبتغيًا بذلك وسيلة إلى ربى سبحانه ، طلبت القربة عنده ، ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تَحْاجَدُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَقَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [النحل ١٦/١١١] .

والحمد لله وحده ، ولا حول ولا قوة إلا به ، ولا فضل إلا من عنده .

مُهَمَّدُ مُحَمَّدٌ شَاكِرٌ

☆ ☆ ☆

مدخل

إلى دراسة الظاهرة القرآنية



مدخل إلى دراسة الظاهرة القرآنية^(١)

لم يَتَحْ هذا الكتاب أن يرى النور في صورته الكاملة ، فالواقع أَنَا قد أَعْدَنا تأليف أصوله التي أَحْرَقْتُ في ظروف خاصة . وهو كَمَا هُوَ الْآن ، لَا يَكْفِي فِي علاج فَكْرَتَنَا الْأَوَّلِيَّةَ عَنِ الْمُشَكَّلَةِ الْقُرْآنِيَّةِ ؛ فَإِنَّ الْمَوْضُوعَ يَتَطَلَّبُ عَمَلًا شَاقًا طَوِيلًا الأنفاس ، وَمَرَاجِعَ ذاتِ أَهْمَيَّةِ قَصْوَى ؛ لَمْ يَكُنْ بُوْسِعُنَا الْحَصُولُ عَلَيْهَا فِي مَحَاوِلَتَنَا الْثَّانِيَّةِ . غَيْرَ أَنَا لَا زَلْنَا نُشَعِّرُ بِقِيمَةِ الْفَكْرَةِ الَّتِي سَاقْنَا إِلَى هَذِهِ الْدِرَاسَةِ ، حَتَّى لَقِدْ أَمَنَّا بِالْحَيْرَةِ بِذَلِيلِ مَا نُسْتَطِعُ مِنْ الْجَهَدِ فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِهَا ، مَهْمَّا تَكُنْ صَعْوَدَاتِ الْمَشْرُوعِ ، وَمَهْمَّا تَكُنْ الْمَعْوِقَاتِ دُونَ تَحْقِيقِهِ .

وَلَنَا حَاوِلُنَا أَنْ نَجْمِعَ الْعَنَاصِرَ الَّتِي بَقِيَتْ مِنَ الْأَصْلِ مَكْتُوبَةً فِي قَصَاصَاتِ ، أَوْ مَسْجَلَةً فِي الْذَّاِكْرَةِ ، فَأَنْقَذْنَا بِذَلِكَ - عَلَى مَا نَعْتَقِدُ - جَوْهَرَ الْمَوْضُوعِ ، وَهُوَ الْاِهْتَامُ بِتَحْقِيقِ مَهْجُوكِ تَحْلِيلِيٍّ فِي دِرَاسَةِ الْظَّاهِرَةِ الْقُرْآنِيَّةِ ، وَهُوَ مَهْجُوكٌ يَحْقِقُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْعَمَلِيَّةِ هَدْفَانِ مَزْدُوجَانِ هُوَ :

١ - أَنَّهُ يَتَيَّبُ لِلشَّابِ الْمُسْلِمِ فَرَصَةُ التَّأْمِلِ النَّاضِجُ فِي الدِّينِ .

٢ - وَأَنَّهُ يَقْرَرُ إِصْلَاحًا مَنْسَابًا لِلْمَهْجُوكِ الْقَدِيمِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ .

وَهَذِهِ الْمَهْمَةُ وَتَلْكَ تَرْجِعُ إِلَى أَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ ، يَتَصَلُّ بَعْضُهَا بِالْتَّطْوِيرِ الْثَّقَافِيِّ الَّذِي حَدَّثَ فِي الْعَالَمِ إِلَيْهِ بِصُورَةٍ عَامَّةٍ ، وَبَعْضُهَا يَرْجِعُ إِلَى عَنْصَرٍ

(١) هَذِهِ الْمَدْرِكُ مَنْشُورٌ فِي رِسَالَةٍ مَسْتَقْلَةٍ .

آخر ، يمكن أن نسميه (تطور نظرتنا في مشكلة الإعجاز) بصورة خاصة ، ولابد إذن من عرض هذه الأسباب بترتيبها :

أولاً : الأسباب التاريخية :

ينبغي أن ندرك أن التطور الثقافي في العالم الإسلامي يمر بمرحلة خطيرة ، إذ تتلقى النهضة الإسلامية أفكارها واتجاهاتها الفنية عن الثقافة الغربية ، وخاصة من طريق مصر . هذه الأفكار الفنية لا تقتصر على أشياء الحياة الفكرية الجديدة التي يعودها الشباب المسلم شيئاً فشيئاً ، بل إنها تمس أيضاً وبطريقة غامضة ، ما يتصل بالفكرة وما يتصل بالنفس ؛ وفي كلمة واحدة : ما يتصل بالحياة الروحية .

وإنه لما يثير العجب أن نرى كثيراً من الشباب المسلم المثقف يتلقون اليوم عناصر ثقافة تتصل بعقاداتهم الدينية ، وأحياناً بدوافعهم الروحية نفسها ، من خلال كتابات المتخصصين الأوربيين .

إن الدراسات الإسلامية التي تظهر في أوروبا بأقلام كبار المستشرقين واقع لا جدال فيه ، ولكن هل نتصور المكانة التي يحتلها هذا الواقع في الحركة الفكرية الحديثة في البلاد الإسلامية ؟

إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين قد بلغت في الواقع درجة خطيرة من الإشعاع لا نكاد نتصورها ، وحسيناً دليلاً على ذلك أن يضم مجمع اللغة العربية في مصر بين أعضائه عالماً فرنسياً . وربما أمكننا أن ندرك ذلك إذا لاحظنا عدد رسالات الدكتوراه ، وطبيعة هذه الرسالات التي يقدمها الطلبة السوريون والمصريون كل عام إلى جامعة باريس وحدها ، وفي هذه الرسالات كلها يصررون - وهم أساتذة الثقافة العربية في الغد وباعثو نهضة الإسلام - يصررون كأوجبوا على أنفسهم ، على ترديد الأفكار التي زاكها أساتذتهم الغربيون .

وعن هذا الطريق أوغل الاستشراق في الحياة العقلية في البلاد الإسلامية ، محدداً بذلك اتجاهها التاريخي إلى درجة كبيرة .

تلكم هي الأزمة الخطيرة التي تمر بها ثقافتنا الآن ، مثيرة هنا وهناك صدى مناظرات مدوية ، كما حدث في مصر بين الدكتور زكي مبارك والدكتور طه حسين ، فقد عبرت مناظرتهما في أنشودة أدبية تهزها الحماسة عن المأساة الحديثة للفكر الإسلامي .

ولكن لهذه الأزمة العامة مظهراً يهم موضوع دراستنا هذه ، وأعني به تأثير دراسات المستشرقين على الفكر الديني لدى شبابنا الجامعي ، الشباب الذي يتوجه إلى المصادر الغربية ، حتى فيما يخص معارفه الإسلامية الشخصية ، سواء أكان هنا الاتجاه ناشئاً عن افتقار مكتباتنا أم مجرد التجانس والقرابة العقلية .

لقد نضبت فعلاً المصادر المحلية من كنوزها الثقافية ، مولية وجهها شطر المكتبات الأهلية في أوربا ، والحق أن مصر قد بذلك جهداً عظيماً كما تضع في متناول الفكر الإسلامي أدوات جديدة للعمل وذلك بما أتيح لها من مطابع حديثة ، وعمل جاد اضطلع به شبابها الفتى المتعلّم . ولكن هذا الجهد نفسه يعيش في كنف الدهاء الإداري الموروث من عهد الاستعمار .

وأياً ما كان الأمر ، فإن الشباب المسلم المثقف في بعض ديار الإسلام يرى نفسه مضطراً إلى أن يلجأ إلى مصادر المؤلفين الأجانب خصوصاً لمقتضيات عقلية جديدة ، ولعله يقدر إلى حد كبير منهاجها الوضعي الديكارتي ، حتى إننا نجد قضاء وشيوخاً معممين يتذوقون فيها رشاقتها الهندسية .

وهذا كله لا غبار عليه لواقتصر الاستشراق بمناهجه على الموضوع العلمي ، ولكن الموى السياسي الديني كشف عن نفسه أحياناً بكلأسف في تأليف هؤلاء المتخصصين الأوليين في الدراسات الإسلامية ، على الرغم من أنها تدعو إلى الإعجاب حقاً .

فلم يكن الأب (لامانس R, P, Lamance) المثل الفريد للمستشرق الطاعن على الإسلام ورجاله ، والحالة الوحيدة التي يمكن أن نلحظ فيها العمل الصامت لتفويض داعم الإسلام ، فقد كان لهذا الرجل (الشاطر) على الأقل ، فضل في الكشف عن بعضه الشديد للقرآن ، ولمحمد عليه السلام ؛ ولا شك أن العمل في ظل هذا التعصب الصاخب خير من تلك الميكافيلية الصامتة المستهجنة التي اتبعها مستشرقون آخرون ، متسترین بستار العلم .

ومن العجيب أن نذكر ما تتمتع به هذه الأفكار الحمقاء من مجاملة ، ولا سيما في مصر عندما تصدرها جامعات الغرب ، وأصدق مثال على ذلك بلا جدال ، الفرض الذي وضعه المستشرق الإنجليزي (مرجليوث) عن (الشعر الجاهلي) ، فقد نشر هذا الفرض في توز عام ١٩٢٥ م في إحدى المجالات الاستشرافية ؛ وفي خلال عام ١٩٢٦ م نشر (طه حسين) كتابه المشهور (في الشعر الجاهلي) ، فهذا التسلسل التاريخي معتبر تماماً عن تبعية أفكار بعض قادة الثقافة العربية الحديثة للأساتذة الغربيين ^(١) .

وربما لم يكن فرض (مرجليوث) ليحتوي على شيء خاص غير عادي لو أنه حين نشر لم يصادف ذلك الترحب بالحار من المجالات المستعربة ، ومن بعض الرسائلات التي تقدم بها دكتورة عرب محدثون ، حتى لقد كسب هذا الفرض قيمة (المقياس الثابت) في دراسة الدكتور (صباغ) عن (المجاز في القرآن) ، فقد رفض هذا الدكتور رفضاً مقصوداً مغرياً الاعتراف بالشعر الجاهلي بوصفه حقيقة موضوعية في تاريخ الأدب العربي .

(١) ذكرنا هنا فرض (مرجليوث) لكي نبرأ أمام القارئ المسلم ضرورة تطبيق منهج تحليلي جديد في تفسير القرآن ، ويستطيع القارئ أن يدرك قيمة هذا المنهج القائم على دراسة الظواهر (La Phénoménologie) وعلى طرق التحليل النفسي ، وسيدرك أيضاً أننا لاندرس آراء (مرجليوث) أو من تلمذ عليه مثل (طه حسين) . وإنما نريد به دراسة (الظاهرة القرآنية) .

فالمشكلة بوضعها الراهن إذن تتجاوز نطاق الأدب والتاريخ ، وتم مباشرة منهج التفسير القديم كله ، ذلك النهج القائم على الموازنة الأسلوبية معتمداً على الشعر الجاهلي بوصفه حقيقة لا تقبل الجدل .

وعلى أية حال ، فقد كان من الممكن أن تثور هذه المشكلة تبعاً للتطور الجديد في الفكر الإسلامي ، وإنما بصورة أقل ثورية لأن ضرورات التطور تقضي بتعديل منهج التفسير القديم تعديلاً ، يناسب في حكمة وروية مقتضيات الفكر الحديث . ولكن يخيل إلينا أن (مرجليوث) أراد بفرضه أن يفرض على المشكلة تطوراً ثورياً ، حين أدخل في الوقت المناسب ما يشبه (الديناميت) الذي قد ينسف كل مناهج التفسير القديم .

لقد قام إعجاز القرآن حتى الآن على البرهان الظاهر على سمو كلام الله فوق كلام البشر ، وكان لجوء التفسير إلى الدراسة الأسلوبية لكي يضع لإعجاز القرآن أساساً عقلياً ضرورياً : فلو أثنا طبقنا نتائج فرض (مرجليوث) كما فعل الدكتور (صباح) لانهار ذلك الأساس . ومن هنا توضع مشكلة التفسير في صورة خطيرة بالنسبة لعقيدة المسلم ، أعني بالنسبة إلى إعجاز القرآن في نظر هذا المسلم . وربما لم يكن التطور العقلي ليقصر عن دفع شبابنا الجامعي إلى ملاحظة تقادم المقياس القديم إن آجلاً أو عاجلاً ، ذلك المقياس الذي كان يقدم حتى ذلك الحين الدليل القاطع على المصدر الغيبي للقرآن . أما بالنسبة للعقل ذي الصبغة الديكارتية فأية قيمة تبقى لبرهان يبدو منتهى وقد فقد موضوعيته ، وأصبح ذاتياً محضاً . وهذا الموضوع لا يتصل ببيان القرآن الذي بقي على ما هو عليه حين نزوله ، ولكن بوضع المسلم نفسه .

والحق أنه لا يوجد مسلم وخاصة في البلاد غير العربية ، يمكنه أن يوازن موضوعياً بين آية قرآنية ، وفقرة موزونة أو مقفاة من أدب العصر الجاهلي ، فمنذ وقت طويل لم نعد نملك في أدواتنا عقريّة اللغة العربية ، ليكتننا أن نستنبط

من موازنة أديبة نتيجة عادلة حكمة ، ومنذ وقت طويل أيضاً تكتفي عقائدها في هذا الباب بالتقليد الذي لا يتفق وعقول المتعلقين بالموضوعية . فشكلة التفسير توضع إذن في ضوء جديد ، وربما نظر إليها المصريون المحدثون في هذا الضوء الجديد .

ولكن يبدو أن جهود هؤلاء العلماء على الرغم من أنها لا تغفل الجانب الاجتماعي في علم التفسير لم تحدد منهجها الكامل ، فالتفسير الكبير الذي ألفه الشيخ (طنطاوي جوهري) إنتاج علمي أشبه بدائرة معارف ، ولا ينطوي على أقل اهتمام بتحديد منهج ، أما تفسير الشيخ (رشيد رضا) الذي اتبع فيه إمامه الشيخ (محمد عبده) فلم يضع هو الآخر هذا المنهج ، فقد كان همه أن يخلع على المنهج القديم صبغة عقل جديد . ومع أنه لم يعدل طريقة التفسير القديم تعديلاً جوهرياً ، فإنه قد خلق في الصفة المسلمة التي تعشق التجديد الأدبي اهتماماً بالنقاش الديني . ومع ذلك فشكلة التفسير تظل خطيرة بالنسبة لاعتقاد الفرد الذي شكلته مدرسة ديكارت من جهة ، وبالنسبة لمجموع الأفكار الدارجة التي هي أساس الثقافة الشعبية من جهة أخرى .

ومن المعلوم أن كل مجتمع يحتوي مشكلة أفكار دارجة تحرك الجماهير ، كما يحتوي مشكلة أفكار علمية تخص المثقفين ، وكأن هذه تحدد لدى القادة والعلماء حلولاً نظرية لبعض المشكلات ، فإن تلك تحدد السلوك العملي للجماعات إزاء هذه المشاكل التي تصادفهم في الحياة ، ففي العالم الإسلامي توجد الآن طبقة مثقفة مقتنة بحركة الأرض ، ولكن هناك جمهوراً كبيراً من الدراويس ، وشعباً من الجهل من كل نوع يصر على اعتقاده « بأن الأرض ساكنة تحملها العناية على قرن ثور » . وهذه الفكرة الدارجة قد تؤثر في توجيهه التاريخ أكثر من الفكرة العلمية ، لأنها تستند إلى خرافية مفسر غير موفق يرى الأرض على قرن ثور . ولنأخذ على ذلك مثلاً : (البوصلة ومقاييس الزاوية) ، فعلى الرغم من أنها من

إنتاج أفكار المسلمين الفنية ، فإن العالم الإسلامي لم يستخدمها مثلاً في اكتشاف أمريكا ، لأنه كان مسلولاً آنذاك عن التقدم العقلي والاجتماعي بأفكار شعبية ميتة . أليست هذه هي المأساة التي أراد الغزالي أن يعبر عنها في بيته المشهور :

غزلتْ لهم غزلاً رقيقاً فلم أجد لغزلي نساجاً فكسرت مغزلي

إن مشكلة التفسير القرآني على أية حال هي مشكلة العقيدة الدينية لدى المتعلّم ، كا أنها مشكلة الأفكار الدارجة لدى رجل الشارع . ومن هاتين الوجهتين ينبغي أن يعدل منهج التفسير في ضوء التجربة التاريخية التي مر بها العالم الإسلامي . وبالتالي فإذا كانت هذه الأسباب التي قدمناها تدل على ضرورة هذا التعديل فهناك أسباب أخرى تدل على محتواه ، أعني على صورة المنهج الذي يجب أن نسلكه في مشكلة الإعجاز .

ثانياً : الأسباب العائدة إلى المنهج :

ذكرنا فيها تقدم من هذا المدخل الأسباب التي دعت إلى هذه الدراسة ، نظراً لما حدث في العالم الإسلامي من تطورات اجتماعية وثقافية ، تؤثر في موقف المسلم المثقف إزاء الإسلام بصورة عامة . وينبغي الآن أن نذكر الأسباب التي حددت المنهج المتبّع في هذه الدراسة ، نظراً إلى إدراك هذا المسلم للقرآن بوصفه كتاباً متزاً على وجه الخصوص ، وأنه لا يمكن فصل هذه الأسباب عن تاريخ الأديان السماوية بصورة عامة . إننا نجد هذه الصورة في الحديث الذي أورده أخي الأستاذ شاكر في مقدمته حيث يقول الرسول ﷺ : « ما من نبي إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيًّا أو حيٌّ إلى فانا أرجو أن أكون أكثراً تابعاً يوم القيمة » ، يجب إذن أن نحدد الإعجاز في القرآن بالنظر إلى مفهوم الإعجاز في الأديان عامة .

وإذن لابد من تحديد هذه الكلمة لغة واصطلاحاً وفي حدود التاريخ ، لأن

عنصر الزمن ذو دخل في هذه القضية إذا ما اعتبرناها من دين إلى آخر ، أعني في اتجاه تطورها .

أهل اللغة يرون أن الإعجاز هو الإيقاع في العجز . وأهل الاصطلاح يرون أن الإعجاز هو الحجة التي يقدمها القرآن إلى خصومه من المشركين ليعجزهم بها .

فأما حين نريد تحديد هذا المصطلح في حدود التاريخ أي في تطور إدراك البشر لـ (حجة) الدين ، وإدراك المسلمين لـ (حجة) الإسلام خاصة ، فلا بد من مراجعة القضية في ضوء تاريخ الأديان .

وهذا هو الإعجاز من نواحيه الثلاث .

أما الآيات التي تدل عليه في القرآن ، بل تلفت النظر إليه متعمدة ، فهي كثيرة مثل قوله عز وجل : ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسَانُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِهِنْ لَا يَأْتُونَ بِهِنْ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَعْضُ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء ١٧ / ٨٨] .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ؟ قُلْ فَأُتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلَهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِلِمِ اللَّهِ ، وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهُلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [هود ١١ / ١٢ و ١٤] .

وقوله جل شأنه : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رِبِّ مَا نَزَّلْنَا عَلَى عِبْدِنَا فَأُتُوا بِسُورَةِ مِنْ مِثْلِهِ ، وَأَدْعُوا شَهِداءَ كُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقَوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتُ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة ٢ / ٢٢ و ٢٤] .

ويجب أن نلاحظ أن هذه الآيات الثلاث لم يسقها القرآن لتنشئ الحجة ، وإنما جاءت إعلاناً هنا ، وإشهاراً لوجودها في سائر القرآن . كيما تؤتي تأثيرها في العقول المتربيصة ، وتنتج أثراها في القلوب التي لا زالت في أكتنها .

فإلى أي مدى بلغ هذا التأثير في الوسط الجاهلي ؟

إن لكل شعب هواية يصرف إليها موهابه الخلاقة ، طبقاً لعقربيته ومزاجه . فالفراعنة مثلاً كان لهم اهتمام بفنون العمارة والرياضيات ، يدلنا عليه ما بقي بين أيدينا من آثارهم العظيمة : تلك الآثار التي أثارت اهتمام رجال العلم ، مثل الأب (مورو) الذي خصص أحد كتبه لدراسة تصميم المهرم الأكبر ، وما يتضمن من نظريات هندسية غريبة ، وخصائص رياضية ومتيكانيكية عجيبة .

كما كان اليونان مغربين بصور الجمال ، على ما أبدعه فن (فيدياس) ، وبآيات النطق والحكمة على ما جادت به عبقرية (سقراط) .

أما العرب في الجاهلية ، فقد كانت هواياتهم في لغتهم ، فلم يقتصروا على استخدامها في ضرورات الحياة اليومية ، شأن الشعوب الأخرى ، وإنما كان العربي يفتقر في استخدام لغته ، فينحت منها صوراً بيانية لا تقل جمالاً مما كان ينحته (فيدياس) في المرمر ، وما كانت ترسمه ريشة (ليونار دوفانسي) في لوحاته المعلقة في متاحف العالم الكبرى .

فالشعر العربي كما قال أخي الأستاذ محمود شاكر في مقدمة هذا الكتاب : « كان حين أنزل الله القرآن على نبيه عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نوراً يضي ظلمات الجاهلية ، ويعكس أهله على بيانه عكوف الوثني للصنم ، ويسجدون لآياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها لأوثانهم قط ، فقد كانوا عبدة البيان ، قبل أن يكونوا عبدة الأوثان ، وقد سمعنا من استخف منهم بأوثانهم ، ولم نسمع قط منهم من استخف ببيانهم ». .

هذه صورة الظروف النفسية التي نزل فيها القرآن ، فكان لإعجازه أن ينفذ إلى الأرواح - بصفة عامة في زمن النزول - على هذا السبيل ، أي بما ركب في الفطرة العربية من ذوق يباني .

ثم تغيرت هذه الظروف مع تطورات التاريخ الإسلامي ، وفاض طوفان العلوم في أواخر عهد بنى أمية والعهد العباسي . فصار إدراك جانب الإعجاز في

القرآن بالمعنى الذي حددها - لغة واصطلاحاً - من طريق التذوق العلمي ، أكثر من أن يكون من طريق الذوق الفطري .

وهذا يعني أن الإعجاز كأدراكته العرب وقت النزول ، أصبح من اختصاص طائفة قليلة من المسلمين ، بيدها وسائل التذوق العلمي .

ومن الممكن أن نتتبع هذا التطور في مراحلته في مراجع التاريخ الإسلامي :

١ - فمن ذلك أن السيرة تروي لنا بعض المواقف التاريخية ، التي يظهر فيها أثر الإعجاز على الذوق الفطري عند العرب في الجاهلية ، ويظهر ذلك في صورتين :

أولاًها : إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما تأثر بآيات سمعها من أخته ، أو قرأها في صحفتها .

وثانيتها : حكم الوليد بن المغيرة حين يقول في القرآن « والله لقد سمعت كلاماً ما هو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، وإن له حلاوة ، وإن عليه طلاوة » . وهنا نرى الوليد يقف على قيد شبر من الإيمان ، وقد هزه بيان القرآن ، ولكن ما كان للحجفة أن تغير أمراً أراده الله ، فترى الوليد ينتكس ، ويختم كلامه منكراً صدق الرسالة بقوله : « وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر جاء يفرق بين المرء وأبيه .. الخ .. » .

وهذا هو صدى الإعجاز في فطرة العرب في صورتين مختلفتين . حتى إذا تقدم الزمن وتغيرت الظروف الاجتماعية ، وتقدمت العلوم ، صار الإعجاز موضوع دراسة قائم بذاته ، فكتب فيه أمة البيان ، من أمثال الماحظ في كتابه (نظم القرآن) (عبد القاهر) صاحب (دلائل الإعجاز) .

ومن هذا الأخير نستعير نبذة لتوضيح المقام والمقال ؛ نستعيرها على سبيل

المثال ، من تعليق له على قوله تعالى : ﴿ قَالَ : رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظَمُ مِنِي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ... ﴾ [مریم ١٩ / ٥] . يقول معلقاً : « إن في الاستعارة مالا يمكن بيانه إلا من طريق العلم بالنظم ، والوقوف على حقيقته ، ومن دقيق ذلك وخفيه أنك ترى الناس إذا ذكرروا قوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها ، ولم يروا للمزية موجباً سواها . هكذا ترى الأمر في كلامهم ، وليس الأمر على ذلك ... » .

ولا لزوم لذكر النص بأكمله ، وإنما أوردته فقط لأبين مباشرة عجزي عن إدراك (الإعجاز) من هذا الوجه ، أي بوسائل التذوق العلمي ، بعد أن اعترفت بعجزي عن إدراكه من طريق الذوق الفطري . وهكذا أراني حيران ، فاقد الحيلة والوسيلة في قضية هي أمس القضايا بالنسبة لي بصفتي مسلماً . وهنا تواجهنا مشكلة (الإعجاز) في صورتها الجديدة بالنسبة لهذا المسلم ، أعني بالنسبة لأغلبية المسلمين الثقفيين ثقافة أجنبية ، بل ربما بالنسبة لذوي الثقافة التقليدية ، في ظروفهم الثقافية والنفسية الخاصة ، فلابد إذن من إعادة النظر في القضية في نطاق الظروف الجديدة التي يمر بها المسلم اليوم ، مع الضرورات التي يواجهها في مجال العقيدة والروح .

وعلى الرغم مما يبدو في القضية من تعقد ، بسبب موقفنا التقليدي إزاءها ، فإني أعتقد أن مفتاحها موجود في قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدُعَائِنِ الرَّسُّلِ ، وَمَا أَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ، إِنَّ أَتَبْعَ إِلَّا مَا يَوْحِي إِلَيَّ ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٩] . فإذا اعتبرنا هذه الآية على أنها حجة يقدمها القرآن للنبي كي يستخدمها في جداله مع المشركين ، فلا بد أن نتأمل محتواها المنطقي من ناحيتين :

فهي تحمل ، أولاً ، إشارة خفية إلى أن تكرار الشيء في ظروف معينة يدل على صحته ، أي أن سوابقه في سلسلة معينة تدعم حقيقته بوصفه (ظاهرة

بالمعنى الذي يسبغه التحديد العلمي على هذه الكلمة : فالظاهرة هي : « الحدث الذي يتكرر في الظروف نفسها ، مع النتائج نفسها » .

وهي تحمل في مدلولها ، ثانياً ، ربطاً واضحاً بين الرسل والرسالات خلال العصور ، وأن الدعوة الحمديّة يجري عليها أمام العقل ما يجري على هذه الرسالات . ومن هذا نستخلص أمرين :

- ١ - أنه يصح أن ندرس الرسالة الحمديّة في ضوء ما سبقها من الرسالات .
- ٢ - كما يصح أن ندرس هذه الرسالات في ضوء رسالة محمد ﷺ ، على قاعدة أن « حكم العام ينطبق على الخاص قياساً ، وحكم الخاص ينطبق على العام استنبطاً » .

ولا مانع إذن من أن نعيّد النظر في معنى (الإعجاز) في ضوء منطق الآية الكريمة .

وحاصل هذا أننا إذا عدنا الأشياء في حدود الحدث المتكرر ، أي في حدود الظاهرة ، فالإعجاز هو :

- ١ - بالنسبة إلى شخص الرسول : الحجة التي يقدمها لخصومه ليعجزهم بها .
- ٢ - وهو بالنسبة إلى الدين : وسيلة من وسائل تبليغه .

وهذا المعنى للإعجاز يضفيان على مفهومه صفات معينة :

أولاً : أن الإعجاز - بوصفه (حجة) لابد أن يكون في مستوى إدراك الجميع ، وإلا فاتت فائدته ، إذ لا قيمة منطقية لحجة تكون فوق إدراك الخصم ، فهو ينكرها عن حسن نية أحياناً .

ثانياً : ومن حيث كونه وسيلة لتبليغ دين : أن يكون فوق طاقة الجميع .

ثالثاً : ومن حيث الزمن : أن يكون تأثيره بقدر ما في تبليغ الدين من حاجة إليه .

وهذه الصفة الثالثة تحدد نوع صلته بالدين ، الصلة التي تختلف من دين إلى آخر ، باختلاف ضرورات التبليغ كاسندين ذلك .

فهذا هو المقياس العام الذي نراه ينطبق على معنى الإعجاز ، في كل الظروف المماثلة بالنسبة إلى الأديان المنزلة .

فإذا قسنا به في نطاق رسالة موسى عليه السلام ، مثلاً ، نرى أن الله اختار لهذا الرسول معجزتي اليد والعصا ، وإذا تأملناهما وجدناهما « بوصفها حجة » يدعم الله بها نبيه - تتصفان بأنهما :

١ - ليستا من مستوى العلم الفرعوني الذي كان من اختصاص أشخاص معدودين ، يكونون هيئة الكهنوت ، بل كانت المعجزة في صورتيهما كليهما ، من مستوى السحر الذي يقع أثره في إدراك الجميع عن طريق المعاينة الحسية ، دون إجهاد فكر .

٢ - هاتان المعجزتان تتصلان بتاريخ الدين المosoي لا بجواهره ، إذ ليس لليد أو العصا صلة بمعاني هذا الدين ولا بتشريعه ، فهما على هذا مجرد توابع للدين ، لا من صفاته الملزمة له .

٣ - ودلالة هاتين المعجزتين على صحة الدين محدودة بزمن معين ، إذ لا نتصور مفعول اليد والعصا (حجة) إلا في الجيل الذي شاهدتها ، أو الجيل الذي بلغته تلك الشهادة بالتواتر من التابعين وتابع التابعين ، أي أن مفعوله لا يكون إلا في زمن محدد ، لحكمة أرادها الله . ولو فكرنا في هذه الحكمة لوجدنا أنها تتفق مع حقائق نفسية ، وحقائق تاريخية سجلها الواقع فعلاً ، هي :

أولاً : أن القوم الذين يدينون اليوم بدين موسى - أي اليهود - يفقدون ، لأسباب نفسية لا سبيل لشرحها هنا ، نزعة التبليغ ، فلا يشعرون بضرورة تبليغ دينهم إلى غيرهم من الأمم ، أي : الأميين - كما يقولون - حتى إننا إذا استخدمنا لغة الاجتماع قلنا : إن (الإعجاز) قد ألغاه في هذا الدين عدم الحاجة إليه .

ثانياً : إن مشيئة الله قد قدرت أن يأتي عيسى رسولاً من بعد موسى ، وأنى الدين الجديد لينسخ الدين السابق ، فينسخ طبعاً جانب الإعجاز فيه ، وتزول الحجة بزوال ضرورتها التاريخية .

ثمأتي عيسى بالدين الجديد ، وبما يتطلب هذا الدين من وسائل لتبليغه ، أي بما يتطلب من حجة ، فأتي بإعجازه الخاص ، بالمعنى المحدد لغة واصطلاحاً كاسبق ، فكان لعيسى إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله . ولسنا بحاجة أن نكرر بالنسبة إلى الدين الجديد ما قدمنا من اعتبارات عامة بالنسبة إلى خصائص (الإعجاز) في الدين السابق ، لأن القضية تتعلق هنا وهناك بالتركيب النفسي الذي عليه الإنسان ، من جهة أنه إنسان يدرك الأشياء بعقله ، مع ما في عقله من عجز عن إدراك حقيقة الدين مباشرة إن لم يكن هنا حجة خاصة ، تسند تلك الحقيقة لدى عقله في صورة (إعجاز) .

فالأسباب تتكرر ، وإنما يتغير شكلها نظراً لما حصل من تطور في الظروف النفسية والاجتماعية حول الدين الجديد في البيئة التي ينشر فيها عيسى دعوته ، تلك البيئة التي تشع عليها الثقافة اليونانية والرومانية .

ولكن دلالة ما أتي عيسى من إعجاز ستزول أيضاً مع زوال موضوعها ، للأسباب نفسها التي ألغت جانب الإعجاز في دين موسى ، لأنه يأتي بعد عيسى رسول جديد ودين جديد يلغيان الدين السابق ، دين عيسى عليه السلام ، فيلغى ضرورة التدليل على صحة الإنجيل .

وهكذا تأتي رسالة الرسول الأمين ، ولكنها تتسم بصفة خاصة تميزها عما سبقها من الرسالات ، إذ أنها الحلقـة الأخيرة في سلسلة البعث . ويأتي محمد (خاتم الأنبياء) كـا يـنوه بذلك القرآن ، ويـشهد به مرور الزـمن منـذ أربـعة عشر قـرناً .

ومـا كانت هذه المـيزة التـاريخـية في الدين الجـديـد ، دون أن يكون أثـرـها في كل خـصـائـصـه ، وفي نوع إعـجازـه عـلـى وجـهـ الخـصـوصـ ، فإنـ حاجـةـ التـبـلـيـغـ سـتـبـقـيـ مـسـتـقـرـةـ فـيـهـ ، سـوـاءـ مـنـ النـاحـيـةـ النـفـسـيـةـ ، لأنـ كـلـ مـسـلـمـ بـعـكـسـ الـيهـوـدـيـ - يـحـمـلـ فـيـ نـفـسـهـ (مـرـكـبـ التـبـلـيـغـ) ، أـمـ مـنـ النـاحـيـةـ التـارـيـخـيـةـ لأنـ الدينـ الجـديـدـ - الإـسـلـامـ - سـيـكـونـ دـيـنـ آـخـرـ الزـمـنـ ، أـيـ الـدـيـنـ الـذـيـ لـاـ يـعـقـبـهـ دـيـنـ سـاـوـيـ آـخـرـ ، بلـ لـاـ يـأـتـيـ دـيـنـ بـعـدـهـ بـصـورـةـ مـطـلـقـةـ كـاـ تـشـهـدـ بـذـلـكـ الـقـرـونـ ، حتـىـ إـنـ حاجـةـ الإـسـلـامـ إـلـىـ وـسـائـلـ تـبـلـيـغـهـ سـتـبـقـيـ مـلـازـمـةـ لـهـ ، منـ جـيلـ إـلـىـ جـيلـ ، وـمـنـ جـنـسـ إـلـىـ جـنـسـ ، لـاـ يـلـغـيـهـ شـيـءـ فـيـ التـارـيـخـ ، وـهـذـاـ يـعـنـيـ أـنـ هـذـهـ الـوـسـائـلـ يـحـبـ أـلـاـ تـكـوـنـ - مـثـلـ الـأـدـيـانـ الـأـخـرـيـ - مـجـرـدـ تـوـابـعـ يـتـرـكـهاـ الـدـيـنـ فـيـ الـطـرـيـقـ عـبـرـ التـارـيـخـ بـعـدـ مـرـحـلـةـ التـبـلـيـغـ ، مـثـلـ الـيـدـ عـنـدـ مـوـسـيـ أـوـ عـصـاـهـ الـتـيـ لـمـ يـبـقـ لـهـ أـثـرـ حتـىـ فـيـ مـتـاحـفـ الـعـالـمـ ، كـاـ بـقـيـتـ عـصـاـ (تـوتـ عـنـخـ آـمـونـ) الـذـهـبـيـةـ .

وعـلـيـهـ يـحـبـ أـنـ يـكـوـنـ (إـعـجازـ) الـقـرـآنـ صـفـةـ مـلـازـمـةـ لـهـ عـبـرـ الـعـصـورـ وـالـأـجـيـالـ ، وـهـيـ صـفـةـ يـدـرـكـهاـ الـعـرـبـيـ فـيـ الـجـاهـلـيـةـ بـذـوقـهـ الـفـطـرـيـ كـعـمـرـ رـضـيـ اللـهـ تـعـالـىـ عـنـهـ أـوـ الـوـلـيدـ ، أـوـ يـدـرـكـهاـ بـالـتـذـوقـ الـعـلـمـيـ كـاـ فـعـلـ الـحـاـظـظـ فـيـ مـنـهـجـهـ الـذـيـ رـسـمـهـ لـنـ جـاءـ بـعـدـهـ . وـلـكـنـ الـمـسـلـمـ الـيـوـمـ قـدـ فـقـدـ فـطـرـةـ الـعـرـبـيـ الـجـاهـلـيـ وـإـمـكـانـيـاتـ عـالـمـ الـلـغـةـ فـيـ الـعـصـرـ الـعـبـاسـيـ ، وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ هـذـاـ إـنـ الـقـرـآنـ لـمـ يـفـقـدـ بـذـلـكـ جـانـبـ (إـعـجازـ) لـأـنـهـ لـيـسـ مـنـ تـوـابـعـهـ بـلـ مـنـ جـوـهـرـهـ ؛ وـإـنـاـ أـصـبـحـ الـمـسـلـمـ مـضـطـرـاـ إـلـىـ أـنـ يـتـنـاـوـلـهـ فـيـ صـورـةـ أـخـرـيـ وـبـوـسـائـلـ أـخـرـيـ ، فـهـوـ يـتـنـاـوـلـ الـآـيـةـ مـنـ جـهـةـ تـرـكـيـبـهـ الـنـفـسـيـ الـمـوـضـوعـيـ ، أـكـثـرـ مـاـ يـتـنـاـوـلـهـاـ مـنـ نـاحـيـةـ الـعـبـارـةـ ، فـيـطـبـقـ فـيـ درـاسـةـ مـضـمـونـهـ طـرـقـاـ لـلـتـحـلـيلـ الـبـاطـنـ ، كـاـ حـاـوـلـنـاـ أـنـ نـطـبـقـهـ فـيـ هـذـاـ الـكـتـابـ .

وإذا كانت هذه الضرورة ملحة بالنسبة للمسلم ، الذي حاول تعقيد عقيدته على أساس إدراك شخصي لقيمة القرآن بوصفه كتاباً منزلأً ، فإنها أكثر إلحاحاً بالنسبة لغير المسلم الذي يتناول القرآن بوصفه موضوع دراسة أو مطالعة .

فهذه في مجلها الأسباب التي دعتنا إلى تطبيق التحليل النفسي خاصة لدراسة القرآن بوصفه ظاهرة .

ييد أن تنفيذ هذه المهمة قد أظهر نقصاً جهازنا الفني دون تواضع ، بل عن معرفة تامة بالقضية التي نعدّ تنفيذها مجرد إرشاد لما سيتلوها من دراسات ، نحتاج للقيام بها أن نخشد وسائلنا الفنية ووثائقنا التي لم نستطع بكل أسف أن نجمعها للقيام بهذه الدراسة .

ومن المفيد هنا أن نذكركم سيكون مفسر الغد بحاجة إلى معرفة لغوية وأثرية واسعة ، فإن عليه أن يتبع الترجمة اليونانية السبعينية للكتاب المقدس ، والترجمة اللاتينية الأولى من خلال الوثائق العبرية ، وبصورة أعم عليه أن يتبع جميع الوثائق السريانية والأرامية ليدرس مشكلة الكتب المقدسة .

هذه مهمة جليلة لا يمكننا الشروع فيها ، على الرغم من رغبتنا الحارة في تحقيق هذا الأمل والله يوفقنا .

مصر الجديدة ١ / ١٩٦١

مالك بن نبي

☆ ☆ ☆

الظاهرة الدينية

كما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان ، في الأحقاب الظاهرة لحضارته ، أو في المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي ، وجد سطوراً من الفكرة الدينية .

ولقد أظهر علم الآثار دائماً - من بين الأطلال التي كشف عنها - بقايا آثار خصصها الإنسان القديم لشعائره الدينية ، أيًّا كانت تلك الشعائر ؛ ولقد سارت هندسة البناء من كهوف العبادة في العصر الحجري ، إلى عهد المعابد الفخمة ، جنباً إلى جنب مع الفكرة الدينية التي طبعت قوانين الإنسان بل علومه ، فولدت الحضارات في ظل المعابد كمعبد سليمان أو الكعبة . من هنالك كانت تشرق هذه الحضارات لكي تنير العالم ، وتزدهر في جامعاته ومعامله ، بل لكي تجلي المناقشات السياسية في برلماناته . فقوانين الأمم الحديثة لاهوتية في أساسها ، أما ما يطلقون عليه قانونهم المدني فإنه ديني في جوهره ، ولا سيما في فرنسا فقد اشتق من الشريعة الإسلامية^(١) .

وعوائد الشعوب وتقاليدها تتشكل بصورة يليها اهتمام ميتافيزيقي يدفع

(١) في أثناء حملة نابليون على مصر تعرف على الشريعة الإسلامية ، وهذا القول لا يحتاج إلى دليل ، وهو ليس سوى تفصيل على هامش الفكرة التي تتفق فيها بصفة عامة مع علماء الاجتماع ، ومع مؤرخي القانون . والقانون الروماني نفسه لا يشذ عن هذه القاعدة كما يبينه الدكتور صوفي أبو طالب في كتابه (النظم الاجتماعية والقانونية ص ١٢٨ وما بعدها) أما فيما يخص ملاحظتنا على قانون نابليون فإننا نحيل القارئ على كتاب (كريستيان شرفيس Christian Cherfils) الذي كتبه بعنوان (نابليون والإسلام) .

أقل القرى المموجية ، التي تشييد كونخاً بسيطاً في مركبها ، تتجه نحوه الحياة الروحية القبلية ، وهي حياة تتفاوت في بدايتها إلى حد كبير . وما التوقية والأساطير واللاهوت إلا حلول مقترحة للمشكلة نفسها التي تساور الضمير الإنساني كلما وجد نفسه مأخوذاً بلغز الأشياء وغایاتها النهائية .

ومن جميع الضمائر ينطلق السؤال نفسه الذي يصوره في خشوع هذا المقطع من أغنية (الفيدا) الهندوسية :

« من يعرف هذه الأشياء ؟ ومن يستطيع الحديث عنها ؟
« من أين تأتي هذه الكائنات ؟ وما حقيقة هذا الإبداع ؟
« هل (هو) قد خلق الآلهة ولكن من يعرف كيف وجد الخالق ^(١) ؟ »

هل الذي يفصح عن نفسه هكذا ضمير يؤمن بتعدد الآلهة ؟

ولماذا يلمح الضمير فيما وراء هيكل آلهته وجود من خلقها ؟

وتردد المشكلة الغيبية - هكذا بانتظام - على الضمير الإنساني في جميع مراحل تطوره ، هو في حد ذاته مشكلة أراد علم الاجتماع حلها حين وصف الإنسان بأنه في أصله (حيوان ديني) .

ومن هذا التعريف الموضوعي تُنبع نتيجتان نظريتان مختلفتان :

١ - هل الإنسان (حيوان ديني) بشكل فطري غريزي ، وبسبب استعداد أصيل في طبيعته ؟

٢ - أو أنه اكتسب هذه الصفة إثر عارض ثقافي مفاجئ لدى مجموعة بشرية معينة ، شمل مفعوله الإنسانية كلها ، بنوع من الامتصاص النفسي ؟

(١) من تقديم شعرى للشاعر طاغور .

فهناك إذن نظريتان رئيسيتان متضادتان بصدق المشكلة التي تعرضها علينا الظاهرة الدينية .

وسيكون من السذاجة طبعاً أن نزيل هذا التعارض الفلسفى بحل رياضي ، كما أراد ذلك بعض مفكرينا المغermen بالطريقة العلمية . ربما لأنهم تناسوا المبادئ الأولية للعلم الوضعي نفسه . ومع ذلك يجب ألا ننسى أن هندسة إقليدس ذاتها الموجلة في الدقة العلمية لا تعتقد إلا على فرض ، لا على برهان رياضي . وإن الأمر ل كذلك بالنسبة إلى جميع النظريات الهندسية التي نشأت بعد إقليدس .

وأياً ما كان الأمر ، فإن ما يطلب من أي مذهب - حين يضع مبدأه الأساسي - أن يكون دقيقاً متوافقاً مع نفسه ، متوافقاً في جميع نتائجه .

وهذه هي الطريقة العلمية الوحيدة للحكم على القيمة العقلية لأى مذهب في ذاته ، وعلى قيمته بالنسبة لأى مذهب آخر .

وليس التناقض في المسألتين اللتين قررناهما بوصفهما نتيجتين للظواهر الدينية ، قائماً بين الدين والعلم على غرار ما يوحى به بعضهم ، إذ أن العلم لم يبرهن على عدم وجود الله أو وجوده - كما نسلم بذلك مبدئياً - بل النزاع هنا بين دينين ، بين الألوهية والمادية ، بين الدين الذي يسلم بوجود الله ! وذلك الذي (افترض) المادة !!

والمدف من هذا الفصل هو الموازنـة بين هذين المذهبـين الفلسفـيين : ذلك الذي يـعد الضمير الدينـي للإنسـان ظـاهـرة أـصـلـية في طـبـيـعـتـه ، ظـاهـرة مـعـرـفـاـ بـهـا بـوـصـفـها عـامـلاـ أـسـاسـياـ في كل حـضـارـة ؛ وـالـآـخـرـ الذي يـعد الدين مجرد عـارـضـ تـارـيـخـي للـثـقـافـةـ الإـنـسـانـيةـ ، وـمـعـ ذلكـ فإنـ نـتـائـجـ هـذـاـ الفـصـلـ سـتـعـتـمـدـ عـلـىـ نـتـائـجـ الفـصـولـ التـالـيـةـ ،ـ الـتـيـ سـتـقـدـمـ نـوـعـاـ مـنـ الـبرـهـانـ الـلـاحـقـ المـدـعـ بـهـاـ يـسـمـىـ (ـ الـظـاهـرـةـ

النبوية) و (الظاهرة القرآنية) التي تضع الدين في سجل الأحداث الكونية
بجانب القوانين الطبيعية .

وعلى ذلك فإن موازنة مذهبين ، أحدهما مادي في جوهره ، يرى أن كل
شيء متوقف على المادة ، والثاني غيبي (ميتافيزيقي) يعد المادة في ذاتها محددة
محكومة ، هذه الموازنة لا تكون قاطعة مقنعة إلا إذا اعتربنا عناصرها المتجانسة
المقابلة التي تكمن في فكرتها عن الكون ، والتكونين .

وبناء على هذه النظرة يجب أن نبدأ في دراسة موازنة للمذهبين المذكورين .



المذهب المادي

من حيث المبدأ : المادة هي العلة الأولى لذاتها ، وهي أيضاً نقطة البدء في ظواهر الطبيعة ؛ وبديهي أنه لا يتحقق لنا أن نعد المادة شيئاً عرضياً (حادثاً) ، إذ أنها حينئذ ستكون منبثقه عن بعض الأشياء ، أي عن سبب خالق مستقل ، وهذا يتنافى مع الفرض . وإن بكل بساطة : هي موجودة ، وهي أيضاً غير مخلوقة . وهكذا تتفق على أصل المادة مبدئياً ، ونهم فقط بتطورها^(١) في حالاتها المعاقة بادئين من نقطة التسليم هذه . في يكن القول : إن الخاصة الوحيدة للمادة في مبدأ الأمر هي أنها كانت (كاً) معيناً أو كتلة .

وبناء عليه يجب أن نعد جميع الخواص الأخرى نتائج لهذه (الخاصة الوحيدة) ، ولهما وحدتها .

ويجب على الأخص أن نعد هذه المادة من حيث الأصل في حالة بساطة وتجانس تام ، لأن كل تنوع في ذاتها يستتبع تدخل عوامل متنوعة بالضرورة ، مما يتنافى مع المؤثر الوحيد ، وهو خاصة (الـكم) . هذا الشرط يستتبع حالة مبدئية

(١) على الرغم من أن ملاحظاتنا عن تطور المادة المحتل مفيدة من الناحية النهجية ، في عرض يتصل بالموازنة بين مذهبين متعارضين ، يقوم كلامها على أساس مناف للآخر : (الله أو المادة) ، فهي ليست ملزمة لاستخلاص الفكر الموجهي في هذا الفصل . ويكتفي القارئ الذي لم يتعرس بسائل العلوم ، أن يتبع العرض ابتداء من العهد الحيوي (البيولوجي) في تطور المادة . أي من التطور الذي صورناه في حدود المعادة :

مؤثرات حرارية ديناميكية + عوامل كيميائية = مادة حية

لا يمكننا فيها أن نتصور المادة منظمة بأية طريقة ، وإلا فإن التركيب الذري - الذياكتشف العلم تنظيمه وتركيبه - يوحي بتدخل جزيئات نووية متنوعة منذ البدء ، مما يتنافى أيضاً مع شرط البساطة والتجانس الشام . وبالتالي فإن المادة بالضرورة من حيث أصلها في حالة تحلل كلي وهي - كهربياً - متعادلة ، أي لا توصف بأنها سالبة أو موجبة . فهي - مثلاً - (كية) من (النترونات) لا توجد بينها في ذاتها سوى علاقة تجاذب ، فتنظيمها الذري في المستقبل سيكون مرحلة لتطورها ، وتطورها هو الذي يؤدي إلى إظهار الجزيئات النووية : (البوزيترون Positrons) ، و (الميزوترون Mesotrons) ، و (الألكترون Electrons) .. الخ .. والقوى الكهربية الاستاتيكية المقابلة .

ومن غير أن نتسرع في الحكم على هذا التنوع الجزيئي ، فإن هناك سؤالاً يفرض نفسه عن إمكان تكوين الذرة الأولى ، وهو تكوين يمكن إدراكه بصعوبة ، وهو أيضاً غريب في نظر قانون (كولب Coulomb) الذي يحكم الظاهرة ضرورة .

وفي الحق إنه لم الصعب أن نتصور كيف تكونت النواة الأولى من أجزاء من النوع نفسه ، وتسمى بالاسم نفسه ، وتتنافر بفعل قانون الكهرباء الاستاتيكية الأساسية .

ومع ذلك فإننا سنسلم بإمكان ذلك ، ولكن هل تبدأ دورة الاندماج بين الجزيئات بالنسبة للنواة الأولى في وقت واحد للعناصر الاثنين والتسعين^(١) التي رتبها (ماندليف) ؟ أم أن ذلك يحدث بالتتابع من عنصر لآخر ؟ فإن كان هناك ما يسمى (بالاقتران الزمني) فإن عنصراً واحداً فقط يمكن أن يوجد

(١) بلغ عدد العناصر المكتشفة عنصرين ومائة عنصر (١٠٢) ، وقد اشتراك في اكتشاف العنصر الأخير العالم البريطاني الدكتور (ميلستيد) . (المترجم)

طبيعياً بواسطة تدخل مؤثر واحد ، أي حالة المادة في بساطتها وخلوها من التكثرب . ولكن ستبقى إحدى وتسعون حالة شاذة عن القاعدة ، لا يمكن أن يوجد لها المؤثر نفسه في الوقت نفسه .

وعلى العكس من ذلك إذا كان هناك تتابع في خلق المادة لعناصر الطبيعة ، فن الواجب تفسير تكون هذه العناصر على أنه مجموعة من واحد وتسعين تحولاً عنصرياً ، ابتداء من عنصر واحد أولي ، ول يكن (الإيدروجين) .

وهنا يمكن أن تختل الظاهرة مكانها سواء أكان ذلك بواسطة سلسلة وحيدة : تخلق المادة الأولى العنصر الأول ، ثم تتوالد العناصر الباقيه منه في سلسلة واحدة ، أم كان بسلسل متعددة : تخلق المادة الأولى العنصر الأول (الإيدروجين) ، ومن هذا العنصر الأول تتولد عائلة من الأجسام البسيطة ولتكن أربعة مثلاً ، يتسلسل من كل منها مجموعة من العناصر الباقيه والكل ناتج ، عن عنصر أولي .

ففي الحالة الأولى : تتطلب السلسلة الوحيدة واحداً وتسعين تحولاً عنصرياً محدداً : إن كل عنصر يتشكل في الوقت الذي تبقى فيه العناصر التي سبقته ، وهي على ذلك تتعرض لإحدى وتسعين حالة من التعادل الطبيعي الكيماوي المختلف ، الذي يتضمن تدخل عامل مختلف أيضاً عن قانون الاندماج الأولي . ولكننا افترضنا أصلاً أن هذا القانون وحيد ، وأنه مستقل عن الزمان وعن سائر العوامل الحرارية الديناميكية . فلدينا إذن سلسلة مكونة من واحد وتسعين تحولاً عنصرياً تتولد من العنصر الأول ، وهذه السلسلة لم تحظ بتفسير طبقاً لقانون واحد ..

وعلى هذا ففي كلتا الحالتين لا يجد جدول (ماندليف) تفسيراً كافياً في نظر المبدأ الذي نسلم به ، وهذا يثبت ضعف المذهب المادي .

ثم يزيد هذا الضعف وضوحاً - في نظرنا - إذا نحن تتبعنا تطور المادة في

الحالة الثانية ، فهي بعد أن أصبحت في حالة منظمة غير عضوية ، تتصل إلى تحول عنصري حيوي ، وتصبح كيّة منها مادة عضوية حية هي (البروتوبلازم) .

وعندما تتطور هذه المادة بدورها خلال سلسلة حيوانية معينة تصبح بناء على تحول عنصري جديد مادة مفكرة ، هي الإنسان .

فعندها معادلة ^(١) معينة هي :

مؤثرات حرارية ديناميكية + عوامل كهائية = مادة حية ← الإنسان

وهذه المعادلة صحيحة طوال العهد الجيولوجي المطابق للعوامل أو المؤثرات الحرارية الديناميكية التي تبدو في الجزء الأول من معادلتنا (مؤثرات حرارية ديناميكية + عوامل كيمائية) ، فإذا نحن سلمنا جدلاً بعدة هذا العهد ، وكذلك بعدة الدورة الحيوانية التي تنتقل بالسادة الحية من حالة عدم التشكل (لليروتوبلازم) إلى الحالة المنتظمة المفكرة للإنسان ، فإن هناك بالضرورة عدداً من الأجيال مطابقاً للنسبة بين هاتين الفترتين ، وعليه فإن الجيل الأول يكون قد سبق بالنسبة لما أعقبه بعدة طويلة معادلة لطول العصر الجيولوجي الذي تصح فيه شروط المعادلة .

وفي نهاية ذلك السباق يكون الجيل الأول قد وعى حقيقة دنياه ، والظواهر التي مرت عليه .

وي ينبغي خصوصاً أن يكون الجيل السابق قد سجل في ذاكرته ظاهرة الأجيال التي تليه ، ولكن الجيل الإنساني الحالي لم يسجل في مذكرته حدثاً

(١) هذه العادلة يفرضها المبدأ الذي سلنا به في هذا الفصل وهو «أن المادة تخلق نفسها» فهي صحيحة مختصة علمياً على حين تناقضها بعض نتائجها كما هو ظاهر من التحليل التالي.

كهذا ، ولا نجد لديه إلا أثراً يتعلّق بالجبل الآدمي الحاضر . فنالضروري إذن أن نقر أن المعادلة البيولوجية المشار إليها لم تحدث سوى مرة واحدة ، ومن أجل جيل وحيد فريد ؛ وبعبارة أخرى : هنالك حتمية بيولوجية لا تستطيع العوامل المادية وحدها أن تبرهن عليها ، وهذا يلفت انتباها إلى نقص في المذهب المادي ، وهو نقص يثبت ضعف مبدئه الأساسي ، وسيزيد هذا النقص في نظرنا إذا ما اعتبرنا أن المعادلة المذكورة لا تعطينا تفسيراً لظاهرة التوالد الحيواني .

وهناك في الواقع مشكلة جديدة تخص وحدة النوع التي لا يمكن أن تُرى في الفرد ، وإنما في الزوج : الذكر والأنثى ؛ ولذلك فإن النظرية المادية لا تقدم أي تسوية لهذا الإزدواج الذي يعد شرطاً لوظيفة التوالد الحيوانية .

إذا كان هناك حدث (بيولوجي) عرضي فيها يخص الرجل ، فإن المشكلة تظل تواجهنا على الرغم من ذلك فيما يتعلق بالمرأة ، إلا إذا قررنا حدثاً مزدوجاً في الأصل ، نتج عنه الزوج التوالي الضروري لتناسل النوع الإنساني ، وإذا نحن قررنا على الرغم من كل شيء هذا الحدث المزدوج للمادة ، يكون من الصعب أن نقرر أن تتيجهه كانت متسقة تماماً مع هدف وظيفة التناسل الواحدة المشتركة بين الذكر والأنثى .

وعلى كل فإن حتمية المادة يمكن أن تصح إذا كانت تتحقق في صورة خنوثة زوجية لنوتين متماثلتين مستقلتين : نوع الرجل ونوع المرأة ، وبهذا يوجد أيضاً بقية نقص تشير عدم التوافق في المبدأ .

ومن وجهة النظر الآلية : من الثابت أن المادة تخضع لمبدأ (القصور الذاتي) خصوصاً تماماً ، فالمادة الحية على هذا تعد استثناء من القاعدة : فإن الحيوان مزود بعية تعديل وضعه بنفسه ، وهنا يظهر أيضاً ضعف المذهب المادي .

وهناك ظواهر أخرى لا تقل عن السابقة في إثارة الاهتمام بغرائب المذهب

المادي ، ومن ذلك ظهور بقع في بشرة الزنوج ، فهل يمكن أن يعزى هذا إلى تأقلم عضوي في بيئات يؤثر عامل الشمس فيها تأثيراً كبيراً ؟ ومع ذلك ففي المستوى نفسه نجد البشرة البيضاء والصفراء أو النحاسية ، فهل يمكن أن يعزى هذا إلى الغابة العذراء ؟ وفي هذه الحالة يجب أن تتلون بشرة الإنسان في البرازيل مثلاً .

وأخيراً ففي علم الفلك نصادف أيضاً غرائب غامضة في نطاق المذهب المادي ، فقد كشف تحليل ألوان الطيف عام ١٩٣٩ م لعالم الطبيعة (هايل) اتجاه حركة النجوم السديمية الخارجية عن سمائنا بالنسبة لعالمنا ، فإن هذه السديميات تتبع عن كوكبنا ، فيما عدا ستة تقترب منه على عكس سالفاتها .

وهكذا تختل المادة في مجموعها - بالنسبة لنا - تفسيرين متعارضين ، فإذا وضح أحدهما في ضوء قانون أساسي معين ، فإن معنى الآخر يظل معلقاً ، وكل هذا الشذوذ الذي يتنافى مع الحقيقة المادية المحسنة - أساساً - يحتم إعادة النظر في بناء المذهب كله ، فإن المبدأ الأساسي نفسه يبدو عاجزاً عن تزويدنا بنظرية متسقة عن الخلق وعن تطور المادة .



المذهب الغيبي

من الضروري هنا أن نفرض مبدأ متميزاً عن المادة ، فالله خالق ومبدِّر للكون ، وسبب أول ينبع عن كل موجود ، وهذا هو مبدأ المذهب الجديد . وسيتولى هذا المبدأ بيان أصل المادة ، وقد وجدناه غامضاً موغلاً في الإبهام في المذهب السابق : فهي مخلوقة بواسطة حقيقة مستقلة عن جميع خواصها .

وهذه الحقيقة الغيبية (الميتافيزيقية) تسعفنا حين تعجز القوانين الطبيعية عن إعطاء تفسير واضح للظواهر . وبذلك ينتج عنها مذهب كامل متسق متجانس لا نقص فيه ولا تعارض ، مما لزم المذهب المادي .

وفي الوقت الذي يعبر فيه المذهب الغيبي عن المطالب الفلسفية للعقل ، الذي يرمي إلى ربط الأشياء والظواهر ربطاً منطقياً في تأليف متسق ، نجده ينصب علامة على ذلك جسراً يتجاوز حدود المادة إلى مثال أعلى للكمال الروحي ، إلى المهد الأساسي الذي لم تكف الحضارة عن الاتجاه نحوه ، فحلق المادة هنا ينتج من الأمر القاهر لإرادة عليا ، تقول لكل شيء حسب كلمة سفر التكوين : (كن) .

وتتطور هذه المادة سيكون طبقاً لأوامر إرادة ، توزع التوازن والاتساق اللذين قد يلاحظ علم البشر قوانينهما الثابتة .

ولكن بعض مراحل هذا التطور ستختفي على الملاحظات المألوفة لرجال العلم ، دون أن ينطوي المذهب من أجل هذا على نقص ما ، ففي هذه الحالات الاستثنائية نستعين بالحقيقة الغيبية التي لا تعارض بينها وبين طبيعة المبدأ .

فحينما يوجد نقص في المذهب السابق ، يوجد تدخل سبب خاص خالق ،
عالٌ بخلقه ، ومريد .

ولقد نجح مؤقتاً القانون الذي يسيطر على ظاهرة ما زالت تخفي علينا طريقة حدوثها ، ومع ذلك فإن المذهب يظل منسجًا منطبقاً مع مبدئه الأساسي ، لأن مثل هذه الظاهرة يمكن تسويفها في التحليل النهائي بناء على حقيقة مطلقة ، فإن إرادة الله هي التي تتدخل هنا ، بينما كانت الصدفة هي التي تتدخل هناك ، تلك الصدفة التي تُعدُّ الإلة القادر على كل شيء في المذهب المادي .

ولا يغيب عن نظرنا أن الأمر لا يتعلّق هنا - كما سبقت الملاحظة - بالموازنة بين نوعين من العلم ، بل بين عقیدتين : عقيدة تؤله المادة ، وأخرى ترجع كل شيء إلى الله تعالى .

وليس من نافلة القول أن نقرر أن عالماً كبيراً يستطيع أن يكون مؤمناً كبيراً ، على حين أن مسكيناً جاهلاً يمكنه أن يكون جاحداً كبيراً أيضاً ؛ والأمر هكذا غالباً . وعندما نصادف حالة عجيبة لعالٍ يقول إن القرد جد للإنسان ، فيجب أن نفكّر أيضاً في ذلك الوثني المتواضع على شاطئ نيجيريا ، الذي يعتقد تماماً أنه قد انحدر من جدٍ تماًسح ، فليس لدى كل من هذين الرجلين ، العالم والبدائي ، سوى فكرة غريبة يعبر عنها كل منها بطريقته .

إن عصور الاضطرابات الاجتماعية ، والاختلال الروحي هي وحدتها التي تخلق الصراع بين الدين والعلم .

ولكن كلما تواردت أحداث التاريخ ، في روسيا مثلاً إبان الحرب الأخيرة ، وفي فرنسا عقب ثورة ١٧٨٩ م ، وجدنا أن آلهة العلم قد انهارت على نحو يدعو إلى الرثاء ، لتفسح مجالاً للعلم وحده ، ذلك الخادم المتواضع للتقدم الإنساني ، ومع

ذلك فنذ الاستكشافات الأخيرة لعلم الفلك فطن العلم إلى نطاقه المحدود؛ وفيها وراء السديميات السحرية في البعد، وراء ملايين السنين الضوئية، وربما ملياراتها، تندلهاوية التي لا قرار لها، إلى الالهائية التي يستحيل الوصول إليها، أو حتى إدراكها بالنسبة للفكر العلمي، إذ لا يجد هذا التفكير موضوعه الخاص وهو: **الكم وال العلاقة وال حالة**.

فأي كم؟ وأية علاقة؟ وأية حالة؟

كل هذه الأسئلة لا معنى لها خارج حدود المادة، والعلم نفسه لا معنى له وراء السديميات الأخيرة التي تقف على الحدود بين عالم الظواهر، والالهائية اللامادية.

وراء هذه الحدود يستطيع الفكر الديني وحده أن يقول شيئاً واضحاً بيناً:
(الله يعلم).





الحركة النبوية



الحركة النبوية

إن الدراسة الموجزة ، لا تؤدي إلى فهم الظاهرة الدينية المعقدة ، لأن لها مظاهر متنوعة ومتعددة في مختلف البيئات الإنسانية ، ولقد قامت نظريات غريبة عن طبيعة هذه الظاهرة وتاريخها . فالمؤلفون المعاصرون يحاولون شرحها في ضوء تفسير تاريخي مجرد ، تبعاً لنهج (ديكارت) الذي يرجع كل شيء إلى معيار أرضي .

كذلك قرر (شوريه) Shurré مؤلف كتاب (كبار الوالصين) Grands Initiés أن الفكرة الدينية ظلت سراً تحفظه صدور بعض أولئك الوالصين ، يكشفه بعضهم البعض ، من جيل إلى جيل ، بواسطة انكشاف باطني ، تضل ذكراء مع ما يحتوي من سرية في أعماق التاريخ .

هذه الفكرة البسطة تزيد في تعقيد موضوع سبق أن قررنا أنه معقد ، وهم يدعون مع ذلك أنهم إنما أرادوا توضيح أركانه بهذا الفرض الخاطئ المضحك ؛ وهو الفرض الذي يزعم حدوث انكشاف دوري للسر الديني ، بواسطة جمعية سرية غامضة يرأسها بعض (اللamas) في أحد جبال التبت البعيدة !! ...

ولم يعبأ (شوريه) في نظريته هذه بالتفصير التاريخي للسلسلة التي تربط مثلاً حدثين مختلفين تماماً ، كالبوذية والإسلام ، ولم يعبأ أيضاً بأن يعرض علينا في هذه الحالة القاسم المشترك الذي كان من المفروض أن يعكسه ضمير (بوذا) من ناحية ، وضمير بدوي محمد ﷺ من ناحية أخرى .

وإنه ليبدو حقاً أن تعقيد الظاهرة الدينية قد أضل الأفكار الديكارتية ، وأننا ما زلنا - بلا شك - مزعزين أمام المشكلة التي تشتمل على ربط أحداث متباعدة ، كذهب وحدة الوجود والشرك والوحدة في نطاق واحد .

ولقد لاحظنا في الفصل السابق ضرورة وضع فرض هو التسليم بوجود (الله) ، وسنبحث هنا واقعاً خاصاً هو (التوحيد) الذي قدم لنا برهانه الأسمى على ألسنة الأنبياء ، وبذلك أصبح فيصلاً في مجموع الظاهرة الدينية .

والواقع أن تتابع ديانات التوحيد دليل يمكن فحصه دائماً من الناحية الاعتقادية فحصاً يقوم على أساس النقد ، ويتمثل هذا التتابع في ظهور النبوة وجميع المظاهر الأدبية والروحية التي تصبها .

ومنذ (إبراهيم) عليه السلام تتابع أفراد مدفوعون بقوة لا تقاوم ، جاؤوا يخاطبون الناس باسم (حقيقة مطلقة) يقولون إنهم يعرفونها معرفة شخصية ، وخاصة ، بوسيلة سرية هي الوحي .

ويقول هؤلاء الرجال إنهم مرسلون من (الله) ليبلغوا كلمته إلى البشر ، هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يسمعواها مباشرة .

وخصوصية هذا الوحي ومضمونه ، هما الأماراتان المميزتان المثبتتان لرسالة النبي . هذا إلى أنها هي السمة المميزة للنبوة ، وهي الحقيقة الجوهرية في مذهب التوحيد وبرهانه الواقعي .

☆ ☆ ☆

مبدأ النبوة

إن مبدأ النبوة يعرض نفسه بفضل شاهده الوحيد - النبي - بوصفه ظاهرة موضوعية مستقلة عن الذات الإنسانية التي تعبّر عنه .

والشكلة على وجه التحديد هي معرفة ما إذا كان الأمر يتعلق بأشياء ذاتية محضة ، أو بظاهرة موضوعية كالمغناطيسية مثلاً ؛ إن وجود المغناطيسية ينكشف لنا بواسطة الإبرة المغناطيسية التي تجسم لنا كأَوْ كيَفَاً الحقائق النوعية ؛ لكننا لا نستطيع ملاحظة ظاهرة النبوة إلا من خلال شهادة النبي ، وفي محتويات رسالته المتواترة المنزلة ، فالامر يتعلق إذن بمشكلة نفسية من ناحية و تاريجية من ناحية أخرى ، ولنا أن نلاحظ أولاً و قبل كل شيء أن بعث النبي ما ليس حدثاً فرداً ، ليكون غريباً نادراً ، بل هو على العكس من ذلك ظاهرة مستمرة تتكرر بانتظام بين قطبين من التاريخ ، منذ إبراهيم إلى محمد ﷺ . واستمرار ظاهرة تتكرر^(١) بالكيفية نفسها ، يعدّ شاهداً علمياً يمكن استخدامه لتقرير مبدأ وجودها ؛ بشرط التثبت من صحة هذا الوجود بالواقع المتفقة مع العقل ، ومع طبيعة المبدأ .

ومن المعلوم بناء على وجهة نظر (هيجل) - التي تعمد على ملاحظة الظواهر - أننا إذا وجدنا حالة نبوية خاصة لا تفسر شيئاً ولا تثبته ، فإن تكررها في ظل بعض الشروط يبرهن على الوجود العام للظاهرة بطريقة علمية ، ويبقى علينا أن نبحث في ماهية هذا التكرار ، لكي نستخلص من صفاته الخاصة القانون العام الذي يمكن أن يسيطر على الظاهرة في جملتها . فليس هناك من

(١) يتصل بهذا المعنى الآية الكريمة ﴿ قل ما كنتَ بداعاً من الرسّل ﴾ [٩٤٦] الأحقاف .

سبب وجيه لكي نسلم مقدماً بالنبوة بالمعادلة الشخصية^(١) للنبي ، وهو يقرر أن الأمر يتعلق أو يمكن أن يتعلق بالأعصاب الشائرة ، والخيال الشاطح ، والفكر الذي أزاغته ظواهر ذاتية مغضّ .

إن حياة الأنبياء وتاريخهم يعناننا من أن نعدّهم مؤمنين مندفعين دون تعلق وبكل بساطة ، إلى الخوارق والمعجزات ، أو أن نحكم بأنهم معتوهون بأصل خلقهم ، اختلت عقولهم وبصائرهم بمقاييس مزمنة ؛ فهم يمثلون - على العكس - الإنسان في أسمى حالات كمال البدني والخلقي والعقلي ، وشهادتهم الإجتماعية تحظى في نظرنا بالثقة التي تستحقها . وإن فن الواجب في المقام الأول أن نلجم إلى هذه الشهادة لكي نثبت القيمة التاريخية للواقع التي نخضعها لنقدنا ، ثم يبقى علينا أن نخلل مجموع هذه الواقع في ضوء العقل المتحرر من ربقة الشك المطلق الذي لا هدف له .

ولذا فسنحاول أن نبحث حالة النبي (أرمياء) الذي اختربناه من أجل الضمانات التاريخية ، التي تخول كتابه وتاريخه الشخصي قيمة الحقيقة الموضوعية ، والواقع أن البروفسور (مونتيه Montet) قد توصل في دراسته للوثائق الدينية إلى تجريد الكتاب المقدس من كل صفات الصحة التاريخية ، فيما عدا كتاب (أرمياء)^(٢) ، ومع ذلك فنحن نريد أن نتحاشى مساوى النقد الحديث للكتاب المقدس ، الذي يبدو لنا أنه قد أخطأ في فهم طبيعة الموضوع بهذا التعميم المفرط للشك الديكارتي ، والذي يؤدي غالباً إلى تفسير متعسف للحقائق النفسية التي هي الأساس في هذا الموضوع .

(١) المعادلة الشخصية هي مجموعة من الطاقات والإمكانيات الشخصية تكون (الأننا) . (المترجم)

(٢) تضم الحركة النبوية الإسرائيلية سبعة عشر نبياً منهم أربعة أكابر هم : أشيماء وأرمياء وحزقيال ودانيل ، وقد قيل لهم ذلك لأنهم ذودوا أسفاراً أكبر من أسفار غيرهم . وقد وزعت نبوتهم على أربعة قرون بعثوا خلالها في أعقاب بعض (٤٢٥ - ٨٢٠ ق.م) وأولهم (يونس ويوئيل) (٨٢٠ ق.م) . وأخرهم (ملاخي) (٤٢٥ ق.م) . ثم جاء بعده (يوحنا المعمدان) الذي ظهر على إثره المسيح عليه السلام . (المترجم)

ادعاء النبوة

إن التعميم المؤسف الذي وصفناه قد أدى إلى وضع (مبدأ النبوة) بين مجموعة ظواهر نفسية تدرس تحت اسم (الظواهر الباطنة) Phénomènes Pneumaiques ، ويبدو لنا أن هذا التعميم منسوب إلى المصدر العربي خاصة ، لأن النقد الحديث يستقي منه أسانيده عن الموضوع .

هذه الأسانيد هي في الواقع المخطوطات الإسرائيلية في القرنين السابع وال السادس قبل الميلاد ، وهي التي كانت مصدراً للمعلومات الرئيسية عن الحركة النبوية .

على حين أن هذه الحقبة من التاريخ الإسرائيلي لم تكن فترة ارتقاء روحي ، بل هي الأخرى فترة تدهور خلقي وديني ، ناتج عن الاضطرابات الاجتماعية والسياسية ، وهذا التدهور هو على وجه التحديد موضوع دعوة الأنبياء منذ (عاموس) Amos ومعاصريه (ميخا) Michée و (هوشع) Osée الذين لم يأتوا ليعلنوا وعد البشارة والغفران ، بل ليبلغوا وعيد العقوبة والبلاء .

وتفسير ذلك من وجهة نظر التاريخ هو أنه حدث في ذلك العصر أمران هامان هما : هبوط درجة (رب العالمين) إلى مجرد إله قومي - من ناحية - ، ودخول كثير من الشعائر والطقوس الآشورية الكلدانية في العبادة من ناحية أخرى ، حتى أصبحت الشمس تتمتع بتقديس حار في بيت المقدس ، فقد كان هناك (رجال يعبدون الشمس المشرقة ، وفي أيديهم غصن ، بالقرب من هيكل الرب نفسه) كا يقول مؤرخو تلك الفترة .

ولكن إذا كان المستوى الروحي قد انحط تبعاً لهذا التلقيق والتآمِّن لفكرة الإله الواحد ، فإن النشاط الديني الذي التزمته طقوس العبود أو غُنْته ، كان يغذى في روح إسرائيل المتصوفة حية واندفأعاً تمسك الإسرائيليون بظاهرها العامة على أنها أجزاء مكملة للحركة الدينية .

فقد تكاثر الكهان والعرافون وأهل الكشف في بيت المقدس ، وكانوا موضع احترام الشعب أو خوفه ، لما خصّهم به من القدرة الخارقة . ولما كان من الضروري إطلاق اسم على هؤلاء الذين يحظون بهذا الاحترام ، فقد أطلق عليهم جميعاً اسم (الأنبياء) نظراً لعدم وجود مصطلح اشتقاقياً مناسب لهم^(١) .

ونحن نعرف في إفريقيا الشمالية مثالاً لتطور المفردة ذات المعنى الأصلي الخاص إلى مضمون عام ، فإن لفظ (المرابط) كان يطلق في الأصل على عضو في إحدى جماعات الأخوة الدينية العسكرية ، الذي كان من مهمتهم السهر على حدود (دار الإسلام) ، وما حدث لهذه اللفظة فيما بعد معروف^(٢) .

وعلى كل حال فإن الاستعمال الدارج لهذا اللفظ لم يقتصر على الاستعمال الشعبي ، فقد كان له أيضاً حق التطرق إلى الأدب الديني في هذا العصر . وكان يطلق خاصة على الموظف الكهنوتي المكلف رسمياً بالتبشير في المعهد .

(١) جاء في الحاشية على الجزء الثاني من الكتاب المقدس طبعة اليهوديين صفحة ٨٦٣ « يطلق النبي عند اليهود على كل كاتب ملهم فيدخل في ذلك (موسى وصموئيل) . أما في عرف الكنيسة فيراد به من صدق عليه وصف النبوة من جهة معناها الوضعي أي الإنباء اليقين بحوادث آتية لا يكن أن يهتدى إليها بأسبابها ومقدماتها ب مجرد استدلال العقل » . (المترجم)

(٢) قصد بلفظ (مرابط) في التاريخ أحد معان ثلاثة على التوالي فهو في البداية كان المعنى المذكور ثم أطلق عنواناً على الدولة المعروفة في تاريخ المغرب والأندلس ثم أخيراً صار عنواناً على الدراويش أهل « الزردة » أي الولام المقادمة في ذكر المتصوفة الآن . (المترجم)

وسيطلق لفظ (النبي) أيضاً على كاهن الإله (بعل) ، كما يلاحظ ذلك في كتاب (يونان) أو يوئيل . وعندما جاء الأنبياء مثل (عاموس وأرمياء) ليقلبوا هذا المجتمع البدعي بصرخاتهم وتنبؤاتهم المروعة التي خلقت جوًّا مضطرباً ، واستحوذ على المجاهير لون من المحاكاة أو التقليد تبعاً للموقف الجديد ، بدأ جميع (الأنبياء) في التنبؤ ، كلًّا من ناحيته ، وبذلك نشأت حركة التنبؤات المزعومة ، فوجدنا كلا الوجهين : رجل الدعوة الصادق ومدعى النبوة ، يتظوران معاً في تاريخ هذه الحقبة التي منحت إقبالها أحياناً النبي مدعٍّ هو (حنانيا) ، بينما تصامت عن الدعوة اليائسة المروعة للنبي (أرمياء) .

وعلى كل ، فإن هذا العصر قد خلط بين شخصيتين متizتين ، وغالباً متخاصمتين ، ومتلذلان تيارين مختلفين للفكر متعارضين غالباً .

ولقد تجلى هذا الخلط في التعميمات المفرطة في الدراسات الحالية للظاهرة النبوية ، وهي التعميمات التي ت quamم الصفات الخاصة بالنبي في غواص مطرد هو : (العراف) . ومن خلال هذا المفهوم يريد النقاد الحديث أن يكشف حقيقة النبوة التي سبق أن اعتبرها ظاهرة ذاتية ، وهو بذلك يعطى منذ البداية دراسة الظاهرة حين يؤكد (أن ما يراه العراف ويسمعه في حالات انجذابه وغيابه رهن بشخصيته ، وربما يكون هذا ثمرة ناضجة في اللاشعور ، من تأملاته ومن أحواله الدينية السابقة ، ومن ميوله الداخلية المتعمقة في وجوده كله ، التي تتجلّى حينئذ أمام ضميره كأشياء تبدو له خارجة عنه) .

هذا النص يهدف بوضوح إلى جعل النبوة من المجال الذاتي للنبي ، دون أن يتم بشهادة هذا الأخير الذي يؤكد بكل قوّة أنه يرى ويسمع موضوعه خارج مجاله الشخصي .

☆ ☆ ☆

النبي

لو أتيح لعلماء الطبيعة أن يحملوا قطعة من الحديد على الكلام عندما تكون متعرضة للتأثير المغناطيسي ، لأسعدهم دون ريب أن يسألوها عن مجموعة من المعلومات الخاصة بحالتها الباطنة ، بدلاً من أن تحول معلوماتهم آخر الأمر - كـ هو الواقع - إلى فروض لا يبرهن عليها الحساب بشكل قاطع .

ومع ذلك فإن النبي (ذات) يمكن أن تحدثنا عن حالتها الداخلية ، ويمكن أن تبرهن عليها : أولاً لاقتناعه وتحققه الشخصي ، وثانياً من أجل ما يسمى بالاقتصاد الخارجي ، أو السياسة الخارجية لرسالته .

إذا حدث أن جاءت نبوة فيجب أولاً أن تعد سبباً يثير الاضطراب في ذات إنسانية ، ويدفعها دفعاً لا سبيل إلى مقاومتها نحو رسالة ما ، لا تتضح دوافعها وأهدافها بوصفها حقائق محددة لهذه الذات .

ولهذا فإن معرفة النبي الظاهرة أساس لأية دراسة تقدية للموضوع ، فيونس وأرمياء و محمد عليه الصلاة والسلام أفراد أرادوا أولاً أن يقلصوا طواعية من دعوة النبوة فقاوموا ، ولكن دعوتهم استولت عليهم أخيراً ، فقاومتهم تسلل على التعارض بين اختيارهم والحقيقة التي تطوق إرادتهم ، وتنسلط على ذواتهم ، وفي هذه الدلائل قرينة قوية للنظرية الموضوعية عن الحركة النبوية .

☆ ☆ ☆

أرمياء

هذا هو أنصع مثال يمكن استخلاصه من الحركة النبوية الإسرائيلية ليعرض علينا الأفكار العامة عن النبوة ، وعن نفسية النبي .

ولقد سبق أن اخذنا الصحة التاريخية المقررة لكتاب هذا النبي أحد بواعث اختيارنا لحالته .

وهناك باعث آخر هو أننا نريد أن نفقد موازنة علمية بين النبوة وادعاء النبوة . ولقد سبق أن بيننا مصير كلمة (النبي) في الآداب الدينية الإسرائيلية في القرنين السابع وال السادس قبل الميلاد . وإذا كان هناك مقياس يسمح بالتمييز بين نوعين من الفكرة الدينية في ذلك العصر متمثلين في أرمياء وحنانيا ، فهو استمرار فكرة التوحيد خلال الحركة النبوية كلها ، منذ (عاموس) إلى (أشعيا الثاني) . ويتميز النبي الموحى إليه عن منافسه المحترف ، بمقاومته العنيفة ضد الألوهية القومية ، التي صارت لب العقيدة الشعبية ، فجميع الاتجاهات الخلقية للنبي الموحى إليه قائمة على أساس الفكرة المسلطية الملزمة : فكرة إله واحد عام ، ي يريد النبي أن يثبت فرائضه الخاصة في شعائر قومه .

ولم تكن آيات الوعيد المرعب ، وإنذارات السيطرة الخارجية والتهديد بهدم المعبود ، إلا توابع لهذه الفكرة على الرغم من أنها كانت أكثر إثارة لاهتمام الشعب ، كما هي اليوم أكثر إثارة لاهتمام النقد الحديث بكل أسف .

وفي مقابل ذلك يقف مدعى النبوة موقف أحد الاتهازيين الذين يتبعون

التيار الشعبي ، فهو بهذا لا أثر له أخلاقياً وليس ملهاً ، بل إن موقفه تجاه عقائد عصره هو موقف المبالغة في التساهل تساهلاً يصل إلى درجة التلقي والملاينة . ومع ذلك فإذا لم يكن هناك مجال للحديث بعد محمد عليه السلام عن الحركة النبوية بمعنى الكلمة في التاريخ الديني للإنسانية ، فقد استمرت حركة ادعاء النبوة في الظهور في جميع العصور وفي كل مكان تقريباً . وهناك كثير من المتقذين في الهند ، وهناك الأب الرباني في أمريكا قبل سنوات الحرب ، كما ظهر (الباب) في فارس ، فتى ميزنا بين هاتين الوظيفتين : النبوة وادعاء النبوة ، بناء على صفاتهما التاريخية ومبادئهما الفلسفية ، فبداهي أن غمز بين العاملين اللذين يؤديانها ، وهو النبي ومدعي النبوة ؛ فهمة الأول في سماتها الحالمة : أن لها مبدأ وثيق الصلة بالأفكار العامة للحركة النبوية ، ولها زمن يتناسب مع عرض هذا المبدأ وتبلیغه ، وهذه حالة (عاموس) الذي عاد يرعى كباشه في (تکوا)^(١) في هدوء بعد تبلیغ دعوته وتحذيراته المروعة . على حين لا يبشر مدعي النبوة ببدأ شخصي بالمعنى الصحيح ، بل يكتفي إما بأن يطنب في شرح رسالة النبي ، وإما بأن يبشر بنوع من المعارضة في مقابل رسالة النبي : فعندما حمل أرمياء النير الرمزي ، وبالغ في إنذاره بالتشاؤم ، جاء حنانيا المتبنى ليحطّم هذا النير ويبشر بالتفاؤل ، حتى أثر على النبي المتشارم نفسه مؤقتاً ؛ هذه الموازنة الموجزة تبين تياري الفكرة الدينية ، والرجلين اللذين يعبران عنها ، وهكذا نرى الأسباب التي توجب عدم الخلط بينهما .

☆ ☆ ☆

(١) قرية اندثرت من قرى فلسطين .

الظاهرة النفسية عند أرمياء

لقد قدم لنا (أرمياء) على الظاهرة النبوية شهادة من أقى الشهادات وأصرحها ، فقد أورد تفصيلاً وصفياً ذا أهمية قصوى لسلوكه الخاص حيال الظاهرة ، وأشاركنا في تأملاته المرة أحياناً ، تلك التأملات التي توحى بها إليه حالته ، فقال : « لقد صرت محور سخرية طيلة النهار ، فالجميع يهزؤون بي ، لأنني كلما تكلمت وجدتني مضطراً لأن أصرخ ، وأعلن الجبروت والخراب ؛ لقد صارت كلمة الله بالنسبة لي مصدر عار واستهزة مستمر ، فإذا قلت : لم أعد أذكره ، أو أتكلم باسمه ، وجدت في قلبي كالنار المضطربة المستكنة في عظامي ، فأحاول أن أطفئها ، ولكنني لا أستطيع »^(١) .

وإذن ف (أرمياء) يرسم بطريقة ما الخطوط الداخلية لذاته ، ونحن نجد في وصفه هذا ثلاثة عناصر مترتبة مميزة :

أولها : الاحتراق العميق لمشاعره المضطربة ، من جراء الاستهزاء الذي يلقاه .

وثانيها : إرادته أن يتخلص من دعوته ، بامتناع ناتج عن تأمل وإعمال فكر .

وثالثها : عنصر ثابت يبدو أنه يطبع هذه الحالة النفسية كلها ، ويطوق إرادة ذات النبي ، وهو الذي يشير إليه ما يجده في قلبه (النار المضطربة) .

هذا العنصر الأخير هو الذي نعده العنصر الجوهري في الحالة الداخلية للنبي ،

(١) أنبياء بني إسرائيل ص ١٩٢ - ١٩٣ بالفرنسية لـ (أندريه لودز) .

إذ هو يحدد بصفة نهائية سلوكه في المستقبل ، وهذا السلوك يعد قطعاً جوهر حياة النبي . ولنا أن نعد هذا العنصر عاملاً دائماً مطلقاً عند النبي ، فإن (أرمياء) كان يستطيع أن يعطينا سمات أخرى لذاته ممثلة في أحوال أخرى للضمير ، ربما لا نصادف فيها عوامل (الحساسية) و (الميل إلى الامتناع) ، وإنما نلقى (النار المضطربة) نفسها مسهمة في عوامل نفسية جديدة ، تمحض من السلوك الأساسي للنبي في النهاية .

ولنأخذ على ذلك مثلاً : حينما جاء (حنانيا) (ليحطم الطوق الخشبي الذي كان في عنق النبي) قائلاً : (هاك ما قال الله ، وسأحطم هكذا نير ملك بابل) لقد أجابه (أرمياء) في براءة وحسن طوية مدفوعاً بحض اختياره : (آمين حق الله ما تقول) .

ثم لم يروه عدة أيام ينشر دعوته ، ومع ذلك فإنه لم يلبث أن ظهر في الأماكن العامة وليس معه هذه المرة طوق خشب ، بل طوق من حديد ، إمارة على تصميمه القاطع النهائي على الاستمرار في دعوته العابسة .

وأياماً ما كانت الأسباب النفسية التي حمت هذا التوقف المؤقت لنشاط النبي ، فإنه مما له دلالته الكبرى أنه عاد أخيراً إلى رسالته .

فالعنصر الدائم الذي وصفناه ينفي أخيراً ودائماً جميع العوامل النفسية عند النبي ، ذلك العنصر الذي ينظم له نهائياً سلوكه في المستقبل . فهذا العامل له إذن بعض الظهر بالنسبة لذات (أرمياء) ، إذ هو ينتصر تماماً على مقاومته ، فيبذل حساسيته ، وينفي ثقته الشخصية في تنبؤ (حنانيا) ، وإن كانت تلك إلى أجل . وهذا العامل هو الذي قع ألمه عندما وضعه كاهن المعبد في (الفلقة) بتهمة التحرير ، قع ألمه قعًا محليه الغريزة الأولية للمحافظة على النفس ، عندما كبدته تنبؤاته المشؤومة أن يلقى به ذات يوم في (الجب) حق كاد يهلك .

إلى جانب هذا القهر الذي رأيناه في الإطار النفسي للنبي ، والذي يقهره على قصائه بصورة لا تقاوم ، يجب أن نضم قهراً من نوع آخر ، ذلك الذي يتجلّى في أحكام (أرمياء) على أحداث عصره . والحق أن النبي قد حكم على هذه الأحداث على نحو مختلف تماماً عن أحكام معاصريه ، وطريقته الفذة في النظر إلى الأشياء صدقتها الأحداث بشكل عجيب .

هل يجب أن تعزى هذه (الناظرة العميقه) إلى موهاب شخصية ، أي إلى مقدرة هائلة على الاستنتاج ، وذوق نقيدي نادر لمجرى التاريخ ؟ !

إن النقد الحديث يفسر لغز النبوة بهذه الطريقة ، حين يخص الأنبياء بهبة معينة ، تخول لهم الحكم العميق على التاريخ ، ولكن يبدو أن هذا الرأي العقلي (المنكر للوحي) قد فاته أن ما ينقص (أرمياء) - مثلاً - بصفة موضوعية هو الأساس العقلي لأحكامه على أحداث التاريخ . وأكثر من ذلك ، فإن الأنبياء باعتبارهم مصادر لنبوءاتهم لم يرجعوا إلى منطق الأحداث ، بل لقد تجاوزوا هذا المنطق . ولهذا يظهرون أحياناً في نظر معاصرهم بمظهر عدم الاتساق في التفكير ، فإن هؤلاء المعاصرین يبرهنون بطريقة أكثر اتفاقاً مع العقل و يجعلون لنظراتهم أساساً مستبداً من أحداث التاريخ .

ولنأخذ مثلاً : حالة الإسرائيليين أثناء أسرهم ببابل . لقد كانوا يأملون العودة القريبة إلى وطنهم . وهم ينظرون - في دهشة وأمل - ارتقاء حاميهم (إميل مردوخ Emel Mardoukh) على العرش ، فقد كان ارتقاوه غير متوقع !! أي شيء يمكن أن يكون مطابقاً للعقل أكثر من أمل كهذا ؟ . وكان ملك بابل في ذلك الوقت قد انتهج فعلاً (سياسة يهودية جديدة) بإطلاق سراح (جيكونيات Jeconias) ملك (جودا Juda) الأسير الذي أصبح الجليس المجل معتقه . فالأمل إذن كان المنطق بعينه !!

لكن (أرمياء) قد ذهب منذ البداية إلى تقىض هذا الأمل الذي حقر من شأنه بواعظه التشاؤمية ، فقد حذر الأمة من نير أقسى . ولقد صدق التاريخ بطريقه عجيبة تشاوم (أرمياء) الرهيب ، فقد هلك (مردوك) في الواقع مقتولاً .

وي يكن أن يقال : إن المفاجآت قد صدقـت تشاوم النبي ، ولكن لا يمكن القول : إنه قد تنبأ بالصدفة . ومع ذلك فإن هذا التشاوم لم يبدأ في الدعوة النبوية بـ (أرمياء) المعاصر للأحداث ، فمنذ (عاموس) وصوت الأنبياء يردد Delunda est النذير فوق رأس الأمة اليهودية : (فليهدم بيت المقدس Jérusalem حسب تعبير (لودز A. Lods) ، فلم يفعل (أرمياء) إلا أن شدد عليهم النذير ، ورأى وقوعه فعلاً .



خصائص النبوة

وهكذا تسمح دراسة حالة (أرمياء) بوضع صفات تحدد بوجوه مختلفة ، وبطريقة موضوعية مبدأ النبوة ، فهناك :

أولاً : صفة القهر النفسي الذي يقصي جميع العوامل الأخرى للذات ، بإلزام النبي في النهاية بسلوك معين و دائم .

وثانياً : حكم فذ على أحداث المستقبل ، عليه نوع من القهر الذي ليس له أي أساس منطقي .

وثالثاً : استمرار مظاهر السلوك النبوية ، ومتاللها الظاهر والخلفي عند جميع الأنبياء .

هذه الصفات المميزة ، لا يمكن أن تلقى ببساطة تفسيراً نفسياً ، قائماً على الحوادث التي تخضع لها ذات النبي ، تلك الذات التي يبدو أنها لا تبرز هنا إلا في مجرد صورة مترجم مرهف الحس - متمنع أحياناً - لظاهرة مستمرة تلزمها بقانونها ، كما ألمت ذوات جميع الأنبياء ، كا يثبت المجال المغناطيسي ، اتجاه جميع الإبر المغnetة .

فمن الصعب أن نفسر ظاهرة - هذا وصفها - تفسيراً ذاتياً شخصياً . فهناك لغز فسره النقد - المولع بإرجاع كل شيء إلى أفكار ديكارت مهما كلف الأمر - تفسيراً عجيباً هو : أن النبي شخص مزدوج ، مزود بذاتين تسأل إحداهما الأخرى ، وتأثر بانكشافاتها !

ولكنهم لم يهتوا بتحديد موضع هذه الذات الثانية في الفرد ، الذي يعده علم النفس التحليلي منقسمًا إلى ميدانين : اللاشعور ، والشعور . فهل الذات الثانية موضعها الشعور أو اللاشعور ؟ أو كلا المجالين في وقت واحد ...؟.

لم يقل أحد شيئاً كهذا . وهل هذا يستدعي منا فرضًا آخر ؟

إذا كانت الذات الإنسانية الواحدة لا تقدم تفسيرًا كافيًّا للظاهرة ، فلن يتحقق هنا بزاوجة هذا الكيان النفسي أو تضييفه ، لكي يقدم للظاهرة تفسير أفضل .

و حينئذ يبدو أنه لم يعد هناك تفسير آخر ممكن إلا أن نضع الظاهرة خارج الذات ، و مستقلة عنها استقلال المغناطيس عن الإبرة .

وما يدعم هذا الرأي : شهادة الأنبياء على أنفسهم ، تلك الشهادة الوحيدة ، وال مباشرة على الظاهرة ، فقد وضعوها بالإجماع خارج كيانهم الشخصي .

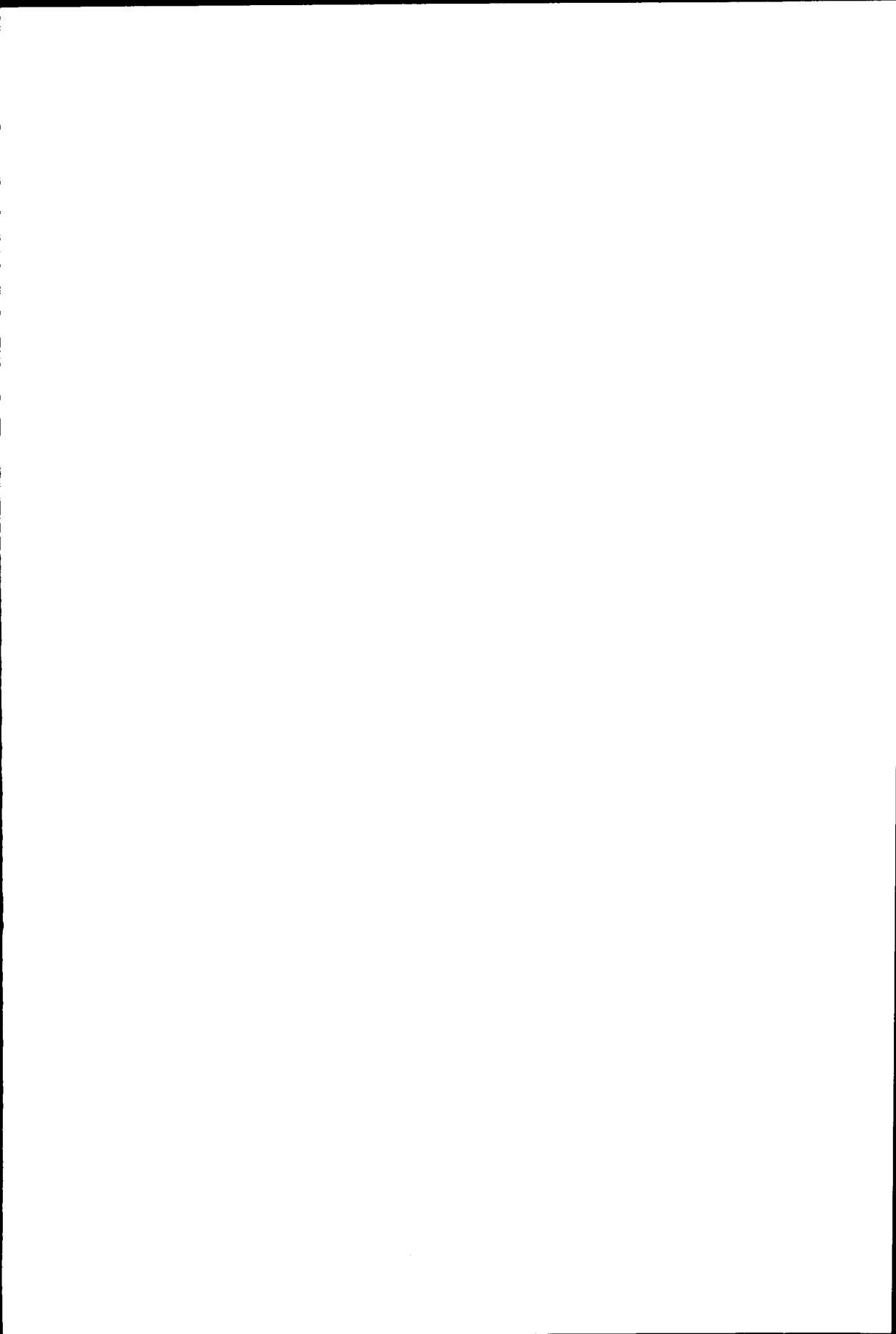
إذا صلح هذا الرأي لأن يكون فرضًا ، فإن هذا الفرض لن يكون أقل صحة من افتراض النقد الحديث .

وهذا هو الفرض الذي نريد أن نجعله - أساساً - ختام هذا الفصل ، محتفظين بالتوسيع فيه خاصة في الفصول التالية .

☆ ☆ ☆

أصول الإسلام

بحث المصادر



أصول الإسلام

بحث المصادر

في دراسة نقدية للإسلام ، لا نستطيع أن نغفل أهمية فحص الوثائق المدونة أو التاريخية ، التي يمكن أن تلقي ضوءاً على الظاهرة القرآنية . على أن هذه المشكلة التاريخية قد حلّت بالنسبة للإسلام بصفة استثنائية : فهو الوحيد من بين جميع الأديان الذي ثبتت مصادره منذ البداية ، وعلى الأقل فيما يختص بالقرآن .

ولقد امتاز القرآن الكريم بميزة فريدة هي أنه تنقل منذ أربعة عشر قرناً ، دون أن يتعرض لأدنى تحرير أو ريب ، وليست هذه حال العهد القديم (التوراة) ، الذي لم تعرف له بالصحة الدراسة النقدية للشراح المحدثين ، فيما عدا واحداً من كتبه هو كتاب (أرميا) ^(١) .

وليس العهد الجديد (الإنجيل) بأسعد حالاً ، فقد ألغى مجمع أساقفة (نيقية) كثيراً من أخباره ، مما زرع الشك حول ما تبقى منه ، وهو (الإنجيل) .

وهذا الأخير بدوره لا يعد الآن من الصلاح : لأن النقد أثبت أنه قد (وضع) بعد المسيح بأكثر من قرن ، أي بعد عصر المواريin الذين تنسب إليهم التعاليم المسيحية .

وعلى هذا فإن شكوكاً كثيرة تحوم حول القضية التاريخية للوثائق اليهودية والمسيحية .

(١) (مونتيه Montet) (تاريخ الكتاب المقدس) طبعة جنيف .

هذا التحديد الكامل للنص القرآني على عهد النبي نفسه ، يعد ظاهرة جديرة باللحظة من وجهة علم الاجتماع وعلم النفس بخصوص الوسط العربي في العصر الحمدي . فتلك نقطة جوهرية تستحق البحث والوقوف أمامها ، إذ ليست هنا مشكلة تدوين بالنسبة للقرآن ، كا هو الأمر بالنسبة لكتاب المقدس ؛ وهي أيضاً مؤيدة بحقائق التاريخ التي ينبغي أن نلتفت إليها انتباه القارئ ليلاحظ هو أيضاً توافق واقع التاريخ مع هذه الآية القرآنية ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [يوسف ١٢ / ١٢] ، ومع ذلك فإن لهذا (الحفظ) تاريخه : فكما كان الوحي يتنزل ، كانت آيات القرآن تثبت في ذاكرة الرسول وصحابته ، وتسجل فوراً بأيدي أمناء الوحي ، فقد كانوا يستخدمون من أجل ذلك كل ما يصلح لكتابه كعظام الكتف أو قطع المجلد ... الخ ..

حتى إذا قبض رسول الله ﷺ كان القرآن محفوظاً في الصدور ، مدوناً في الصحف ، فكان من الممكن كلما دعت الحاجة موازنة الآيات بعضها ببعض ، ولا سيما حين يعرض اختلاف من نوع صوتي أو لهجي .

وفضلاً عن ذلك فسنجد أن هذه الموازنة تحدث مرتين ، والطريقة التي نفذت بها هي في ذاتها حدث فذ في تاريخ الصناعة العقلية الإنسانية ، فللمرة الأولى تتجلى صفات الطريقة المنهجية في عمل عقلي ، كا تتجلى الدقة التي هي الآن وقف على التفكير العلمي .

فقد اختار الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه لجنة يرأسها زيد بن ثابت ، الذي كان أميناً للوحي على عهد الرسول ، كتبت القرآن منظماً لأول مرة^(١) . ويبعدو أن زيداً أحجم أولاً عن القيام بهذه المهمة لأمرين :

(١) المقصود هنا أن الكتابة المنظمة للقرآن لم تحدث إلا على عهد أبي بكر ، أما ترتيب الآيات والسور فقد كان توقيفاً من جبريل للنبي ﷺ حين كان يعارضه بالقرآن وخاصة بعد حجة الوداع . (المترجم)

أولها : أنه لا يريد بوصفه صحابياً أن يقوم بمحاولة لم يقم بها النبي ، أو يأمر بها .

وثانيها : أنه بوصفه مؤمناً يتحاشى مثل هذا العمل ، لأنه يخشى مقدماً أبسط الأخطاء المتوقعة في تنفيذ مهمته ، وعلى الرغم من هذا فقد تمت هذه المهمة بفضل الجهد المعاون الواعي لأعضاء اللجنة . وكانت الطريقة التي اتبعت بسيطة ، ولكنها مدققة ، لأنهم كانوا يحفظون القرآن عن ظهر قلب ، بالنظام نفسه الذي تعلموه في صحبتهم بإرشاد الرسول لهم ، فإن حدث اختلاف رجعوا إلى القطع التي كتبت فيها الآيات عند نزولها : حتى يرفعوا الشك عن موضوعها . ولم يكتفوا بكل هذه الاحتياطات الملحوظة ، فإن زيداً وعمر رضي الله عنهم قد ذهبا إلى باب مسجد المدينة ، وهنالك أشهدا بقية الصحابة لتوثيق الرواية المكتوبة بواسطة اللجنة نفسها .

بيد أن هذه الجهد قد أجازت نص القرآن مع بعض الاختلاف في اللهجات الشائعة بين عرب الجاهلية .

لم يسترح عثمان - الخليفة الثالث - لهذا الاختلاف ، وأمر بأن تكتب رواية موحدة فريدة بلغة قريش .

فاختيرت لجنة ثانية على رأسها زيد أيضاً ، وكلفت أداء هذه المهمة الجديدة ، وكان عليها هذه المرة أن تثبت النص القرآني نهائياً في لغة واحدة ، حتى لا يتسبب تنوع اللهجات في إحداث الشقاق والتدابر في المجتمع الإسلامي ، وأنهت اللجنة عملها عام ٢٥ هـ .

ومنذ ذلك العصر والقرآن ينتقل من جيل إلى جيل ، بصورة وحيدة فريدة متعارف عليها ، من مراكش إلى حدود منشوريا .

فهو على هذا ، الكتابُ الدينيُّ الوحيدُ الذي يُمْتَزَّ بِالصَّحةِ الْمُتَّسِّبةِ
لَا جَدَالُ فِيهَا ، لِأَنَّهُ لَمْ يُثْرِ النَّقْدَ أَيَّةً مُشْكَلَةً حَوْلَهُ ، سَوَاءً أَكَانَ ذَلِكَ شَكْلًاً أَمْ
مُوضُوًّاً .

والمصدرُ الثَّانِيُّ المُدْوَنُ عَنِ الْإِسْلَامِ يَنْحُصُرُ فِي أَحَادِيثِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمِنْ
الْمُؤْسِفِ أَنَّهُ لَمْ يَتَوَافَّرْ لَهُذَا الْمُصْدَرَ مَا تَوَافَّرْ لِلأَوَّلِ مِنْ الصَّحَّةِ التَّارِيخِيَّةِ ، فَإِنَّ
الْأَحَادِيثَ لَمْ تَحْفَظْ بِالْعُنَيْدَةِ الْمُنْهَجِيَّةِ نَفْسَهَا الَّتِي ظَفَرَ بِهَا الْقُرْآنُ ، فَلَقَدْ مَنَعَ
الرَّسُولُ فِي حَيَاتِهِ الصَّحَّابَةَ بِقُوَّةٍ وَصَرَاحَةٍ مِنْ أَنْ يَكْتُبُوا أَقْوَالَهُ ، حَتَّى لَا يَحْدُثَ
أَدْنَى خُلُطٍ مُمْكِنٍ بَيْنَ مَا يَنْطَقُ بِهِ ، وَالآيَاتُ الْمُنْزَلَةُ أَيُّ بَيْنَ السُّنَّةِ وَالْقُرْآنِ .

وَلَمْ تَظْهُرْ أَهِمَّيَّةُ الْحَدِيثِ إِلَّا بَعْدَ وَفَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَخَاصَّةً مِنَ النَّاحِيَّةِ
الشُّرُعِيَّةِ بِوُصُوفِهَا مُصْدَرًا ثَانِيًّا لِلتَّشْرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ .

وَظَهَرَتْ هَذِهِ الْفَكْرَةُ فِي تَارِيخِ التَّشْرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ عَنْ سَفَرِ مَعَاذِ بْنِ جَبَلِ ،
الصَّحَّابِيِّ الَّذِي اخْتَارَهُ الرَّسُولُ لِيَقْضِيَ بِالْإِسْلَامِ بَيْنَ أَهْلِ الْيَنِ ، بَعْدَ غَزْوَةِ حَنْيَنِ ،
وَعِنْدَمَا أَرَادَ الرَّسُولُ أَنْ يَوْصِيَهُ سَأَلَهُ : كَيْفَ تَقْضِيَ فِيهَا يَعْرُضُ لَكَ ؟ فَقَالَ مَعَاذُ :
« أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ ، إِنْ لَمْ أَجِدْ فِيهِ ، أَخْذُ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ، إِنْ لَمْ أَجِدْ فِيهَا
أَجْتَهَدْ رَأِيِّي وَلَا آلَوْ »^(١) .

وَلَقَدْ أَيَّدَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ طَرِيقَةَ مَعَاذِ بْنِ جَبَلِ فِي النَّظَرِ ، تِلْكَ الَّتِي
تُعْرَضُ ضَمِّنًا الْمُصْدَرُ الثَّانِيُّ لِلتَّشْرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَتُعْرَضُ أَيْضًا الْقِيَاسُ مُصْدَرُهُ
الثَّالِثُ .

وَمَعَ تَكَاثُرِ الْحَاجَاتِ فِي الْمُجَمَّعِ الْإِسْلَامِيِّ نَمَّا هَذَا التَّشْرِيعُ ، فَاتَّجَهَ الْفَقَهَاءُ إِلَى
أَنْ يَثْبِتُوا - مَا وَسَعُهُمُ الْجَهَدُ - الْأَحَادِيثَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَصْبِحَ عَنْصَرًا جَوْهَرِيًّا فِي

(١) رواه أبو داود في سننه ، كتاب الأقضية (٢٢) باب (١١) (اجتهد الرأي في القضاء)
Hadith رقم (٣٥٩٢) (ف) .

الفقه القانوني ، ومع ذلك فإن المسافة بين وفاة الرسول وعصر تدوين الحديث كانت ذات أهمية ، إذ حدث خلالها خلط كثير ، وشكوك مضاعفة بين الأحاديث الصحيحة وغيرها .

ومنذ ذلك الحين وضعت طريقة نقدية صالحة لتمييز ما هو صحيح عما ليس كذلك ، فطبقت طريقة النقد التاريخي التي تشمل تحقيق اتصال الرواية ، وقيمة الرجال الذين وصل عن طريقهم الحديث .

وقد أدى هذا الوضع بالمحاتين إلى أن يصنفوا الحديث ثلاث مجموعات تبعاً لدرجة التثبت التاريخي : الصحيح ، والضعيف ، والمكذوب .

فهذه هي مصادر الإسلام المدونة ، في حالتها الراهنة : الآيات القرآنية الصالحة لأن تستخدم وثيقة تاريخية مطلقة الصحة ؛ والحديث الذي يختلف في درجة الصحة ، والذي لا يصح أن يستخدم - على كل حال - في أية دراسة نقدية إلا مع الاحتياطات المستخلصة من الطرق نفسها التي اتبعها العلماء المحدثون المزهون عن الكذب أو الغش أو التدليس ، كالبخاري ومسلم .

وبهذه الاحتياطات يصبح المصدران اللذان يستخدمهما الباحثون في الإسلام ، صحيحين على سواء ، وسيكون من النرجي والادعاء أن نرفض منذ البداية باسم المنهج ما تقدمه لنا السنة من أسانيد .



الرسول

ربما لا يمكننا الاستغناء في دراسة الظاهرة القرآنية عن معرفة الذات الحمدية ، معرفة صحيحة بقدر الإمكان ، وهذه المعرفة ضرورية هنا ضرورة تحديد الأبعاد الثلاثة في دراسة الخصائص التحليلية لمعنى هندي .

فالظاهرة التي ندرسها مرتبطة في الواقع بذات محمد ﷺ ، ولكن خرج بنتيجة عن طبيعة هذا الارتباط لابد أن خطوة خطوة أولى لنضع مقياساً أول مدعماً بكل العناصر الخاصة بتجلية (الذات) ، التي هي موضوع القضية وشاهدها وقاضيها .

وبالتالي يجب أن نخوط أنفسنا فيها يتصل بهذا الشاهد القاضي بضمانات تكفل لنا الثقة الضرورية لشهادته وحكمه . ولن يعنينا هذا من أن نقوم من ناحية أخرى بخطوة ثانية ، هي أن نضع مقياساً ثابتاً يتبع لنا أن نحكم مباشرة بأنفسنا على الظاهرة .

ومن الطبيعي الآن أن توضع أسئلة فيها يتصل موضوع هذا الشاهد ، وهي الأسئلة التي توضع عادة من أجل الاستيثاق الخلقي والعلقي من يحتاج لأمر إلى تسجيل شهادته . فإن ذكاء عقله ، وإخلاص قلبه يجب ألا يثيراً أو يحتملاً أدنى شك ، كيما يمكن استخدامها كعنصر تاريخي جوهري في المشكلة .

وفي سبيل هذا ربما كان من الواجب أن نعرض التفاصيل كلها في حياة رسول الله ، فكل تفصيل يقدم لنا حقيقة تهم هذا المقياس .

ولكننا لا نرى من الضروري أن نعلق في متحف جد غني صورة جديدة للنبي ، فإن لدى القارئ مندوحة ليطلع على المؤلفات العديدة في سيرته ، إذا هو أراد أن يشبع رغبته في معرفة الصورة الباهرة لهذا الإنسان ، سواء في تلك المؤلفات التقليدية كابن إسحاق وابن مسعود ، أم في دراسات تراجم الرجال التي أخرجتها المطابع الحديثة لـ (دينيه Dinet) و (درمنجهام Dormengham) ... إلخ .

أما نحن فلا نهم إلا بتحطيم صورة نفسية لا تهمنا فيها التفاصيل التاريخية ، إلا بقدر ما تعيننا على ما نريد تحطيمه . وهكذا ت分成 حیات النبی ﷺ في نظرنا إلى مرحلتين متتابعتين :

الأولى : عصر ما قبل البعثة وهو يتدلى أربعين سنة .

والثانية : العصر القرآني وهو يضم كل زمن الوحي ، وهو عبارة عن ثلاثة وعشرين عاماً ، ومع ذلك فكل من هاتين المرحلتين مطبوعة بحدث رئيسي يعد فاصلاً يقسمها إلى مرحلتين ثانويتين :

فزواوج خديجة رضي الله عنها يعد في الواقع فاصلاً خطيراً فيما يتعلق بمرحلة ما قبل البعثة ، فنحن نجد نبی المستقبل ينزوی في خلوة روحية ، حتى تلك الليلة الخالدة ... ليلة الوحي ^(١) .

والهجرة هي الفجوة التي تفصل زمن تبليغ الدعوة فحسب ، عن زمن الانتصارات الحربية والسياسية التي فتحت للإمبراطورية الإسلامية الفتية باب التاريخ .

(١) نحن - حقيقة - نقصنا الوثائق عن الطريقة التي كان النبی في تلك المختبة يقسم وقته بقتضاها بين واجبات الروح وحاجات الدنيا .

وسبحث الآن بإيجاز هاتين الحقيقتين المتاليتين ، موردين في كل منها الأحداث التي تطبع شخصية النبي ، والتي انطبعت بشخصيته ، كيما نكشف بقدر الإمكان عن طبيعة الارتباط بين الذات الحمدية ، والظاهرة القرآنية .

☆ ☆ ☆

عصر ما قبل البعثة

طفولة النبي - مراهقتة

إن هناك تقاليد طيبة مشتركة بين جميع الشعوب ، تحوط مهود عظام الرجال وقبورهم بالأساطير ؛ ولقد أحاطت الروايات الإسلامية الوسط العائلي للنبي وميلاده وطفولته بالخوارق المنبهة بما ينتظره من مستقبل فريد رائع ، ولكن ليس من الضروري أن نهتم بدرجة صحتها التاريخية لأنها لا تهم موضوعنا مباشرة ، بل إننا سنصرف كثيراً من اهتمامنا إلى التفاصيل التي ستكشف شيئاً فشيئاً عن الصفات الخاصة بذلك (الطفل) ، الذي ظل بالنسبة لمرضعته (حلية) مصدر سرور وقلق معاً .

لقد شب الطفل عندها كأنه نبتة قوية من نبات الصحراء ، ولكنه حين كان في دور الرضاعة كان يبكي كلما كشف من أجل النظافة^(١) ، فإذا أرادت مرضعته أن تهدئ من بكائه خرجت به في الليل أمام الخيمة ، فيغرم الطفل بنظر الفلك الداجي ، الذي يبدو أنه كان يسلط جاذبية مؤثرة على مقلته ، لا زالت تتلاأً فيها العبرة الأخيرة .

كبر الطفل الآن ، وصار يلعب في نواحي الخيمة مع إخوته في الرضاعة .

» المترجم «

(١) لم أجد لهذا الخبر أثراً في كتب السيرة المعتدة .

ومع ذلك فإن عارضاً قد حدث بالتأكيد فغير مجرى حياته . فما هو هذا الذي حدث ؟ لقد جاء أحد إخوته في الرضاعة ذات يوم مبهور الأنفاس ، ليقص متلعمًا على حلية المذعورة حادثاً غريباً فاجأَ مُحَمَّداً ، فهبت حلية من فورها تبحث عن رضيعها ، فلما لقيته أكد لها ما حدث قائلاً : (جاءني رجلان يلبسان البياض فأمسكاني وفتحا صدري وقلبي وأخرجوا منه علقة سوداء)^(١) .

وترى السيرة في هذه القصة اقتلاعاً رمزاً للإثم من جذوره ، وربما أورد لها بعض المفسرين قوله تعالى :

﴿ ألم نُثْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنَا عَنْكَ وَزْرَكَ . الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾
[الانشراح ١ / ٩٤ و ٢ و ٣] .

ولكن من الثابت أن حلية قد أعادت الطفل إلى مكة عندما كان في الرابعة أو الخامسة من عمره .

فإذا يكن أن ينطبع في عقله من هذه الحقبة من الحياة الوثنية والبدوية ؟ .
لا شيء - بكل تأكيد . يمكن أن يكون قد علق بذاته فيما يتعلق بالدعوة المقلبة .

وبعد قليل ماتت أمه (آمنة) ، ولم يعد للغلام منزل أبواه ، فضمه جده (عبد المطلب) إليه .

(١) قال المقرizi في « إمتناع الأنساع » عند حديثه عن رضاعة الرسول في بني سعد : « وشق فؤاده المقدس هناك ، وملئ حكة وإياعاً بعد أن أخرج حظ الشيطان منه » . وروى البخاري في صحيحه « شق صدر رسول الله ﷺ ليلة المعراج » وقد استشكله أبو محمد بن حزم . كما روى مسلم في صحيحه (ج ٢ ص ٢١٥) بشرح النووي - طبع الطبيعة المصرية) من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أداه جبريل وهو يلعب مع العمالان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه . قال أنس : « وقد كنت أرى أثر ذلك المحيط في صدره » . (على أن الشق في فترة الحضانة روي أيضاً في مسند الدارمي المقدمة باب ٣) « ف » . المترجم «

ثم مات الجد العجوز ، فكفله عمه (أبو طالب) ، أبو (علي) ، وكانت سنه آنذاك سبعاً أو ثمانياً .

وفي منزل الوصي حيث لا ثروة تغنى أهل البيت عن العمل ، كان عمه يعمل قائداً ورائداً للقوافل المكية ، فكان يذهب في مواسم معينة إلى مراكز التجارة الشامية ، لمقاييسه منتجات الهند واليابان بمنتجات بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وفي أحد هذه الأسفار ، حين بلغت سن النبي إحدى عشرة أو اثنتا عشرة سنة ، توسل إلى عمه أن يصطحبه ، ولكنه رفض لأنه لم يكن يريد أن يصطحب رفيقاً حدثاً مثله ، في سفر طويل قاس .

ومع ذلك فقد ألح الغلام وذاب في دموعه ، وألقى بنفسه بين ذراعي عمه الذي استجاب أخيراً لمطلب المؤثر .

تلك إذن هي المرة الأولى التي اتصل فيها النبي ﷺ بالعالم الخارجي ، أي إنه عاش حتى الثانية عشرة ، في بيئه عربية وثنية ، يرعى إبل عمه في ضواحي مكة ؛ ومعنى ذلك أن حياته لم تتطبع بأي ظرف خاص من نوع ثقافي ، بل لقد عاش تلك الفترة يتيمأ راعياً . هذا السفر غير المتوقع سيضع في طريق الغلام الحادث العارض الأول الذي يتصل مباشرة بالدعوة المستقبلة .

فعندما بلغت القوافل مدينة (بصرى) بالشام ، استقبلهم راهب الدير استقبلاً حاراً ، وقدم لهم الضيافة المسيحية ثم انتهى ذلك الراهب المسمى (بجيرا) بأبي طالب جانباً وقال له : « ارجع إلى مكة بابن أخيك ، واحذر عليه اليهود فإنه كائن له شأن عظيم »^(١) .

فهل أولى أبو طالب هذه الحادثة العادية في السفر ما تستحق من الاهتمام ،

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٤ .

ليشترك مع ابن أخيه في رسالته المقلبة ، وهو الذي مات دون أن يعترف مطلقاً بالإسلام ؟ ...

وعلى كل ، فإن رئيس القافلة المكية كان يجب عليه أولاً أن يكمل مهمته التجارية ، قبل أن يأخذ طريق العودة .

أما فيما يخص الغلام - حتى على فرض أن القصة طرقت سمعه ، فإن الحادث - فيما يبدو - لم يغير شيئاً من سلوكه كسائر شباب قريش .

والسيرة اليقظة لواقع حياته لم تذكر شيئاً خاصاً - منذ هذا الحادث التاريخي - يدل على أن نبي المستقبل قد تجلى له مستقبله .

لقد بلغ (محمد) مرحلة المراهقة في مدينة مولده ، فقد كان يختلط بالفتيا ، ماراً بشهواتهم وأهواهم دون أن ينزلق فيها ، مع أن أحياناً الفساد لم تكن قليلة هناك ، فقد كانت المصايد الحراء المعلقة على أبواب الجواري المنحرفات يجذبن شباب مكة ، المولعين بحمل السلاح ، وعشق النساء ، ومطارحة الأشعار ، وهم يحملون بشجاعة عنترة وغرام امرئ القيس ، وكل منهم يبني نفسه بخليل اسمه ، ويود لو يعلق ذات يوم معلقته (على أستار الكعبة) ، والرسول ﷺ نفسه قد حدثنا بما كان يراوده من نزعات الشباب ، فقد ورد في الخبر : أنه كان يرعى غناً لأهله مع فتى من قريش بأعلى مكة ، فاستأذنه في أن يبصّر له غنه حتى يسمّر عينيه كاً يسمّر الفتيا ، فخرج فلما جاء أدنى دار من دور مكة سمع غناءً وصوت دفوف ومزامير في عرس بالمدينة ، فلها بذلك حتى غلبته عيناه فنام ، ثم عراه مرة أخرى مثل ذلك . ومن هذا يظهر أن حادثاً عارضاً غير متوقع يحدث دائماً ليحوله عن قصده ، وليس الخرافات هي التي تتكلم في هذا الشأن ، ولكنه الشاهد نفسه ، أعني التاريخ القائم على الأحاديث الصحيحة ، ولدينا في هذه النقطة مرجع مهم : فإن نبي المستقبل كان ولا شك يلقى في غمار

هذا الشباب كثريين من أصحابه الذين أصبحوا فيها بعد - مثل عمر - أبطالاً وشهداء في سبيل دعوته .

وفي هذا المرجع التاريخي شهادة ضئيلة من الملح الأسماء في التاريخ الإسلامي ، مثل خالد بن الوليد وعثمان بن عفان وغيرها .

أولئك الذين أصدروا على نبي المستقبل حكماً موجزاً ، ولكن كم هو بلieve حين أسموه (الأمين) . لقد كان في أعينهم في ذلك العصر الصادق الأمين ، وهذه الشهادة التاريخية تعطينا تفصيلاً ثميناً للصورة النفسية التي نحاول رسماها ، ومع ذلك فإن حياته العادية البسيطة تستمر دون شيء خاص في قطار أيامه ؛ حتى سن الخامسة والعشرين . فلم يزل (محمد) عزباء ، لأنه لم يستطع الزواج ، إذ لكي يطلب يد إحدى شريفات مكة ربما وجب عليه أن يدفع صداقاً كبيراً لا تسمح له به ثروته المتواضعة .

الزواج والعزلة

ومع ذلك ففي سن الخامسة والعشرين ، جاءه غلام يسمى (ميسرة) ليفاتحه في أمر الزواج ؛ ودار الحديث حول أرملة غنية شريفة من نساء مكة ، تسمى (خديجة) . ولقد رفض النبي مقدراً حاليه المتواضعة بالنسبة لوضع الزوجة المقترحة ، ولكن الغلام الذي عرف كيف يبده وساوسه ، وتدخلت خديجة بنفسها لتأييده .

ونحن ندين لهذا التدخل ذاته بتفصيل قيم بالنسبة لتاريخ (الظاهرة القرانية) ، فقد كانت توجد في مكة إبان تلك الحقبة حالة نفسية خاصة ، كما يوجد دائماً في كل مكان قبيل الأحداث المهمة كالحرب مثلاً .

كان أهل مكة ينتظرون النبي الموعود في سلالة إسماعيل ، وكانت خديجة

تفذى سرطموحها إلى أن تتزوج النبي المنتظر ، وتراه في (محمد) ، الذي صارحته تماماً بمشاعرها نحوه ، ولكن (محمد) لم يكن أقل صراحة حين دافع عن نفسه أن يكون ذلك النبي المنتظر .

في هذه الظروف النفسية تم الزواج ، وقد ترك لنا صحفاً - من حيث المبدأ - شهادة هامة عن الذات الحمدية التي تتجلّى لنا في ضوء هذه المناقشة الأولى عن مجىء النبي الموعود .

ونحن نجد فيه شهادة أخرى ليست بأقل أهمية ، فقد ترك لنا وثيقة قيمة في سيرة النبي ، وردت في الخطبة التي قالمها أبو طالب عم النبي في خطبة ابن أخيه حسب عادة قريش ، قال :

« أما بعد : فإنَّ مُحَمَّداً مَنْ لَا يَوَازِنْ بَهْ فَنِّي مِنْ قَرِيْشِ إِلَّا رَجَحَ بَهْ شَرْفَاً وَنَبْلَا وَفَضْلَا وَعَقْلَا ، وَإِنْ كَانَ فِي الْمَالِ قُلْلَا ، فَإِنَّا الْمَالَ ظَلَّ زَائِلَ وَعَارِيَةً مُسْتَرْجِعَةً ، وَلَهُ فِي خَدِيجَةَ بَنْتِ خَوَيْلَدِ رَغْبَةً ، وَلَهَا فِيهِ مَثْلُ ذَلِكَ^(١) . »

هذه السطور تصلنا جيداً بصورة الأمين ؛ وتفق من كل وجه مع الصورة التاريخية لبطل أعظم ملحمة في التاريخ الديني .

ولكن هاهي ذي حياته العادية تتغير فجأة ، فإنَّ (مُحَمَّداً) سينسحب من مجتمع مكة ، وينعزل عن بيئته ويجمع نفسه متأملاً ، وهي عزلة ستكون لها نتائجها في غار حراء^(٢) .

(١) كنا في هامش الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٥ وقد وردت بصيغة أخرى في السيرة الخلبية ج ١ ص ١٣٩ .

(٢) يجب أن يقصد بهذه العزلة المعنى الأعم ، إذ هي عزلة الرجل الذي لم ينسحب من المجتمع كلياً ، ولكن التاريخ لم يحدثنا عن أنه كان يخترف التجارة إبان تلك الحقبة ، ولو كان قد قام برحلات كتلك التي قام بها قبل الزواج لذكرتها السيرة ، ويبدو أن ثروة السيدة خديجة قد حلّت عنه بعض العباء . المؤلف

فأي مداع ، وأي زاد روحي أو عقلي اصطحبه معه في تلك العزلة ، التي انطلق منها بعد خمسة عشر عاماً الشاعر القرآني ؟ ..

إننا نعلم عن هذا العصر أن العادات الوثنية في المجتمع الجاهلي كانت قائمة على أساس قديم من التوحيد التقليدي ، الذي ينعكس بوضوح في خطبة أبي طالب ، ولكن هذا التوحيد اللاشعوري لا يستتبع أية شعائر خاصة . فإن الكعبة كانت على وجه الخصوص معبداً للأصنام ، أو مسراً سياسياً للأسر السائدة ؛ أما فيها يتعلق بالحياة الدينية في مكة ، فقد كانت منذ زمن طويل منظمة تبعاً لوحدة قبيلية ملقة ، تجعل (هيل واللات والعزى) على رأس مجموعة آلهة القبائل العربية كلها ، ولكن الأسر الكبيرة في مكة - بفضل التأثير السياسي والتجاري - قد استمسكت فوق هذه الوحدة الوثنية الملقة بوحدانية غامضة ، تتعكس في الذكرى التي حفظوها باعتزاز وفخر لجدهم البعيد (إيماعيل) ، وعلى كل فإن هذه الذكرى لم تكن لتأثير مطلقأً على عقائد العرب ، أو تقاليدهم الحربية ، وهذا يفسر لنا الصراع القاسي الذي سينشب بين المتسكين بهذا النظام الجاهلي ، وبين الإسلام الوليد .

وحتى أبو طالب ، ذلك الشيخ القرشي الوقور الشريف الذي ذكرنا كلماته الكريمة المذهبة في خطبته ، مات دون أن يكفر بالأصنام ، على الرغم من توصل ابن أخيه إليه وإلحاحه عليه .

تلك كانت الفكرة الغامضة التي تسفي لنبي المستقبل أن يصطحبها في عزلته عن دين جده إبراهيم ، ومع كل فيجب أن نضيف أن هذا الدين قد ظل في حالة أصفى عند بعض المتصوفة الذين كانوا يسمون في ذلك العصر « الحنفاء » ، وهؤلاء الحنفاء كانوا رجالاً من طراز نادر ، تركوا وثنية عصرهم لكي يعكفوا على عبادة إله واحد ، لكن حياة التصوف التي عاشها هؤلاء النساك لم يصحبها أي نظام

خاص ، أو شكل من أشكال الطقوس ، وبالأخر لم يكن لهم أي اتصال روحي بطائفة من أهل الكتاب ، فإن مصادر العصر التاريخية لا تصف أية كنيسة في مكة ، أو أي كنيس أو دير في ضواحيها ؛ لقد انسحب الحنفاء فقط في أماكن منعزلة ، دون أن يقطعوا صلتهم تماماً بالمجتمع ، ولم تكن لهم طريق في تصوفهم سوى أنهم كانوا يمارسون الزهد أو التخلية عن الدنيا ، مما يدل على سمة الصحراء وطابعها في نفوسهم .

والزهد يتجلّى في الواقع في قناعة البدوي الذي تقع ثروته دائمًا تحت رحمة مجاعة وقطط ، أو غزو من القبائل المجاورة ، وفي الكلمات التي نطق بها أبو طالب نفسه - بمناسبة خطبة (النبي) عن الماتع الذي لم يكن سوى وديعة تسترد آجلاً أو عاجلاً - تتجلّى روح الصحراء أكثر من روح الدير .

إن سلوك الحنفاء الصوفي لم يمتد نحو الأخلاق المسيحية ، أو الشريعة الموسوية ، بل كان نظاماً فردياً فطرياً بسيطاً ، نجد مثاله الخلقي الصافي في أشعار قس بن ساعدة ، فهو - على فرض نصراناته كما يقولون - لم يترك للتاريخ سوى أبيات رائعة تمثل عبقرية الصحراء الصافية .

وكان الطابع الإبراهيمي - فيما يبدو - ظاهراً بقدر في البيئة الجاهلية ، في ذلك العصر ، إذ كان يظهر هنا وهناك حنيفي . ولكن هذا الطابع كان تقليداً عربياً محضاً ، لا يمت بصلة إلى التفكير اليهودي المسيحي الذي كان تياره الروحي ، قد نشأ قبل ذلك بزمن طويل مع الحركة النبوية الإسرائيلية الأولى ، أي مع موسى .

وحتى في زمننا هذا ، وبعد ثلاثة عشر قرناً من الثقافة الإسلامية التي طبعت روحاً على العقل العربي الصحاوي ، نجد أن الأدب الكتابي (أدب الكتب المنزلة) لم ينتشر مطلقاً ؛ وكثير من المسلمين في شمالي نجد ما زالوا يجهلون

تاریخ هذا الأدب اليهودي المسيحي^(١) .

وعلى هذا فليس من المنطق أن نفترض في الحنفاء معرفة أوسع من معرفة معاصرينا عن تيار الفكر ، وتاريخ الوحدانية .

فمن السهل أن نتصور بأي زاد زهيد ، وبأية أفكار مألوفة ، وبأي قصد عادي اعتزل النبي عليه السلام المجتمع بعد زواجه ، تماماً كما كان يفعل حنفاء عصره . ومع ذلك فمن المفيد أن نوضح أن الأحوال التي ذكرناها تكون أصدق في حالته بقدر ما كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فلم يكن ممكناً حصوله على أية معلومات مكتوبة .

وذلك مع ذلك ملاحظة مسببة ، إذ قد انعدم المصدر المكتوب نفسه في وسط هذا النبي الأمي كما سيتضح فيما بعد .

والآن ، ما هي المعلومات التي لدينا عن عزلته خمسة عشر عاماً؟ .. إننا إذا نخينا بعض التفاصيل المتصلة بحياته الزوجية والعائلية ، فلن ندرى شيئاً مما يتصل بتنظيم حياته الروحية في ذلك العصر .

فهل كان يفرق في تأمل عمق في المشكلة الدينية يقوده نوع من إلهام الدعوة المستقبلة؟ ..

لقد أجاب المستشرق الكبير (درمنجهام) عن ذلك بالإيجاب ، ولكن هذه الإجابة فيما يبدو لنا لا تعدو أن تكون تخلياً من المؤلف ، لم يعتقد فيه - كما يظهر في تلك النقطة - على شهادة تاريخية غير قابلة للطعن والتجريح ، وهي شهادة القرآن^(٢) ، فإن هذا الكتاب يصور لنا في رجعة إلى الماضي حال الفكر عند الرسول قبل الوحي ، في قوله تعالى :

(١) (رزوان Raswan) دراسة اجتماعية .

(٢) باعتبار القرآن في هذا السياق مجرد وثيقة تاريخية .

﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونُنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴾ [القصص ٢٨ / ٨٦] .

فهل معنى هذا إلا أنه لم يكن لديه أدنى أمل في أن يقوم بدور في دعوة من أجله هو ، لا قبل عزلته ولا خلاها ، ومع ذلك فهذا هو المعنى النفسي للأية ، الذي غابت أهميته التاريخية عن الأستاذ (درمنجهام) ، مع أنه لم يرتب مطلقاً في صحة القرآن التاريخية .

وفضلاً عن ذلك فيجب أن نذكر أن تفسيراً كهذا ليس مرتبطاً إلا بشرط واحد ضروري وكاف ، هو الإخلاص المطلق عند النبي ﷺ ، وهذا على وجه التحديد هو هدف هذا المقياس ، لكي نرى في القرآن اعتقاداً على صفتة التاريخية الأكيدة ، مرأة للماضي ، أو شيئاً أشبه بمرأة عاكسة يمكننا أن ندرك فيها - بطريق العكس - الأطوار المختلفة التي مرت بها الذات الحمدية خلال تاريخها ، فنرى في الآية المذكورة الصورة الصحيحة لحالة النفس عند (محمد) أيام غار حراء . وإن فليس هنالك من سبب لأن تنسب (للصادق الأمين) نية مبيتة للتأمل في مشكلة ميتافيزيقية لحظة تهيئه للانسحاب والعزلة بعد الزواج ، ولوسوف تدعم نتائج المقياس الحالي هذا الحكم المسبق . ومع ذلك فهناك نقطة غامضة هي أن المؤرخين المحدثين يعجبون من أن السيرة ليس لديها غير القليل من المعلومات عن هذه العزلة التي تعد مرحلة رئيسية - من الوجهة النفسية - بالنسبة لتاريخ الدعوة المستقبلة .

ولسنا نملئ في الواقع غير القليل من التفاصيل عن هذا الموضوع ، ولكن هذا لا يثير عجبًا ، فإن التاريخ لا يستطيع إلا أن يتبع آثار نبي المستقبل في ذاكرة معاصريه ؛ والواقع أنه قد توارى واختفى عن أعين الزمان ، لكي يبقى خلال خمسة عشر عاماً معزلاً مكة ، أو معزلاً غار حراء .

ونحن نجد في تحفظ التاريخ في هذه النقطة برهاناً على أن السيرة المتهمة أحياناً بالبالغة - على العكس من ذلك - على جانب كامل من التحوط والحذر ، عندما تنعدم لديها التفاصيل التاريخية .

ونحن مضطرون لنقص هذه التفاصيل لدينا أن نلجأ إلى المراجع والوثائق النفسية التي يقدمها القرآن ، يدفعنا إلى ذلك اطراد ذات النبي ، وتشابه تصرفاتها خلال مراحل حياته جميعاً ، منذ مشهد زواجه الذي أتاح لنا أن نجمع بعض المعرفة الموضوعية عن تلهم (الذات) .

وكل ما في الأمر أن هذا الرجل الذي اختفى من مسرح التاريخ خلال خمسة عشر عاماً ، سيظهر على هذا المسرح خلال ثلاثة وعشرين عاماً لكي يعيش ويفكر ويتكلم ويعمل في رابعة النهار ، أكثر من أي وقت مضى .

والواقع أننا نعلم فيها يتصل بالمرحلة القرآنية كل التفاصيل ، حتى التافه منها عن حياته الزوجية ، بفضل هذه السيرة التي كانت صامتة منذ هنีهة ، فمن الممكن أن تتجلى الخطوط الأساسية لعزلته ، من مراجع حياته اللاحقة . والرسول ﷺ نفسه هو الذي أشار فيها بعد إلى طريقة في استخدام وقته ، فهو يقول في حديث له : « وعلى العاقل مالم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات . ساعة ينادي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتذكر فيها في صنع الله ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب ، وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لعاش ، أو لذة في غير حرم ^(١) ».

فإذا نحن قررنا اطراد الذات الحمدية ، فها هو ذا برنامج الحياة المرسوم الذي يجب أن يتبعه ، ولا سيما في مرحلة عزلته .

(١) رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم . وقال صحيح الإسناد عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه . (المترجم)

وفضلاً عن ذلك ، فإن العادات تثبت خاصة لدى المراهق لكي تتعكس
بالتالي على جميع حياته . وكذلك الحال على ما نعتقد فيما يخص النبي ، كما تدل
عليه ملاحظة زوجه عائشة حين أثارها الاهتمام بصحته ، من قيامه الطويل
بالليل في صلاة النافلة^(١) ، لقد كانت حقاً عادة ثابتة عند النبي منذ زمان
عزلته .

وعليه ، فإذا كان النبي يخصص جانباً كبيراً من وقته للصلوة ، بينما تلح عليه
هوم التفاصيل المادية لرسالته ، فلقد كان عنده من الفراغ ما يسمح له
بالاعتكاف عندما لم يكن لديه ما يشغلة من تفاصيل الحياة المادية وال العامة .
فلا موضع إذن للدهشة حين لا نجد غير قليل من الوثائق عن هذه الحقبة
من حياته ، التي كانت بصفة موضوعية بدون تاريخ .
ولم يصل صدى هذه العزلة إلى العالم الخارجي ، إلا حوالي نهاية هذه
الحقبة ، مع الخبر المثير لظهور النبي المنتظر .

☆ ☆ ☆

العصر القرآني

المرحلة المكية

إن مهداً (عليه السلام) الآن في الأربعين من عمره ، إن الستار يرتفع من جديد
عن تاريخه ، ولكننا نجده في أزمة أديية عميقة .

(١) في رواية البخاري « وقللت عائشة رضي الله عنها : كان يقوم حق تقطر قدماه (تتشقق) »
وفي حديث آخر عن المغيرة رضي الله عنه أنه قال : « إن كان النبي عليه السلام ليقوم أو ليصلح حق
ترم قدماه أو ساقاه ، فيقال له ، فيقول : أفلأكون عبداً شكوراً ». (المترجم)

فمنذ خمسة عشر عاماً لم يكن محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) سوى حنيفي بسيط يقسم وقته حسب كلامه هو ، بين عبادة الله والتأمل في جمال صنعه .

إن السماء العميقية التي تغطي بقبتها الزرقاء المنظر الملتهب لجبل النور ما تزال تجذب مقلته ، كما كانت تجذب مقلة الطفل أمام فساطط مرضعته . ولكن مهداً (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ليس عقلاً منهجياً يبحث عن نظرية في الكون واتساقه ، ولا هو فكر مضطرب يبحث عن طهانينته ، فإن طهانينته متوافرة لديه دائماً ، وخاصة منذ اعتزاله ، فهو يؤمن إيمانه بـ إله واحد هو رب إبراهيم .

فنلاحظ فيها يبدوا لنا أن يرى النقد الحديث - ولا سيما الأستاذ (درمنجهام) - في هذا العصر مرحلة من البحث والقلق ، أي نوعاً من إرادة التكيف وخلق الفكرة عند النبي ، بل على العكس تماماً تبرهن وثائق العصر على أن المشكلة الغيبية لم تساور ضميرة . فقد كان عنده حلها ، وجزء من هذا الحل إلهامي وشخصي . وجاء آخر موروث لأن إيمانه بإله واحد إنما يأتيه من الجد البعيد (إسماعيل) .

هذه الملاحظة أساسية لدراسة الظاهرة القرآنية بالنسبة للذات الحمدية كما تصورها لنا في الواقع تفاصيل التاريخ .

ويحسن أن نبين خاصة أن أي اهتمام شخصي لا يتدخل عند هذا التأمل المعزول الذي لا تعنيه المشكلة الدينية ، إنه بحث عن مجرد سلوك أخلاقي ، على طريقة نساك الهند ، أو متصوفة الإسلام ، أكثر من أن يبحث عن دعوة ؛ فبين ذاته والواقع الغيبي الذي يتأمله لا يمكن أن تقرر . فيما يخص هذا العصر على الأقل - ربط فكرة مقصودة ، وليس هذا مجرد تقرير ، بل هو بيان لحالة هذه الذات التجاوبية مع سائر الظروف النفسية الأخرى ، كما تتراءى في سيرة النبي وفي شهادة القرآن على ماضيه .

ومع ذلك ففي حوالي الأربعين نجده وقد شمله المم والألم أيضاً ، أنه يشك ! ، إنه لا يشك في وجود الله ، فإن ثقته فيه لم تتزعزع أبداً .
ولكنه يشك في نفسه هو !

فكيف ، ولماذا ورد هذا الشك على نفسه ؟ لماذا يجد الآن ظل شخصه في حقل تأملاته ؟ ولماذا يجد طيف ذاته يتواجد على أعماق نظراته الدينية ، حتى ليصبح تقريراً فيها نقطة الارتكاز ؟

والسيرة المهمة بالتفاصيل التاريخية عن حياة النبي ﷺ لا تقدم أية معلومات عن هذه الحالة النفسية الهمامة أيضاً . ولكن لدينا مع ذلك في الآية المذكورة من قبل ، وفي تعقيبه على خديجة عندما فاحتته في أمر الزواج ، الإجابة على المشكلة التي تواجهنا بها حالة النفس ، التي نجده فيها في نهاية اعتزale .

وعلى الرغم من أن الآية وتفصيل السيرة المذكورة لا يفسران لنا ماهية الشك الحمدي ؛ فإنها يشهدان بأن هذا الشك ليس ناتجاً عن أمل أهوج ، أو جنون بالذات ، أو تضخم في تلك الذات عند (محمد) عليه الصلاة والسلام .

فنحن مضطرون إلى أن نرى في هذا الشك نتيجة حالة شخصية عارضة ، وجد فيها النبي نفسه فجأة أمام مبادئ شعور ، وأمام استشعار لبعض الأشياء الغريبة تمس من قريب مصيره الخاص .

فإلام يعزى هذا الإحساس الذي يطوف الآن في أنحاء نفسه ، وهو يخز بصورة مؤلمة طبيعة فكره الموضوعية ؟ هل كان ذلك مجرد حركة للاشعور ، أو إهاماً بخل قريب وغير عادي للمشكلة ؟

إن بعض الفصائل الحيوانية تلهم الطوارئ والاضطرابات التي تصيب مساكنها عما قريب ، فهذا النل الأمريكي يغادر مساكنه قبيل اندلاع الحريق

فيها بليلة ، وفي جنوب قسنطينة نوع من الحيوانات القارضة يبرح أرضه في مسارب الأودية قبيل الكوارث الطبيعية .

فهل كان عند النبي ما يشبه هذا الإلهام ، أي التنبؤ بالظاهرة القرآنية التي ستلبه وتفجر وجوده كله ؟

فلو قلنا إن ذلك من عمل اللاشعور، فيجب أن نطبق هذه القاعدة على تفسير مادة القرآن كلها وتفسير فكرته المتصلة ، كان تفسر بها أيضاً أعراض الظاهرة وظوارئها عند النبي ، ولكن هذا - كا سنشير إليه فيما بعد - ليس أبداً ممكناً.

ومع ذلك فإن النبي سيكشف زوجه الحانية بهمومه ، ويشكو لها ببرارة ، إذ يظن بنفسه الجنون والمس ، ويرى أن سحراً مشؤوماً قد أضرَ به . ولكن خديجة الفاضلة تواصيه وتهدي روعه قائلة :

« والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكتب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نواب الحق ». .

وفي هذه العبارات التاريخية تظهر لنا بطريقة لا تحتمل الجدل فكرة « الإله الواحد » تشيع في الوسط العائلي لمحمد عليهما السلام حتى قبيل دعوته .

وهذه الملاحظة تتيح لنا أن نستنبط من مراجعنا اقتناع محمد (عليهما السلام) الشخصي في هذه النقطة خلال اعتزاله ، وهي تضيف تفصيلاً أساسياً للصورة النفسية التي نرسمها له .

وعلى كل حال فإننا نجد النبي بعد هذه التهدئة يستأنف طريقه إلى عزلته . ويهاجمه الشك من جديد ، ويسيطر عليه الاضطراب الشديد ، الذي يطبع أحواله النفسية في ذلك العهد ، وهو يحتاجه الآن أكثر من ذي قبل ، لأنه يشعر (بحضور) أشبه بظل يطوف حوله .

إنه يخرج من عزلته ، يذرع تلك الدروب الملعوبة في جبل النور ، وهو يضيق بذلك المجهول الذي يشعر به معلقاً في نفسه ، ولا حول له ولا قوة إزاءه ؛ هاهو ذا مشرف على واد ، يرى مخرجاً من مأساته في أعماق الهاوية ، فيكاد يستسلم لفكرة المغلبة عليه ، ويخطو خطوة إلى الأمام ، ولكن صوتاً أسرع من إيماته يوقفه : « يا محمد ، أنت رسول الله حقاً » فيرفع رأسه ليري الأفق مشعاً يتلألأً نوراً ، فينقلب مذهولاً حيراً ، دون أن تزايلاً الرؤية ناظريه . إنها في كل مكان وفي جميع الأركان فيرتعد منها فزعاً حتى يذوي إلى الأرض ، وحين يفيق يعود إلى مكة ، حيث يجد هنالك موضع سره العطوف ، فتفاجأ بمنظره المخزن وبحالته الحمومية ، وهو الذي تراه دائماً مهتماً بنفسه ، لا يغفل أي تفصيل في هندامه ، هاهو ذا الآن بشعره الأشعث ووجهه المتقطع وملابسه الغبرة ، ولكن خديجة الحانية تتغلب على جزعها وترعنى زوجها ، وبكلمات حانية رقيقة تدخل السلام إلى نفسه الذاهلة ، فيأخذ طريقه إلى جبل النور .

وهاهو ذا الليل يخيم على عزلته في غار حراء ، حتى إذا نام أحس بحركة في لا شعوره توقفه ، إنه يشعر بحضور ، وهو يلمح أمام عينيه الآن رجلاً متسلحاً بلباسه الأبيض .

إن المجهول يقترب منه ثم يخاطبه قائلاً :

- « اقرأ » ..

- ما أنا بقارئ ، قالها وهو يحاول الابتعاد عنه ، والهرب من ذلك الذي يأخذه فيفطه حتى يبلغ منه الجهد ، ثم يرسله قائلاً :

- اقرأ ... فيجيب محمد مرة أخرى :

- ما أنا بقارئ .

فيكرر مرة ثالثة ذلك الشكل الروحاني الذي سيكون منذ الآن الزائر الملائم للنبي .

- اقرأ ... ﴿ اقرأ باسم رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلْقٍ ، اقْرَأْ وَرَبِّكَ الْأَكْرَمَ ، الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمَنْ ، عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق ١ / ٥ - ٦] .

كانت هذه الآية بالنسبة للنبي ، وللتاريخ المرة الأولى التي تظهر فيها (الظاهرة القرآنية) التي ستنضم بين دفتيرها الثلاثة والعشرين عاماً الأخيرة من حياة النبي .

ومن هذه اللحظة أصبح لدى النبي الأمي شعور « بأن كتاباً قد طبع في قلبه » ^(١) ولكن لم يكن له أن يتضمنه كما يشاء ، ولا أن يطلع عليه كما يهوى ، إذ أنه سيوحى إليه كلما دعت حاجة الرسالة .

ولقد يتأخر الوحي ويبطئ ، حتى عندما تلح إحدى الحالات العاجلة : ولتكن حالة اتخاذ قرار ، أو سن تشريع لمناسبة معروضة على النبي .

ولنذكر إحدى هذه الحالات : ففي بدء الرسالة ، وعلى وجه التحديد بعد الوحي الأول الذي رويناه ، انتظر النبي زمناً طويلاً ، أكثر من عامين ، قبل أن يرى للمرة الثانية زائره الغريب ويسمع صوته . لقد يئس منه ، وأخذ الشك يستولي مرة أخرى على نفسه التواقة إلى اليقين ، فهو يعتقد أنه إما أن يكون قد خدع في جوارحه ، وإما أن القدرة قد تخلىت عنه ، تلك التي اعتقد حيناً أنها هي التي تقوده .

(١) في السيرة الخلبية ج ١ ص ٣٢٨ نص يوم بهذا المعنى « فكأنما كتب في قلبي كتاباً » ويعتقد أن يكون معناه على المصدرية . (المترجم)

هذا القلق مؤلم لنفسه ، وإنه ليتسرب إليها كأنه حية تطوق فكره ومشاعره ، فتحطم بضغطها طموح هذه النفس المتأصل إلى اليقين الصادق .

ومرة أخرى : لحظات مؤلمة ، ودقائق مؤثرة بالنسبة لحمد ، ذلك الذي يبحث مستيئساً في نفسه وفيها حوله ، عن المنبع الخفي الذي تدفقت منه الآيات الأولى من القرآن ، وإنه لدعاء حزين لنفس موجعة ، وضيق أضناه القلق ، دعاء إلى صوت لا يجيب ، أو لا يريد أن يجيب ، فقد التزم الصمت خلال أكثر من عامين .

وإن فكر (محمد) عليه السلام ليحاول مناقشة حالته الفريدة ، دون أن يجد لها تفسيراً ، فهو يغرق في الإعياء ، وقد هذه ما يعانيه من التوتر العصبي ، لقد كان يتغافل كأنه شيء خامد سقط في النوم .

ولكن خديجة - الملائكة الحارس - كانت تسهر عليه .

وينام (محمد) بعد نوبة من نوبات الانهيار العميق ، وكانت زوجه بكلماتها المتلئمة بالخنان الأمومي قد كفكت منذ لحظات أزمته ، بعد أن دثرته في عباءته ، وطلبت إليه أن يستريح . نام نوم الطفل الذي أعياه البكاء ، وملأ قلبه الشجن ، فهذا بدوره قلق الزوج العطوف ، حين لست من النائم أنفاسه المهدئة ، فخرجت بخفة حتى لا توقظه .

ولكن صوت حراء يرن فجأة في أذني النائم فيهب كأنما مسته الحمى ...
﴿ يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ﴾ [المدثر ١ / ٧٤ - ٣] .

لقد أصقته النداء وأضناه مرة واحدة ، إذ أن هذه المباغة جعلته يدرك فجأة أهمية الأمر الذي تلقاه ولم يكن يتظاهر .

لقد وجدته خديجة جالساً ، غارقاً في تأملاته ، فدفعتها الدهشة من استيقاظه إلى أن تسؤاله : « لم لا تنام يا أبا القاسم » ؟ .

فيجيبها ... : « انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرني جبريل أن أذر الناس ، وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته ، فمنذا أدعو ؟ ومنذا يستجيب ؟ ... » .^(١)

وكان حل الأزمة الأولى عند النبي بصورة غير متوقعة ، فإن حل هذه الأزمة يبدو أنه قد فاجأه أكثر من ذي قبل ، وبعبارة أخرى أرهقه ، وإن مفاجأته في المرة الأولى للوحي ، وعناهه وعجزه هذه المرة أمام هذا التكليف غير المتوقع ، الذي تلقاه في صورة أمر ، ليسجلان في نظرنا حالتين نفسيتين ضروريتين خاصة لدراسة الظاهرة القرآنية بالنسبة للذات الحمدية .

وبوسعنا أن نذكر أن موقف هذه الذات بين الأزمتين وبين حل المشكلة ، لم يكن مطلقاً مطبوعاً بأمل القيام بدعاوة ، ولكنه كان يبحث فقط عن فضل لمسه من الله منذ الوحي الأول .

ولنا أن نذكر أيضاً أنه فيما يتعلق بفترة الوحي كان جهد محمد اليائس مجرد محاولة لاسترجاع ما فاته من فضل الله .

ونحن نرى أن هذا الجهد يؤكّد في الواقع بصورة قاطعة استقلال الظاهرة القرآنية عن ذات موضوعنا (النبي) .

وما كان لنا بداعه أن نقرر أن الحل الثاني للأزمة النفسية يمكن أن يتّأخر لو كان مصدره هو (اللاشعور) ، لدى إنسان لم يسع إلى إخاد الظاهرة وكتبها في نفسه ، بل إنه على العكس قد وجه كل إرادته وكل وجوده لتسهيل ظهورها .

(١) هذا الخبر غير موجود في كتب الحديث (ف) وفيها لدينا من مراجع السيرة . وإن كان قد ورد في كتاب (حياة محمد) وفي كتاب (أزواج النبي) دون أن ندرى لمؤلفيها مرجعاً . (المترجم)

هذه التفاصيل النفسية تبرز تماماً العزم النهائي عند محمد على قبول دعوته ،
بوصفها تكليفاً يأتيه من أعلى .

إنه يقبلها في الواقع ، ولن يتخلّى عنها أبداً ، حتى ولو تعرض فيها بعد
لسخريّة أطفال مكة ولو آذاه وأنذرها ، وفتك به سادة قريش كأبي هب وغيره من
المرتكبين .

لا شيء سيرغّبه على التخلّي عنها ، لا المصالح المضيّعة لأسرته ، ولا توسّلات
عنه الوقور أبي طالب ، عندما يضغط عليه أشراف مكة كيما يضع حداً
(لفضيحة) ابن أخيه ، ولا اقتراهم عليه أن يتولى أسمى منصب في إدارة
المدينة ، هذا كله لا يحول الرسول عن طريقه الثابت إلى الأبد منذ حل الأزمة
الثانية .

وعندما جاءه عه لكي يفّاتحه في أمر قريش ، واضعاً تحت نظره الإجراءات
القاسية التي رسموها في حالة ما إذا رفض عروضهم ، أجابه وقد دمعت عيناه :
« والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر
ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وأمام هذه العزيمة الخارقة لم يتالّك ذلك العجوز إلا أن يطمئن ابن أخيه
بحمايته حتى النهاية .

فقررت قريش نبذ (محمد) وذويه من المجتمع ، وكتبوا بذلك صحيفة علقت
في جوف الكعبة .

ولقد حرمت الأسرة المفجوعة بهذه المقاطعة من كل علاقه مع المدينة ، حتى
من التعامل الأدبي ، أو الزواج من الأسر الأخرى .

وتذكر السيرة أن هذا الميثاق قد أكلته الأرضة ، وأن النبي قد رأى ذلك
الظاهرة القرآنية (٩)

مناماً قبل حدوثه ، وبذا راجعت قريش مسلكها ، وسحبت قرار المقاطعة .

وأياً ما كان الأمر ، فإن هذه الصحيفة الظالمة المقاطعة ، كانت قد سقطت قيمتها بمرور الزمن ، وعاد بنو هاشم والمطلب من جديد إلى مكة بعد محن طويلة مهلكة . فعاد النبي يبلغ دعوته في صحن البيت الحرام ، ولكن سادة قريش كانوا قد دبوا (مؤامرة صمت) حول دعوته ، فكانوا يمنعون الناس من الاستئناع إلى تلاوة القرآن .

ورأى النبي ﷺ أن الناس لا يقبلون على دعوته ، فقرر أن يحملها إلى مكان بعيد ، إلى الطائف ، لكنه لاق هواناً أقسى ، ومعاملة شريرة في سبيل مهمته ، فلقد رماه الناس بالحجارة ، وبيتوا الأشواك في طريقه ، وأغروا به الأطفال والعبد يسخرون ويستهزئون ، فلجأ (الداعية) إلى حائط يحتمي به ، دامي القلب من غباؤه القوم وشراستهم ، ولكن نفسه كانت لا تعرف الحقد ؛ لقد كان كل ما فعله أن رفع عينيه إلى السماء ، وهو يتم بدعاء كله حرارة وخشوع وحب ، لا يمكن للنفس الإنسانية أن تصرح بها لحظة كرب كهذه :

« اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهوانني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلني ؟ إلى عدو يتجهمني ، أم إلى قريب ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، لكن عافيتك أوسع لي ؛ أعود بنور وجهك الذي أشرقت من أجله الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تحل بي غضبك ، أو تنزل عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وعقب هذه الصدمة القاسية رجع النبي إلى مكة ، ولكن محنـة أخرى كانت تنتظره هناك .

إن الموت ينزع منه حاميه الوحيد عه أبي طالب^(١) .

وسيترك لنا مشهد النزع والاحتضار تفاصيل تاريخية ثمينة بالنسبة لصورة (رسول الله) النفسية في هذه الحقبة ، فلقد كانت هذه في الواقع بالنسبة له أخطر لحظات مهمته التي اختلط فيها الحنو البني بـ النبي لإنقاذ نفس عزيزة ، ترفض النجاة في صلف ومكابرة ، فإن ابن الأخ ليهوله أن يموت عمه مشركاً .

وهي لحظة مفزعـة له ، إذ يتـشـلـ فيـ شـخـصـهـ وـيـتـحـدـثـ عـلـىـ لـسـانـهـ النـبـيـ الذـيـ يـتـفـنـىـ أـنـ يـنـقـذـ مـنـ كـانـ لـهـ نـعـمـ الـأـبـ .ـ هـاـ هوـ ذـاـ صـوـتـ المـخـتـرـ العـجـوزـ يـتـقـطـعـ فـيـ الشـهـقـاتـ الـأـخـيـرـةـ ،ـ فـتـضـرـعـ إـلـيـهـ دـوـنـ جـدـوـيـ أـنـ يـقـرـ بـالـإـسـلـامـ ،ـ وـلـكـنـهـ يـسـتـجـمـعـ قـوـاهـ الـمـتـفـانـيـةـ لـيـقـولـ :ـ «ـ وـالـلـهـ يـاـ بـنـ أـخـيـ لـوـلـاـ مـخـافـةـ السـبـةـ عـلـيـكـ وـعـلـىـ بـنـيـ أـيـكـ مـنـ بـعـدـيـ ،ـ وـأـنـ تـضـنـ قـرـيـشـ أـنـيـ إـنـاـ قـلـتـهـاـ جـزـعـاـ لـأـقـرـتـ بـهـاـ عـيـنـكـ ،ـ لـمـ أـرـىـ مـنـ شـدـةـ وـجـدـكـ »^(٢) .

وانتاب ابن الأخ ألم مبرح ، وهو يرى عمه العزيز يغادر الحياة دون أن يغادر وثنية أبيائه .

هذا المشهد العائلي الرهيب ، بين عجوز مشرف على الموت ، وابن شجاع الهم والقلق ، وغرتـهـ اللـهـفـةـ وـالـإـشـفـاقـ ،ـ يـكـشـفـ فـيـ إـحـدـىـ الـلـهـظـاتـ الـخـامـسـةـ عـنـ إـخـلـاصـ النـبـيـ المـطـلـقـ .

ولكن خسارة أخرى أشد إيلاماً ، تحدث قريباً لغمـرـهـ حـزـنـاـ ،ـ فـبـعـدـ قـلـيلـ فـقـدـ (ـمـحـمـدـ)ـ (ـصـاحـبـتـهـ الـحـانـيـةـ الـفـاضـلـةـ)ـ .

(١) في رواية ابن الأثير نص على أن خروج النبي إلى ثقيف بالطائف ، كان بعد وفاة عمه أبي طالب ، وقد اشتد به الأذى ، وكذلك نص ابن الأثير على أن موت السيدة خديجة كان قبل موت أبي طالب بأيام تتراوح بين ثلاثة أيام وخمسين يوماً ، على اختلاف الروايات ، كذا في إمـتـاعـ الـأـسـعـ صـ ٢٧ـ .

(٢) السيرة الخلبية ج ١ ص ٢٥٠ .

هذه الفجيعة المزدوجة مسته وأثرت عليه في أعمق مشاعر الإنسان ، وأصابته بالقدر نفسه في مصلحة دعوته ، فقد فقد بفقده عمه وزوجه العضد الأدي واللادي الذي كان يؤيده في مكة ، وفضلاً عن ذلك فإن إقامته ستصبح في الحال مستحيلة ، فإن قريشاً التي كانت مهابة أبي طالب تفزعها قد انطلقت الآن من عقلاها ، ورأت أن الوقت قد حان لتدبر مقتل النبي لإنقاذ مصالحها السياسية ، وامتيازاتها التجارية بين القبائل العربية^(١) .

لقد حيكت مؤامرة ، تشارك فيها القبائل جمِيعاً ، حتى لا يقع دم الضحية على عاتق قبيلة بعينها .

المرحلة المدنية

بينما كانت مكة تتأمر ضد رسول الله ﷺ ، كانت المدينة على العكس من ذلك تهیئ له استقبالاً حماسياً حافلاً .

وكانَت بيعة العقبة - ميثاق النبي مع رجال المدينة الملقبين منذ ذلك الحين بالأنصار - وهـة النقيب مصعب بن عمير ، الذي عرف كيف يكسب للإسلام كثيراً من عواطف يثرب ، كان هـذا العاملان هـما اللذان مهدـاً للهـجرة .

وفي إحدى الليالي ، بينما كان المتأمرون يحيطون ببيت النبي ، خرج تحت أعين أعدائه ، دون أن يرـوه - كـما جاء في الخبر - ولقد نجـح في الوصول إلى ضواحي مكة برفقة صاحبه أبي بكر ، فلـجأ إلى (غار ثور) ، حيث كان على الدليل الذي اتفـقا معـه أن يـلحق بـها معـ نـوـقه حـامـلاً المؤـونـة فيـ يـوـمـيـن أوـ ثـلـاثـة لـتـضـلـيلـ المـطـارـدـين ، ولكنـ الرـجـفـةـ كانتـ قدـ أـخـذـتـ مـكـةـ سـاعـةـ رـحـيلـ الـمـهـاجـرـينـ ، فـقـامـتـ قـرـيـشـ عـلـىـ آـثـارـهـاـ .

(١) يذهب بعض ذوي الرأي إلى أن دافع المؤامرة كان أعم من هذا ، إذ كان في جوهره دفاعاً عن عقيدتهم التي سفهـا الدين الجديد . (المترجم)

إن من يعرف حياة الصحراء ، يدرك تماماً ضاللة الفرصة التي كانت أمام النبي وصاحب للنجاة ، ولقد بلغ القافية فعلاً مدخل الغار ، لكنهم لم يتجاوزوا عتبته ، وتقسر السيرة هذه الحادثة الغريبة بتدخل معجز لحامة ورقاء ولعنكبوت واهن .

وأية كانت وجة الأمر ، حتى لو كانت تعليقات السيرة قد أمكنها أن تتدخل في تفسير هذا الحل العجيب ، فإن القيمة التاريخية للحادثة ليست بأقل ثبوتاً ، فهي - في الواقع - مقررة في أوثق مصادر ذلك العصر ، وهو القرآن ؛ وقد ورد الحادث صراحة في قوله تعالى :

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمْ فِي الْغَارِ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحْبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرُوْهَا﴾ [التوبة ٤٠].

وواضح من هذا أن القدر قد يهد سبله بطريقة غير مفهومة أحياناً ، تغير المخاطر والعقول .

ونحن نرى لفائدة دراستنا هذه أن هم بالتفصيل النفسي في هذه الحادثة التاريخية ، ذلك التفصيل الذي تدل عليه سكينة النبي ، حين كان يطمئن رفيقه ، في هدوء يفوق طاقة البشر ، بينما الخطر والموت على قيد خطوات ؛ وإن إخلاص النبي الذي نؤكده في هذا المقياس الأول بوصفه شرطاً ضرورياً ، لاستخدام الآيات القرآنية وثائق نفسية ثابتة ، هذا الإخلاص يتجلى هنا بوضوح وبصورة روائية في تلك اللحظة الحاسمة .

وأخيراً ، فحينما انسحب المطاردون استطاع المهاجران أن يأخذا طريقهما إلى يثرب موطن الأنصار ، الذين أعدوا لها استقبالاً عظيماً ، وغيرت مدينة (يثرب)

اسمها فأصبحت (مدينة الرسول) كيما تخص نفسها تماماً للدعوة والداعية^(١) .

وعلى أسطح المنازل ، ترقب النساء والأطفال مقدم المهاجرين العظيمين ، واستهلووا العهد الجديد ، عهد الهجرة . بأنشودة ، ترددوا منذ ذلك الحين أجيال الإسلام :

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنَيَاتِ الْوَدَاعِ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَ اللَّهُ دَاعِ
أَيُّهَا الْمَعْوُثُ فِينَا جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمُطَاعِ

وبينما كانت هذه الأنشودة تنطلق من كل مكان ، كان المهاجرون والأنصار يعقدون فيها بينهم أواصر الأخوة الإسلامية ، أساس المجتمع الجديد والحضارة الجديدة .

ولكن ، كم من المشاكل التشريعية والدينية والسياسية والعسكرية سيواجهها هذا المجتمع الناشئ ؟ إن حل هذا الحشد من المشاكل هو الذي سيظهر فيه النبي ﷺ عبرية ذات رحابة لا مثيل لها ، مستهدياً بالوحى الذي يحيى ، حاملاً دائماً الشاعر العلوي والكلمة الأخيرة .

وسيكشف (الرجل) عن ذكاء عجيب ، وعن حكم على قيم الأشياء ، وعلى نفسية الرجال منزه تقرباً عن الخطأ ، كا يكشف عن إرادة لا يعترها الوهن . لقد تتبعنا حتى الآن خطواته داعيةً فحاولنا أن نفهم حركات قلبه ، وخلجات نفسه ، وأن نكتشف في إشاراته وفي دعوته الدلائل الناصعة على خشوعه وإيمانه وإخلاصه المطلق .

(١) أطلق رسول الله ﷺ على يثرب (طابة أو طيبة) حين نزلها في الهجرة ، وأطلق عليها (مدينة الرسول) في المناسبة نفسها وما تلاها (معجم البلدان لياقوت ج ٢ ط بيروت) . (المترجم)

وإذا كانت المرحلة المكية في جوهرها عهداً روحياً ، هو عهد النبي الداعية الذي يرشد المصطفين الأخيار ، فإن المرحلة المدنية استمرار للمرحلة الأولى ، ونتيجة زمنية لها في وقت واحد ، فالنبي والقائد سيتحدون الآن في ذات واحدة تدعوا وتقود جموع المؤمنين .

وإنه لمن الواجب حقاً أن يتبع فن قيادة المجاهير ما يتصل بنفسية الفرد ، فإن مشاكل مجتمع ما لا يمكن أن تحل بالأسلوب الرائق الرشيق فحسب ، ولذلك فإن الرسول سيتيح لنا أثناء شغله في حل تلك المشاكل جميعاً أن نكل صورته النفسية بظهر عقلي ، إذ عندما يضطرم نشاطه يمكن أن نفهم ألوان فكره ، وأن نقوم نسيج إرادته ، وأن نقدر قيمة حكمه على الآخرين وعلى نفسه أيضاً .

وإنه لزعم غريب أن نحاول الإحاطة بمحاذيب هذا المظهر العقلي جميعاً ، فذلك يستلزم أن نلم بتاريخ العبرية الفذة كله في الحدود الضيقة لهذا الفصل . بل إننا سنقتصر على أن نضع بعض المعالم التي تؤدي إلى النتيجة المقصودة من هذا المقياس .

سيكون شغل النبي الشاغل بالمدينة أن يقر فيها السلام ، ويخلصها من خصوماتها الداخلية ، ويصلح ما بين الأوس والخزرج ، لتنظيم دفاع فعال ضد الأعداء في الخارج : (قريش) .

إن ساعة الجهاد ستؤذن عما قريب .

ولقد كان هذا مثار دهشة وعجب لدى النقاد المحدثين ، فهم لا يفهمون أن (الداعية) يدعوا هكذا إلى حل السلاح ، ولكن إذا كان النبي قد حمل السيف فلأنه كان يعلم جيداً أن مكة لن تلقي السلاح ، وسيعطيه التاريخ على ذلك البرهان القاطع .

ولا مجال هنا لأن نعقد موازنة بين المسيحية والإسلام في هذه النقطة ، فإن الظروف التاريخية ليست واحدة ، إذ تواجه الأولى من الداخل دولة منظمة

تعظم أحجزتها ، على حين أن الإسلام يواجه دولة منظمة نوعاً ما من الخارج هي مكة ، فكان عليه أن يختار بين أن يحطمها أو يتعظم ، وفضلاً عن ذلك فإن هذه الظروف يفرضها مجرى الحوادث نفسه إذ أن الجهاد يعد من الناحية التاريخية نتيجة للهجرة .

هذه الظاهرة نفسها قد حدثت في تاريخ اليهودية ، عندما واجه بنو إسرائيل بقيادة موسى ويوشع من الخارج ، دولاً منظمة على شاطئ نهر الأردن .

فالرسول إذن سينظم صفوفه من أجل الصراع المسلح الذي سيفتح له أبواب مكة في السنة الثامنة من التاريخ الجديد ، ولكن كم سيعرض الدعوة من عقبات قبل هذا الموكب العظيم الذي يدوس ، يوم دخول المسلمين مكة ، ذلك الصَّلِفُ أبا سفيان ؟ إن مجموعة من الأسماء المهيبة ستتدوّي منذ ذلك الحين في أركان التاريخ العالمي :

بدر ... أحد ... الخندق ... حنين ..

لسوف تعرض الملحمـة الحمدـية آنذاك على شـاشـة التـارـيخـ مـجمـوعـةـ مـنـ الأـحـدـاثـ الأـسـطـوـرـيـةـ ، حـتـىـ كـأـنـهاـ روـاـيـةـ سـحـرـيـةـ . هـاـهـوـ ذـاـ حـلـمـ (آمنـةـ) الـقـدـيمـ ، عـنـدـمـاـ كـانـتـ تـهـزـ بـيـنـ أـحـضـانـهـ ثـرـةـ أـحـشـائـهـ ، وـعـنـدـمـاـ كـانـتـ يـخـيـلـ إـلـيـهـاـ أـنـهـ تـسـعـ صـهـيـلـ الـخـيـلـ وـعـدـوـ الـفـرـسـانـ وـقـعـقـعـةـ الـسـلـاحـ ، هـذـاـ حـلـمـ الـقـدـيمـ سـيـتـحـقـقـ الـيـوـمـ عـلـىـ صـفـحةـ الـوـاقـعـ .

وـفـيـ هـذـهـ الـمـلـحـمـةـ سـيـتـدـخـلـ الـقـائـدـ دـائـماـ لـكـ يـفـصـلـ فـيـ حـالـةـ دـقـيقـةـ ، وـلـكـ يـتـخـذـ قـرـارـاـ سـيـاسـيـاـ هـاماـ ، وـلـكـ يـضـعـ خـطـةـ اـسـتـرـاتـيـجـيـةـ ، وـلـكـ النـبـيـ هـنـاكـ دـائـماـ ، يـشـرـفـ عـلـىـ أـعـالـ الـقـائـدـ ، وـيـضـيـ قـرـارـاتـهـ مـنـ وـجـهـ نـظـرـ دـعـوـتـهـ ، الـقـيـ خـلـعـ عـلـىـ كـلـ تـفـصـيلـ فـيـ هـذـهـ الـمـلـحـمـةـ الـطـابـعـ الـرـوـحـيـ الـفـرـوـرـيـ الـذـيـ يـنـسـبـهـ إـلـيـ اللـهـ .

وـسـنـجـدـ (ـمـحـمـدـ) عـنـدـمـاـ سـتـدـقـ سـاعـةـ بـدـرـ ، بـعـدـ أـنـ يـكـونـ قدـ اـخـذـ أـهـبـتـهـ الـحـرـيـةـ الـكـامـلـةـ ، نـجـدـهـ وـقـدـ شـعـرـ بـخـطـورـةـ الـلـحـظـةـ الـتـيـ سـتـقـرـ مـصـيرـ إـسـلـامـ ،

وقد رأى التفوق العددي لأعدائه بالنسبة لحفنة الرجال التي يقودها ، نجده يرفع عينيه إلى السماء :

«اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض ، اللهم أنجز ما وعدت».

وهذه الكلمات البسيطة تدل بوضوح على أن (بدرأ) ليست معركة (كان)^(١) أو (استرليتز)^(٢) أو (سنغافورة)^(٣) .

ولقد كانت هذه الملحمة تتحرك بعقرية (محمد) القادرة ، وإرادته الخارقة ، متتبعة وثباته من نصر إلى نصر حتى حنين .

وإن عمق آرائه ليحير أحياناً صحابته أنفسهم ، فإن أول عمل دبلوماسي أمضاه مع مبعوثي مكة ، سيكون بالنسبة لبعض الصحابة موضع دهشة ومبثع عار تقربياً ، فلقد جاء الرسل من مكة لكي يصلوا مع النبي إلى أن يسلمهم من وقت توقيع المعاهدة كل مكي يأتي هارباً إلى معسكره ، إذ أن كثيراً من المؤمنين المستضعفين بكة سيئرون من اضطهاد قريش ، ويجئون لينشدوا الأمان في مدينة الأنصار .

ولقد وقع النبي ﷺ المعاهدة التي طبقت في الحال دون أن تكون ذات أثر رجعي ، وبذا هذا النص العجيب وكأنما قد أتاه ملكة نصراً دبلوماسياً ، تذمر منه المسلمون ورأوه فضيحة لهم . وفي اللحظة التي كان المبعوثون يتبادلون فيها وثائق التصديق ، تقدم هارب مكي إلى المعسكر الإسلامي ، فطالب به رسل مكة في

(١) معركة سحق فيها القائد القرطاجي هانيبال الجيش الروماني منزلأً بذلك الرعب في قلب روما في القرن الثالث قبل الميلاد .

(٢) معركة اكتسح فيها نابليون الجيش النساوي عام ١٨٠٤ م .
(٣) معركة تم فيها للجيش الياباني بعد هجوم هائل في شبه جزيرة مالقة استسلام القوات الإنجليزية التي كانت تدافع عن هذه القلعة عام ١٩٤٢ م .

الحال ، ولم يملك النبي إلا أن يسلم بالواقع ، مثيراً بذلك ذهول صحابته ، وأعيد الأسير ، ولكنه أثناء الطريق غافل القوم وهرب منهم ، وأوى إلى مكمن احتى به ، وبعد قليل انضم إليه كثير من إخوانه الذين هربوا مثله من الاضطهاد ، وإذا بهؤلاء الخارجين على القانون قد نظموا على الطريق نهباً لقوافل مكة ، فشلوا بذلك ، وفي زمن قليل ، تجارة المدينة القرشية كلها ، حتى إنها رأت أخيراً أن تتسل راغمة إلى النبي ليقبل المؤمنين الماربين إلى معسكره . وجملة القول إن النبي قد ظفر بجميع امتيازات المعاهدة التي بطل منها الشرط الوحيد القاسي ، أبطله المنتفعون به أنفسهم .

وهكذا بينما كان (النبي) يقود في سبيل الله (فيلق) الشهداء الذين اتبعوه ، كان (القائد) يلقن أبطال ملحمته أسمى دروس الدبلوماسية والاستراتيجية الحربية ، جاعلاً من المسلمين بهذا التوجيه المزدوج أعظم الفاتحين نزاهة ، في الوقت الذي يعدون فيه أكمل المستنيرين في التاريخ .

لم يصنع الرسول نفوساً مؤمنة تقية فحسب ، وإنما صنع عقولاً مستنيرة . وطرق إرادات فولاذية ، إنه يبني الشعور بالمسؤولية ، ويشعّب المبادأة في كل إنسان ، ويعظم الفضيلة في أبسط صورها ، وإن التأسي والمسارعة لها رائد كل عضو في الجماعة ، إذ يرى نفسه في سباق إلى الخير ، بحسب أمر القرآن .

وعندما قاد النبي أصحابه إلى (تبوك) كانت نيته تبدو أبعد كثيراً من هذا الهدف المتواضع ، فهو يعبر الصحراء العربية ، في حمارة القبيظ مضطراً رجاله العطاش ، الذين أضناهم التعب ، أن يستمروا في طريقهم دون أن يخطوا رحالمه عند (آبار مدين) .

لم يكن هذا من الفن الحربي فحسب ، ولكنه كان من التربية العالمية ، وإن هذا المسير الذي لم يسمع بمثله في منظره المائل ليكشف - زيادة على ذلك - عن

عملية تدريب بدني ونفسي في آن واحد ، لإعداد الجيش الإسلامي كيما يواجه عما قريب الأسفار والعقبات في جميع أرجاء العالم .

ولقد احتمل بنفسه كل المتابع التي فرضها على جنده خلال هذه الحقبة المضنية ، فهو مسير هائل ورائع سيوحي إلى (دينيه Dinet) بصفحة خالدة ، ارتبطت فيها عقريّة مصور الصحراء المبدع بنفس المؤمن المضطربة .

و (محمد) باعتباره (نبياً) يلتزم دائماً في سلوكه الشخصي الحقيقة المنزلة ، فهو يقوم جزءاً كبيراً من الليل متنفلاً ، ولكنه لا يلزم أتباعه بذلك .

وهو مع كونه (قائداً) ، لا يستأثر بأية ميزة دون صاحبته ، بل إن سلوكه الشخصي يعرفهم بحدود الجهد الإنساني ، فلقد كانوا يؤسسون في المدينة أول مسجد في الإسلام على نقوي من الله ورضوان ، ولقد كان النبي كأنه يحملون الأحجار على أكتافهم ، وكل منهم يحمل لبنة ، ولكنه يلحظ مؤمناً متواضعاً هو عمار بن ياسر يحمل كل مرة لبنتين ، فيخاطبه ليدزي حاسته قائلاً : « للناس أجر ولك أجران ^(١) » .

وهكذا كانت سائر المناسبات تتيح له أن يشجع أصحابه ويعملهم أيضاً . وهو لا يريده أن يدع شيئاً يشوب صفاء أصحابه أو يثني جهودهم الخالقة . إنه يقاوم الخطأ ، وخاصة عندما يأتي اعتباطاً بما يشبه المعجزة لتأييد دعوته ، فكأنه كان يهتم بأن يبعد عقول أصحابه عن (المعجزة الدارجة) التي تخاطب الجوارح .

ففي يوم دفن ولده الوحيد (إبراهيم) الذي رأه يكبر ، حدث كسوف كلي ، وفسر الناس الظلمات المفاجئة بأنها آية على مشاركة الطبيعة للنبي في حزنه ، ولكنه صحق في حزم خطأ أصحابه قائلاً : « إن الشمس والقمر آيتان

(١) الروض الأنف - الجزء الثاني ص ١٢ .

من آيات الله لا ينكسفان ملوت أحد ولا لحياته »^(١) .

هذا التفصيل التاريخي الذي ترويه السيرة ببساطة ، يثبت لنا إخلاص (محمد المطلق) ، ويرينا اقتناعه الشخصي لم يكن قائماً على شبه معجزة .

وعلى كل حال ، ففي ضوء وثيقة نفسية كهذه لا يمكن أن نعد هذا الاقتناع نتيجة استعداد عقلي غير سليم ، واتجاه منحرف لتفسير بعض الأحداث العارضة داخل الذات ، أو الخارج عنها بأنها آية علوية ، إن ممداً ذو فكر موضوعي ، لا يمكِّن إلى تأييد دعوته بغير معجزته الوحيدة : (القرآن) .

إن الملهمة الحمدية قد بلغت الآن أوجها ، ووصلت دعوة النبي إلى نهايتها ، وإنه ليستشعر ذلك . وهو يودع صاحبه معاذ بن جبل ويليه وصاياه الأخيرة ، وهو ذاهب إلى اليمين لينشر دعوة الإسلام قال : « لو حصل لي أن أراك يوماً فسأوجز لك ما عندي من الوصايا ، ولكن هذه هي المرة الأخيرة التي أحادثك فيها ، ولن نجتمع إلا يوم الحشر^(٢) ». »

ولقد كان لدى أبي بكر وعمر الشعور نفسه نحو النبي ، فلقد كانا يعتقدان أن أجل الوحي قد دنا ، وأن إشارة إلى نهاية النبي القريبة قد وردت في قوله تعالى :

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَوْجَأَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَاباً﴾ [النصر ١١٠ / ١ و ٢ و ٣] .

فمن كل وجه ، يبدو النبي مهتماً بدنو أجله ، وأنه يأخذ أهابته الأخيرة ، فهو يريد أن يلي وصاياه على الأمة ، واختار لذلك مناسبة عظيمة حافلة ، فأعلن عن رغبته في أداء فريضة الحج ذلك العام ، وغادر المدينة ومعه آلاف الحجاج ،

(١) رواه البخاري .

(٢) ليس لهذا الخبر أثر في كتب الحديث (ف) .

وانضم إليهم الحجاج الواردون من أنحاء الجزيرة إلى مكة ، وهنالك أدى النبي شعائر الحج كلها ، كأنه يريد تسجيلها إلى الأبد في ذاكرة معاصريه لتنتقل من بعدهم إلى أعقاهم ، ثم إنه صعد عرفات على ظهر ناقته ، وألقى خطبته الأخيرة ، خطبة الوداع ، واختير صاحب جهوري الصوت ليكررها للناس جملة جملة .

وفي غروب الشمس ، بينما كان شبحه الملق على قمة عرفات ، يبدو مرتحاً عن الدنيا ، كأنه يهار يتلاشى في الأفق ، كانت كلمات خطبته تصل الجموع كأنها تخلص إليها من صوت علوى ، وكانت الجموع المتأثرة الصامتة تنصلت إليه خاشعة متصدعة ، وأخيراً صاح النبي : « ألا هل قد بلغت ؟ » فأجابته الجموع الحاشدة ، التي بلغت قمة الانفعال ، في صوت واحد .. « اللهم نعم »^(١) .

وفي تلك اللحظة هبط الوحي ، كأنما ليضع الخاتم على هذه الدعوة ، فبركت الناقة - كما روي - على ركبتيها ، وأرغت من الألم ، وكانت خاتمة الوحي كما ورد في الخبر قوله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَقْمَتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة ٥ / ٤] .

وسيطلق على هذا الموسم في التاريخ (حجة الوداع) .

والواقع أن أقوال الرسول ﷺ وأفعاله منذ الآن ، حتى اليوم الأخير لن تكون إلا وداعاً لأهله وأصحابه ولأمته ، وهذا العالم الذي خط له بعمقٍ مصائره .

فضلاً عن ذلك ، فإن هذا اليوم الأخير قريب جداً ، إذ حينما عاد إلى المدينة وفاة مرض الموت ، الذي أنهى ملحنته العجيبة وختم دعوته المبلغة .

(١) هذه رواية البخاري ، وفي المقرizi « قالوا نشهد أنك قد بلغت وأدبت ونصحت » وهي تقرب مما جاء بالأصل . (المترجم)

وفي الصلاة الأخيرة التي أقامها بنفسه في المسجد ، أُعلن للحاضرين رغبته في أن يقضي ما عليه من ديون قائلاً : « أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ فَلِيؤْدِهِ وَلَا يَقُلْ فَضْحَ الدُّنْيَا ، أَلَا وَإِنْ فَضْحَ الدُّنْيَا أَهُونُ مِنْ فَضْحِ الْآخِرَةِ ... وَإِنْ عَبَدَ خَيْرَهُ اللَّهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاختَارَ مَا عِنْدَهُ » ^(١) .

لقد ذاب الصحابة الذين أدركوا هذه الإشارة في دموعهم ، وبعد شهوده يومين أو ثلاثة صلاة الجماعة ، لزم حجرة زوجه عائشة حتى النهاية . وعندما حل الأجل ، كان رأسه مستندًا إلى ذراع زوجه التي سمعته وهو يتم بتلك الكلمات الأخيرة : « اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى » ^(٢) .

كان هذا هو الكلام الأخير الذي ختم بالنسبة للتاريخ حقيقة هذه النذات التي حاولنا تخطيّط صورتها النفسيّة ، لكي نخلو الظاهره القرآنية .

ولقد حاولنا حين جلوна معًا هذا الوجه المثالي أن نبرز السمات الخاصة بـ محمد (الرجل) لكي نتلقى منه - في بحثنا للقضية - شهادته على محمد (النبي) .

ولا شك أن هذه الشهادة تكون عنصراً ثيئناً في دراستنا ، فهي على كل حال شهادة رجل شهد له زمانه على لسان امرأة ، بهذا الحكم الأخير ^(٣) : « أَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ! أَنْتَ حَتَّىٰ فِي قَبْرِكَ ، أَمْنَا الْعَالِي ، لَقَدْ عَشْتَ بَيْنَنَا طَاهِرًا خَلْصًا مُنْصَفًا ، وَكُنْتَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ هَادِيًّا حَكِيمًا مُنْبِرًا » ^(٤) .

(١) كذا في رواية ابن الأثير ج ٢ ص ١١٦ المطبعة المنيرية ١٣٤٩ هـ .

(٢) رواه البخاري .

(٣) المؤلف (٤) ورد هذا في رثاء عمهه صفيه .

لعل هذه ترجمة لبعض ما أنسدته عمهه السيدة صفيه في رثائه من مثل قوله :

فإِمَّا تَسْ فِي جَدِّيْثِ مَقِيْمَا فَقَدِمَّا عَشْتَ ذَا كَرِمَ وَطَيْبَ
وَكَنْتَ مَوْفَقَّا فِي كُلِّ أَمْرٍ وَفِيْنَا نَابَ مِنْ حَدِّ الْحَطَبَ
وَقُولَّا :

فَلَقِدْ كَانَ بِالْمَبَادِرَوْفَأَ لَمْ رَحَّةَ وَخَرَشِيدَ

كيفية الوحي

على الرغم من أن هذا الفصل قد يبدو غريباً بالنسبة للمقياس الأول ، فإننا نورده هنا لأن الوحي عنصر رئيسي في نظر الناقد الذي يريد أن يدرس الظاهرة القرآنية بالنسبة للذات الوعية عند محمد ﷺ .

فكيف أدرك الرسول والأنبياء قبله ظاهرة الوحي ؟ ..

يذهب بعض علماء الدراسات الإسلامية ، إلى أن مصطلح (وحي) الذي يطلقه القرآن على هذه الظاهرة إنما يعبر عنه بالكلمات (Intuition المكاشفة أو الوحي النفسي^(١)) أو (Inspiration إلهام) ، لكن هذه الكلمة الأخيرة ليس لها أي مدلول نفسي محدد ، مع أنها مستخدمة عموماً لكي تردد معنى الوحي إلى ميدان علم النفس . أما الكلمة الأولى فلها على العكس مدلول ، ولكنها لا يتفق مع الأحوال الظاهرة الملحوظة لدى النبي ﷺ ، في حالة التلقي التي يعانيها أثناء نزول الوحي .

ومن ناحية أخرى ، تعرف المكاشفة أو الوحي النفسي من الوجهة النفسية

(١) يعرف الشيخ رشيد رضا الوحي النفسي بأنه « الإلهام الفائض من استعداد النفس العالية » ، ثم قال : (وقد أثبته بعض علماء الإفرنج لنبينا ﷺ كفирه فقالوا : إن محمدًا يستحيل أن يكون كاذباً فيما دعا إليه من الدين القويم ، والشرع العادل ، والأدب السامي ؛ وصورة من لا يؤمنون بعالم الغيب منهم أو باتصال عالم الشهادة بأن معلوماته وأفكاره وأعماله ولدت له إلهاماً فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفية الروحانية على خيلته السامية ، وانعكس اعتقاده على بصره فرأى الملك ماثلاً له ، وعلى سمعه فوعى ما حدثه الملك به) وفي كلا الرأيين جزء يتفق مع تعريف المؤلف للوحي النفسي .

بأنها : « معرفة مباشرة لموضوع قابل للتفكير ، أو خاض فيه التفكير فعلاً ». بينما يجب أن يأخذ الوحي معنى : « المعرفة التلقائية والمطلقة لموضوع لا يشغل التفكير ، وأيضاً غير قابل للتفكير » لكي يكون متفقاً مع اعتقاد النبي ، ومع التعاليم القرآنية . فن المفید إذن أن ندرك نوع الظاهرة التي يمكن أن تكن خلف لفظة (وحي) . ونضيف أيضاً أن المكاشفة لا تصحبها أية ظاهرة نفسية بصرية أو سمعية أو عصبية كتقلص العضلات الذي نلحظه في حالة النبي ﷺ .

ومن الوجهة العقلية لا تنتج المكاشفة عند صاحبها يقيناً كاملاً ، بل كأننا تخلق نصف يقين ، أي بعض ما يؤدي إلى ما يسمى (احتالاً) ، والاحتال معرفة يأتي برهانها بعدها ، وهذه الدرجة من الشك هي التي تميز المكاشفة من الوحي من الناحية النفسية .

أما يقين النبي فقد كان كاملاً ، مع وثوقه بأن المعرفة الموحى بها غير شخصية وطارئة وخارجية عن ذاته .

وهذه الصفات تتأكد في نظر الذي يتلقى الوحي ، تأكلاً لا يبقى معه ظل من الشك فيما يتصل بموضوعية الظاهرة الموحية ، وهذا شرط أول مطلق ضروري لاعتقاد النبي الشخصي .

هل يمكن أن نعزو لمجرد (المكاشفة) تلك الدوافع الشعورية ، التي أرغبت (أرمياء) على المقاومة العنيفة ضد مكاشفة (حنانيا) ، التي جاءت بعكس آراء أرمياء نفسه ، فجعلته يصدر في يقين وعنف حكماً على (حنانيا) بالموت ، فيموت فعلاً بعد قليل ^(١) ؟

وهل كان لرسول الله ﷺ أن يفسر بالمكاشفة حالة أم موسى حين ألقى ولدتها في اليم ؟ .

(١) راجع ص ٨٩ وما بعدها .

وهل بالملائكة كان النبي يميز فيما ينطق به بين نوعين من (الإيماء) هما : الآية القرآنية التي يأمر بتسجيلها فوراً ، والحديث الذي يستودعه ذاكرة صحابته فحسب ، ومعلوم أن القرآن من حيث المقاطع الصوتية جزء مما نطق به النبي ؟ إن تمييزاً كهذا يكون من السخف الخالص لو لم يكن لدى صاحبه في الوقت ذاته علم تام بالفرق بين القرآن والحديث .

ومع ذلك فهذا التمييز أساسي ، ذُكر به النبي في القرآن ، في آيات كثيرة ورد فيها ذكر الوحي ، سواء في صورة الاشتقاد المصدري (وحياً) ، أم في صورة فعلية (أوحى ، وأوحينا ... الخ) .

ونسخاول استخلاص التفسير القرآني لهذه الكلمة من خلال الفقرة التالية التي تختتم قصة مشهد غبي :

﴿ قُلْ هُوَ نَبِأْ عَظِيمٌ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مَعْرُضُونَ ، مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمُلْءِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِّمُونَ ، إِنْ يَوْحِي إِلَيْ إِلَّا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [ص ٣٨ / ٦٧ - ٧٠] .

فهذه الآيات - فيها يبدو - تسوق معنى الوحي لغایات جدلية ، كيما تتيح للنبي أن يستخدمه برهاناً في محاجته خصوم دعوته .

وفي آيات أخرى يسوق القرآن معنى الكلمة لحاجة النبي الشخصية ، ومن أجل ترسيته الخاصة ، وذلك مثلاً ما يتجلّ في الآية التالية :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهُ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَهُمْ إِذْ يَلْقَوْنَ أَقْلَامَهُمْ أَئُمُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيمَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَهُمْ إِذْ يَخْتَصِّمُونَ ﴾ [آل عمران ٢ / ٤٤] .

فهذه الآية تعطي الوحي معنى كشف المغيّب ؛ مغيّب محدد تماماً ، يضم التفاصيل المادية لمشهد روحي خالص ، ويضم أيضاً واقعاً معيناً هو (إلقاء الأقلام) .

ولقد وضع هذا المغيب المكشوف تحت نظر النبي ما يشبه المقياس الذي يتتيح له أن يفصل ما هو شخصي بالنسبة له ، كأفكاره ومكاشفاته العادية مما لا يتصل بشخصه ، فهو صادر عن الوحي .

لقد بحث العلماء المسلمين هذه المشكلة في مختلف أشكالها ، وعالجها الشيخ (محمد عبده) في رسالة التوحيد ، في هذه العبارات ، قال بعد تعريف الوحي لغة : « وقد عرفوه شرعاً أنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه . أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص في نفسه ، مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت ، ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجдан تستيقنه النفس ، وتناسق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجдан الجموع والعطش والحزن والسرور »^(١)

ولقد بقي في هذا التعريف الذي أسلبه الأستاذ الإمام في تحديده بعض الغموض فيما يتصل بتفسير اليقين عند النبي .

والواقع أننا في الحالة التي لا يكون الوحي فيها منتقلأً بطريقه محسنة - مسمومة أو مرئية - سنتقع في تعريف الوحي تعريفاً ذاتياً محضاً ، إذ أن النبي في التحليل الأخير لا يدرى بصفة موضوعية كيف جاءته المعرفة ، وهو يجدها في نفسه مع تيقنه بأنها من عند الله ، إن في ذلك تناقضاً واضحاً يخلع على ظاهرة الوحي كل خصائص المكاشفة ، ولكن هذه - كما يجب أن نكرر - لا تنتج يقيناً مؤسساً على إدراك ، ذلك الذي يبدو أنه اليقين المقصود في الآيات التي ورد فيها ذكر الوحي ، والتي تتصل خاصة بإعداد (محمد) الشخص لفهم طبيعة الظاهرة القرآنية .

(١) رشيد رضا (الوحي الحمدي) ص ٢٨ القاهرة ١٩٢٥ م .

ولنأخذ مثلاً الآية القصصية التي تذكر الإيحاء إلى الحواريين وما أجابوا به ،
قال تعالى :

﴿ وَإِذْ أُوحِيَ إِلَى الْحَوَارِيْنَ أَنْ أَمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ، قَالُوا : أَمَّا وَا شَهَدْ
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة ١١١/٥]

فالوحي هنا يأخذ معنى (كلام عادي) موجه إلى الحواريين ، وقد جسسته
بكيفية ما إجابتهم نفسها ، وهذه الإجابة تدل أيضاً عند هؤلاء الحواريين على
يقين إدراكي ناتج بأكمله عن الوحي ، وليس مصاحبًا له ، فإن التيقن بصحة
ظاهرة ما ليس مصاحبًا في إدراكتنا لوقت مشاهدتها ، بل هو ينبع كصدى عقلي
يصدر عنا .

ويترتب على هذا أن يقين النبي في مصدر المعرفة الموحاة لا يجيء مع
الوحي نفسه ، ولا يؤلف جزءاً من طبيعته ، بل إنه في صورته الكاملة من عمله
الشعوري بوصفه رد فعل طبيعي لهذا الشعور إزاء ظاهرة خارجية .

هذا الوصف يعطي الوحي نفسه - كما نريد أن نوضح - الخصوصية التي
تجعله خارج أحوال الفرد النفسية ، لتكون مهمته الوحيدة أن يصوغ أساساً عقلياً
ليقينه واقتناعه الشخصي .

اقتناعه الشخصي

مقاييسه الظاهري

مقاييسه العقلي

يبدو أن الكتاب المحدثين لم يأخذوا في اعتبارهم - أثناء تحليلهم للظاهرة
القرآنية - حقيقة نفسية جوهرية هي : اقتناع النبي الشخصي . ومع ذلك فمن

الواضح أن انفراد النبي بكونه الشاهد الوحيد المباشر على الظاهر ، يخلع على هذه الحقيقة قيمة استثنائية خاصة .

ومن قبيل هذا أننا نجد دراسات هؤلاء الكتاب تعكس تناقضًا مزدوجاً ، فهي من ناحية تعد الوحي ظاهرة ذاتية ، قولاً واحداً ، ومن ناحية أخرى لا تتلقى على هذه الظاهرة شهادة الذات المترنة بها اقتراناً تماماً . هذا النقص غير المفهوم هو الذي دفعنا إلى أن نبين أولاً ، في الفصل السابق القيمة الأدبية والعقلية لهذه الذات ، كيما تتلقى - على علم - شهادتها باعتبارها شرطاً يجيئ مشكلة الوحي النفسية .

وهكذا نخاول أن نضيف إلى معرفتنا الشخصية - رأي هذه الذات الخاص في نفسها ، وفي الظاهرة التي نبحثها ، ذلك الرأي الذي ينعكس بكل وضوح في اقتناعها النهائي . فالأمر على هذا يقتضي أن نتناول هذا الاقتناع - الذي ندرسه في نطاق قيمته العقلية - بوصفه برهاناً مباشراً على الظاهرة القرآنية ، وعلى صفتها العلوية . وهذه القيمة العقلية مرتبطة بالطريقة التي تنشئ الاقتناع في نفس النبي .

هل كان هذا الاقتناع تلقائياً أو ناشئاً عن تفكير ؟ ..

لقد رأينا في الفصل السابق كم عانى النبي من الشك في نفسه ، في نهاية عزلته ، بينما كان استشعاره حل أزمته القريب يؤرقه .

هذا الواقع الثابت يعنينا من أن نرى في اقتناعه ظاهرة تلقائية ، فهو يبدو على العكس - النتيجة التقدمية المطردة لتفكير واع ، وبحث دقيق متعدد للوقائع ، واستبطان متغلغل في أعماق الضمير .

فلنا أن نعد نتائج بعض العمليات العقلية التي تشتهر فيها العوامل النفسية ، تلك التي ندرك قيمتها السامية عند محمد عليه .

إن تفكير النبي وإخلاصه وإرادته وذاكرته ، وإحساسه وسيطرته على ذاته ، ليست هذه كلها لديه كلمات جوفاء ، بل إنه على العكس من ذلك ، قد أبرز هذه الخصائص الرفيعة بصورة نادرة .

وعليه فإن اقتناعه يبدو لأول وهلة حقيقة لا يمكن إغفالها ، مع أنها ملزمنا - في مقياسنا الثاني - بأن نستخلص مباشرة نتائجنا عن الظاهرة القرآنية ، من تخليلنا للقرآن .

أما الآن ، فيجب أن نحاول تبع العملية التي يصدر عنها الاقتناع الشخصي لدى النبي ، فالطريقة التي استطاع بها أن يعکف بنفسه على حالته الخاصة ، لا تخرج دون شك عن القواعد التي يخضع لها نشاط فكر موضوعي كفشه .

ولا شك أن الأحداث التي أثرت على جوارحه قد لفتت نظره أولاً للظاهرة ، ثم إن فكره المتواصل - دون شك - قد تناول مثل هذه الأحداث لكي يتحقق من موضوعيتها ، أعني من مجرد وقوعها على المرأة العاكسة لذاته .

ومن هنا كان النبي بحاجة إلى التثبت من مقياسين يدعم بها اقتناعه :

(أ) مقياس ظاهري للتحقق من وقوع الظاهرة .

(ب) مقياس عقلي لمناقشتها وتسويغها .

مقياس الظاهرة

في سن الأربعين ، يجد النبي نفسه فجأة موضوعاً لظاهرة غير عادية ، فعلى شفا هاوية (حراء) يسمع للمرة الأولى هذا الصوت :

« يا محمد .. أنت رسول الله » .

فيرتفع بصره نحو الأفق ، وإذا بضوء يبهره محيطاً بصورة غير مألوفة . هذا

الحادث المزدوج الذي أمسك به على حافة الانتحار يصبح الآن بالنسبة له شغلاً متسلطاً مؤلماً :

فهل سمع ورأى حقاً ؟ وأن هذا الحادث السعي البصري لم يكن سوى سراب باطني ، انبعث في نفسه تحت تأثير انفعال مؤلم قاده إلى شفا الماوية ؟
ألم تخدعه جوارحه المنفعلة ؟

لقد كان يجب أن تثور هذه الأسئلة كلها من أول وهلة في ذهن النبي ، حتى قبل أن يثيرها النقد في عصره أو عصرنا .

فهو يخيل إليه أنه قد آلمَ به ، فيمضي مسرعاً ، ليس بيساره إلى زوجه الحانية ، يشركها في فكرته السيطرة عليه ... في اضطرابه وخلطه .

ومع ذلك ، فحق في كتف زوجه الرقيقة لا تزايل رؤية جبل النور عينيه ، لأنها هي مطبوعة على باصرته بشعاع ثابت غير منظور ، فتحسرت زوجه وألقت خمارها ثم قالت : هل تراه ؟ قال : لا ... قالت : يا بن عم .. أثبت وأبشر فوالله إنه ملك ، ما هو بشيطان^(١) .

قد يرى عصرنا المغرم بالعلوم في هذا الذي حدث دليلاً على ظاهرة ذاتية محضة ، لأن الرؤية موضوع الظاهرة لم تحدث في حضور خديجة ، لكن هذا الخروج على القاعدة ليس عسيراً على الفهم ، من الناحية الحسية : فإن عمي الألوان مثلاً يقدم لنا حالة نمذجية ، لا يمكن أن ترى فيها بعض الألوان بالنسبة لكل العيون ، وهناك أيضاً مجموعة من الإشعاعات الضوئية دون الضوء الأحمر ، وفوق الضوء البنفسجي لا تراها أعيننا ، ولا شيء يثبت علمياً أنها كذلك بالنسبة

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٣٢ .

لجميع العيون ، فقد توجد عيون يمكن أن تكون أقل أو أكثر حساسية أمام تلك الأشعة ، كما يحدث في حالة الخلية الضوئية الكهربية .

ونضيف إلى ذلك أن ظاهرة الوحي سيصحبها فيما بعد دلائل حسية يشعر بها بعض من شاهدوها خلال حدوثها ^(١) .

ولكنا فيها يخص مرحلة ظهورها الأولى يمكن أن تتصور أن النبي كان في حالة من حالات التلقي ، فهو بهذا الشاهد الممتاز على الظاهرة .

ويكفي أن نستخدم هنا مقياساً فجأً ، ولكنه مفيد لعقول المغرين بالعلوم ، هذا المقياس نجراه بين حالة التلقي هذه ، وبين ما يسمى بالانتفاء الخاص في جهاز الاستقبال ، ففي المجال الحسي تكون المسألة في أقصى صورها مسألة ضبط ، وفي محيط النبوة يمكن أن تتصل بوضع خاص بالنبي في استقبال موجات ذات طبيعة خاصة .

وأية كانت وجة الأمر ، وبعد ظهور الوحي للمرة الأولى التي هزته هزة عميقاً عاد محمد إلى (غار حراء) وهناك عاودته الرؤية ، ولكنها في هذه المرة أكثر قرباً و المباشرة وتأثيراً ومادية نوعاً ما ، فإن لها شكلاً خاصاً هو هيئة (رجل متشح بشوبه الأبيض) ، تأمره قائلة : ﴿اقرأ﴾ [العلق ١٧٦]

ترى هل يمكن للاختلاط أو (الملوسة) أن تؤدي أصواتاً ؟ ومع ذلك فإن

(١) عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأله رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتيه مثل صلصلة المبرس ، وهو أشدك على فيفص عنك وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكتفي فأعي ما يقول ». قالت عائشة رضي الله عنها : « ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفص عنه ، وإن جبيه ليتفسد عرقاً » ... رواه البخاري ج ١ كتاب (كيف كان بده الوحي) .

الرؤية تتكرر آمرة : « اقرأ » ، هذا الحوار الغريب ، والرؤية التي تسبقه وتصحبه وتلعقه ، يشكلان الأساس الأول الضروري للنبي في نظر النقد الذاتي لحالته ، فها هي ذي الظاهرة تحت سمعه وبصره ، فهو يرى ويسمع .

ولكن في الوقت الذي تصير فيه الرؤية أكثر قرباً وأكثر تشدلاً ، يصبح الكلام واضحاً تماماً ، منهاحتوى المضون الأول الصادر عنه من الغرابة ، إذ هو أمر (القراءة) موجه إلى أمري .

فالنبي - من كل وجه - لا يبدو أنه قد استفاد توجيههاً محدداً لسلوكه المستقبل ، فهو الآن يشاهد ، ويشاهد فحسب .

لكن هذه المشاهدة الحسية الخالصة ترك فكره الموضوعي في حال حائرة مختلطة ، فيعود مسرعاً إلى مكة ، مضطرباً كالم يكن ، محطم الجسد كما لم يحدث ، وهو يشعر بحاجته إلى أن يهدئ أهله من روعه ، أو إلى أن يدشروه ، فتدبره خديجة بعباءة ، فيضع رأسه على الوسادة وينام ، بينما تلاطفه بكلماتها المسلية .

ولكن إحساساً لا شعورياً يعاوده فيوقظه ، وإذا برؤية حراء أمام عينيه تلي عليه أمراً واضحاً صريحاً (ق فاندر) [٢٧٤ المدثر]

إن النبي سيدرك للمرة الأولى أهمية الظاهرة في إطار حياته الخاصة ، وسيظهر بعد تأمل أثاره هذا الوحي اقتناعه الوليد ، فيما يسر به إلى خديجة : « لقد أمرني جبريل أن أنذر الناس ، فنذأ أدعوه ، ومنذأ يستجيب ؟ » ، وفي هذا التساؤل ، نامح الريبة التي ليست بالتحديد صدى ليقين لا يتزعزع ، وهو اليقين الذي سنجده لديه عندما يتحقق حتى نهاية دعوته ، والذي أثاره خاصة عندما فاتحه عمّه أبو طالب في عرض قريش ليضع حداً لدعوته .

إنه لم يصل بعد إلى هذه الدرجة من اليقين ، فاقتناعه ليس مطلقاً ، وهو رهن بالظروف الخارجية للنجاح ، الذي يبدوله غير محتمل في تلك اللحظة ،

ومع ذلك فإن تيار الوحي لن ينقطع ، وستلتفت بعض الطواهر العضوية نظر النبي ، فيصاحب كل وحي عنده أعراض خاصة ، وسوف يحدث أصحابه - فيما بعد - بأنه سمع قبيل حدوث الظاهرة ، أي قبيل نزول الوحي ، دوياً مؤذناً ، شيئاًً أحياناً بدوي النحل عندما ينطلق من خليته ، وأحياناً أخرى أكثر رنيناً حتى كأنه صلصلة جرس .

ومن ناحية أخرى استطاع أصحابه أن يلاحظوا كلما نزل الوحي ، شحوباً مفاجئاً ، يتبعه احتقان في وجه النبي^(١) وهو نفسه يدرك ذلك ، ولذا يأمرهم بأن يلقوه على وجهه ستراً^(٢) كلما طرأت الظاهرة ، ألا يعني هذا الاحتياط أن هذه الظاهرة كانت مستقلة عن إرادة النبي ﷺ ، حتى يصبح عاجزاً مؤقتاً عن أن يغطي وجهه بنفسه ، وهو يعاني حالة متناهية الإيلام ، كاروت السيرة .

لقد تعجل بعض النقاد حين ألموا بهذه الدلائل النفسية فعدوها أعراضاً للتشنج ، هذا الرأي يشتبه خطأً مزدوجاً حين يتخذ من هذه الأعراض الخارجية مقاييساً يحكم به على الظاهرة القرآنية في مجموعها . ولكن من الضروري أن نأخذ في اعتبارنا قبل كل شيء الواقع النفسي المصاحب ، الذي لا يمكن أن يفسره أي تعليل مرضي .

وأكثر من ذلك ، فإن الاعراض العضوية نفسها ليست خاصة بحالة التشنج التي تحدث شللاً ارتعاشياً (إن صح التعبير) عند الفرد المحروم مؤقتاً من قواه العقلية والجسمية .

(١) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال « كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه الوحي كرب لذلك . وترتب وجده ، وفي رواية نكس رأسه وتنكس أصحابه رؤوسهم ، فلما سري عنه رفع رأسه » .

(٢) جاء في البخاري ، كتاب (٢٦) (العمره) - ١٠ - باب (يفعل في العمرة ما يفعل في الحج) ما يفيد أنه ﷺ كان يستر بثوب حين ينزل عليه الوحي ، وأن عمر رضي الله عنه رفع طرف ثوب لينظر السائل إلى الرسول وهو في حالة تلك (ف) .

فإذا نظرنا إلى حالة النبي ، وجدنا أن الوجه وحده هو الذي يختنق ، بينما يتسع الرجل بحالة عادية ، وبحريمة عقلية ملحوظة من الوجهة النفسية ، ليستخدم ذاكرته استخداماً كاملاً خلال الأزمة نفسها ، على حين يَعْيَ وعي المتشنج وذاكرته خلال الأزمة ، فالحالة بناء على هذه الملاحظات ليست حالة مرض كالتشننج .

ونضيف أيضاً أن الأعراض الجسمية التي رويت عن النبي لا تظهر إلا اللحظة التي تعرّيه فيها الظاهرة القرآنية ، وفيها وحدها ، أي في اللحظة الخاطفة للوحي .

هذا التلازم الملحوظ بين ظاهرة نفسية في أساسها ، وحالة عضوية معينة ، هو الطابع الخارجي المميز للوحي .

فن الحكم أن يكون للنبي في مجموع هذه الأحداث الشخصية موضوع للتفكير ، على الأقل في بداية دعوته ، من أجل عقله الموضوعي ، فما كان له أن يتغافل عن هذه السلسلة من الأحداث الملحوظة كقياس ظاهري خاص بحالته ، مهما كانت غير كافية لإصدار حكم نهائي ، أو تأسيس اقتناع .

ولتبسيط هذا الاقتناع النهائي ، سيمدنا القرآن بقياس مكمل للمقياس الأول ، وبأساس للاقتناع والحكم النهائي لدى رسول الله ﷺ .

مقاييس العقل

إن (محمدأ) أمي ، ليس لديه من معرفة البشر سوى ما يمكن أن ينحه له وسطه الذي ولد فيه .

وفي هذا الوسط الفروسي الوثني البدوي ، لا مجال مطلقاً للمشكلات الاجتماعية والغيبية (الميتافيزيقية) ، فإن معارف العرب عن الحياة الاجتماعية

وال الفكرية لدى الشعوب الأخرى ليست بذات قيمة ، إذا ما رجعنا إلى الشعر الجاهلي الذي يعد مصدراً قيماً للمعلومات في هذا الموضوع .

فمحمد في ذهابه إلى عزلته في غار حراء ، لم يكن لديه سوى ذلك المتابع العادي من الأفكار الشائعة في وسطه البدائي .

ثم تأتي الفكرة الموحى بها فتقلب هذه المعرفة الضئيلة الحاطة بسياج مزدوج من الجهل العام ، والأمية الخاصة عند محمد .

ومن الواجب أن نتصور في كلمة « اقرأ » وهي الكلمة الأولى للوحي ، تأثيرها الصاعق على النبي لأنها لا تعني شيئاً بالنسبة له ، إذ هو أمي . وهذا الأمر الملزم يحدث بطبيعة الحال انقلاباً في كيانه ، لأنه يزيل فكرة الأمي عن نفسه ، فيجيب متهيئاً : (ما أنا بقارئ) . ولكن ... أي صدمة مذهلة تصيب فكره الموضوعي ؟ ! . فإذا كان النبي قد تخلقت لديه نواة الاقتناع عقب الملاحظات الأولى المذكورة ، فإن هذه الصدمة العقلية لن تبدد شكوكه مرة واحدة ، إذ عندما يأمره الصوت في المرة التالية (أن ينذر) ، سيتساءل قلقاً « منذا الذي يؤمن بي ؟ » وفي هذا السؤال نلحظ مفاجأة الشيء غير المتوقع ، وحيرة الاقتناع .

وفضلاً عن ذلك فإن الوحي سينقطع فترة من الزمن ، وسنجد أنه يتناه ، بل يريده ، بل يناديه مستيئساً ، ولا من مجيب .

هنا يجد (محمد) نفسه في أقسى لحظات أزمته الأدبية التي عرفها في غار حراء^(١) . وهنا يتعاظم شكه ، وقد كان يسيراً ، فيشكو حيرته لزوجه الحانية ،

(١) من حديث عائشة قالت : « وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ فيها بلغنا حزناً غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهد الجبال ، فكلا أوف بندروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل فقال : (يا محمد إنك رسول الله حقاً) فيسكن لذلك جأسه وتقر نفسه » رواه البخاري ١٢ كتاب التعبير ط المطبعة البهية .

وإذا بها تحاول أن تعزيه بكلمات لا تبعث في قلبه العزاء ... وأخيراً وبعد عامين ينزل الوحي ، فيأتيه بالكلمة العليا الوحيدة التي هي بِلَسْمِ الشفاء ... كلمة الله .

لقد أشرقت أسرير النبي ، إذ هو يملأ منذ الآن البرهان الأدبي والعلقي على أن الوحي لا يصدر عن ذاته ، ولا يوافيه طوع إرادته ، فلقد بدا له عصياً لا يمكن أن تخضع له ، كاً لا تخضع له أفكار الآخرين وكلماتهم . ولديه الآن برهان موضوعي إلى أقصى درجة على صحة اقتناعه الجديد .

هذا الانتظار الحزين ، ثم ما تلاه من ابتهاج مفاجئ كانا - في الواقع -
الظرفين النفسيين المناسبين لتلك الحالة من الفيض العقلي ، لم تعد تخطر معه
ظلال الريبة والشك .

والحق أن الشك الذي عاناه النبي ﷺ هو الذي اضطره إلى أن ينكب على حالته الخاصة ، ويواصل تفكيره ومعالجته التي ستنتهي باليقين النهائي .

وفي هذا التحول نرى أثر التربية السامية ، التي تعين رسول الله على أن يتحقق تدريجياً في نفسه من حقيقة الظاهرة القرانية ، يعينه على ذلك تكيف مستمر لضيরه الوعي ، وكأنما أريد إعداده منهجياً للاقتناء الضوري اللازم لدعوته ، فأبلغه الوحي منذ البداية خصائص هذه الدعوة العظمى ، كا تدل عليه الآية :

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ ! [المزمول ٧٣ / ٥] .

وإن صدق هذه الإرادة العليا التي تلي تلك الكلمة ليتجلى أمام عينيه شيئاً فشيئاً ، فإذا بشكه يخلو مكانه للاقتناع الجديد ، ثمرة الفكرة الناضجة المستقرة ، وهو اقتناع يتجلى في حماوراته الأولى مع قريش ، لقد تبدل حال نفسه ، فأصبح يشق في ذاته ، وينزل الوحي لكي يعكس على نظرنا حاله النفسية الجديدة ، ويفكك هذا الاقتناع الظافر بقوله :

﴿ والنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ، وَمَا يَنْطَقُ عَنِ الْهَوَىٰ ،
إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ ... مَا كَذَبَ الْفَوَادُ مَا رَأَىٰ ، أَفَتَأْرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ،
وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ... ﴾ [النجم ٥٣ ، ١٢ ، ١١ ، ٤ ، ٢ ، ١] .

لم يعد لدى النبي أدنى شكًّا أديبي أو عقلي ، فإن الحكم الصادق هو الذي يهديه ، وهذا النوع من الحكم لا يحول الشك المنهجي الذي عاناه ، إلى شك مقصود لذاته . إذ أن الحقيقة العلوية للوحي تفرض نفسها فرضاً على العقل الوضعي . فكل ما يراه وما يسمعه وما يشعر به وما يفهمه ، يتافق الآن مع حقيقة واضحة تماماً في ذهنه ، جلية في عينيه هي : الحقيقة القرآنية .

وأكثر من ذلك ، فإن إدراكه في هذا النطاق سيزداد ويتسع كلما تابع الوحي آياته البلية ، تلك التي تكون الكتاب الروحي الذي أحس به مطبوعاً في قلبه في غار حراء ، وإن هذا الاقتناع العقلي ليزداد رسوحاً كلما ازدادت المعرفة عقاً في عينيه بين ظنون (الإنسان) وما يجري على لسان (النبي) .

وسيتابع الوحي نزوله بسور القرآن سورة سورة ، فتزاحم في وعيه الحقائق التاريخية والكونية والاجتماعية ، التي لم يسبق أن سجلت في صفحة معارفه ، بل حتى في معارف عصره ، ومناحي اهتمامه .

هذه الحقائق ليست مجرد تعميمات غامضة ، ولكنها معلومات محددة تضم تفاصيل هامة عن تاريخ الوديانة .

قصة يوسف المفصلة ، مثلاً ، أو التاريخ المفصل لهجرة بني إسرائيل لا يمكن اعتبارها مجرد اتفاق عارض ، بل يجب حتى أن يأخذوا لدى (محمد) ﷺ صفة الوحي العلوية .

ولنا أن نتساءل كيف استطاع أن يدرك الاتفاق العجيب لهذا الوحي مع ما ورد من التفاصيل التاريخية في التوراة ... ؟

لقد كان يكفي محمدأ لاقتناعه الشخصي أن يلاحظ أن مثل هذا التفصيل غير المتوقع ، والذى غاب عن الأعين في طيات التاريخ ليس بذى طابع شخصي ، دون أن يستخدم فعلاً أساساً للموازنة ، حتى يحكم على الفكرة الموحى بها ، ومدى تصديقها لما ورد في التوراة .

فكان عليه أن يلاحظ أن أخبار الوحي تنزل عليه من مصدر ما ، فن هو هذا المصدر ؟ صار إذن من الضروري أن يحتل هذا السؤال مكانه في العملية العقلية التي يستقى منها النبي إدراكه الثابت ، واقتناعه الشخصي . ولقد جاءت إجابته عن هذا السؤال بعد مقابلة باطنية بين فكرته الشخصية وبين الحقيقة المنزلة ، وكان بحسبه أن يعقد هذه المقابلة لكي يحل مصدر هذه الأخبار المنزلة ، خارج ذاته وخارج مجتمعه ، فما كان لديه أي التباس في هذا ، فخارج معلوماته لم يكن يستطيع أن يجد الحقيقة القرآنية عند أي مصدر إنساني .

و (محمد) صادق مع قومه ، وهو قبل ذلك صادق مع نفسه ، فدراسته الوعية لحالته الغريبة يجب أن تكون نوعاً من الدرس الباطني القرآني ، لتتضى هذه الدراسة على أي شك يخايل عينيه ، ما دام يمكنه أن يحررها على أساس منهجين مختلفين ، الأول : ذاتي محض يقتصر على ملاحظته وجود الوحي خارج الإطار الشخصي ، والثاني : موضوعي يقوم على الموازنة الواقعية بين الوحي المنزل وما ورد من التفاصيل المحددة في كتب اليهود والنصارى مثلاً .

وكانا كان الوحي - أحياناً - يعلمه هذا المنهج الأخير الموضوعي عندما لا يكون الأمر أمر اقتناعه هو . لأنه اقتنع منذ زمن طويل - بل أمر تأسيس وتربيه للذات الحمدية ، ولا سيما عندما يجادل المشركين عن عقيدته ، أو وفود النصارى الآتية من أطراف الجزيرة ، كوفد خبران الذي أتاه ليناقش معه عقيدة التثليث .

وفي هذا يحدّثه الوحي صراحة :

﴿ إِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ، فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُتَرَدِّينَ ﴾ [يونس ٩٤/١٠] .

يحدّثنا المفسر جلال الدين السيوطي فيقول :

إن النبي عقب على ذلك قائلاً : « لا أشك ولا أسأل » ^(١) .

فمن هذا نرى أن النبي كان يمكنه أن يكتفي بالمقابلة الباطنية المشار إليها آنفًا ، على الأقل فيما يتصل باقتناعه الشخصي . ولكن كان عليه أيضًا أن يشبع حاجة الآخرين إلى الاقتناع ، فكأنما قد استخدم لذلك النهج الثاني عندما كان يتصدى في إحدى المناظرات العامة ، لتحقيق قيمة الوحي بصفة موضوعية بالنسبة لحقيقة مكتوبة في الكتب السابقة .

وتلك - على ما نظن - المناسبة التي نزلت من أجلها سورة يوسف ، فكما قرر الرحمنى : نزلت هذه السورة المكية عقب نوع من التحدي الذي جاء به علماء بني إسرائيل ، لقد سأله صراحة عن قصة يوسف ، فنزلت ^(٢) ولكنها إذا كانت قد أجابت على تحدي صادر عن أحبّار اليهود أو غيرهم ، فإنّها لم تكن لتحسم النزاع إلا بمقابلة دقيقة بين نصوص التوراة وقصص القرآن .

ولاشك أن النبي لم يكن في نفسه مهتماً بمثل هذه المقابلة ، التي تتيح له فرصة الموازنة الموضوعية بين الوحي والتاريخ الثابت في كتب بني إسرائيل .

(١) أخرجه عبد الرزاق وابن جبير عن قتادة .

(٢) ذكرنا فيها بعد سبباً آخر للنزول في معرض التدليل على أنها نزلت جملة واحدة ، وهو لا يتنافى مع ما ذكر هنا في سبب النزول الذي استند إليه المؤلف . (المترجم) .

ولعل هذه الفرصة لم تكن الوحيدة التي جأ فيها إلى الموازنة الفعلية ، التي تقدم في كل مرة عنصراً جديداً لقياس اقتناعه العقلي .

وأخيراً ، فإن صوغ هذا الاقتناع ، يبدو أنه قد سار طبقاً لنهج عادي حين ضم - من ناحية - الملاحظات المباشرة للنبي عن حالته ، ومن ناحية أخرى مقياساً عقلياً يستقى منه اقتناعه ، وهو يحول بعقله في دقائق ملاحظاته .

إن علم الدراسات الإسلامية الذي يتناول هذه الدراسات في عمومها بفكر معرض ، لم يعالج مشكلة هذا الاقتناع الشخصي ، على الرغم من أنها في المقام الأول من الأهمية لفهم الظاهرة القرآنية ، إذ هو يمثل مفتاح المشكلة القرآنية حين نضعها على البساط النفسي للذات الحمدية .

وغمي عن البيان أنه لكي يؤمن (محمد) ، ويستمر على الإيمان بدعوته يجب أن تقرر حسب تعبير (أنجلز) أن كل وحي لابد أن يكون قد (مرّ بوعيه)^(١) وانخد في نظره صورة مطلقة ، غير شخصية ، ربانية في جوهرها الروحي ، وفي الطريقة التي تظهر بها .

ومحمد ﷺ قد حفظ - بلا أدفي شك - اعتقاده حتى تلك اللحظة العلوية ، حتى تلك الكلمة الأخيرة :

« نعم ... في الرفيق الأعلى » .

☆ ☆ ☆

(١) فردرريك أنجلز . (لودفيج فرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية) (ص ٢٨) الطبعة الاجتماعية - باريس يقول : « عند الإنسان المنعزل تر كل القوى المحركة لنشاطه بعقله لكي تتحول إلى عوامل ملزمة لإرادته تدفعه إلى العمل والنشاط » .

مقام الذات المحمدية في ظاهرة الوحي

- اقرأ .

- ما أنا بقارئ ! ؟

هذا الحوار الفريد الذي يستهل بالنسبة لهذا العالم العهد القرآني ، ينحنا اليوم عنصراً ثالثاً في الدراسة النفسية التحليلية لظاهرة الوحي .

ولا غرو ، فهو الحوار الوحيد الثابت تاريخياً ، والذي تجib فيه الذات المحمدية بوضوح ، وبمقاطعة صوتية ، على الصوت الذي سيبلغها قريباً دعوتها .

هل هذا اختلاط و (هلوسة) ؟

إن الظاهرة التي ندرسها هنا ، في حالتها الأولى ، مرئية مسموعة ، وذلك بغض النظر عن كل ما جاء بعد ذلك من الأحداث التاريخية التي ستستغرق عشرين عاماً ؛ فالاختلاط العقلي الذي من هذا النوع إنما يحدث في هؤامش النوم . ويطلق على الاختلاط الذي يحدث عندما يغشى النوم الذات الوعية ، أي بين اليقظة والنوم (Hallucination Hypnagogique) ؛ ويطلق على الاختلاط الذي يحدث عندما تخرج هذه الذات من النوم ؛ أي بين النوم واليقظة (Hallucination Hypnopompique)

ولقد قرر علم النفس العلاجي أن الحالتين كليهما لا تصيب الأشخاص الأسواء - كما هو شأن النبي - لوجود سبب حسي هو ترتيل أصوات مسموعة .

تلك هي حالتنا ، فقد تكرر السبب الحسي في الحوار المذكور ثلاث مرات .

الظاهرة القرآنية (١١)

وعلى هذا ، فلو فرض أن الاختلاط أو (الملوسة) لم تزل بتأثير الجزء الأول من الحوار ، فإنها لا يمكن أن تبقى بعد الصدمة الصوتية الأولى ، أي خلال المرتين الآخرين اللتين سيبقى تفسيرها معلقاً : وهكذا ، دون أن تنسع في الحكم على طبيعة الظاهرة نفسها ، لا يمكن على أية حال أن نفسرها بالاختلاط العقلي .

ولو أتنا تناولنا الأمر من ظاهره فسنجد أن هذا الحوار يحدد - منذ البداية - الوضع النسبي للذات الحمدية في الخطاب القرآني ، فتوضع هذه الذات منذ الوحي الأول في مقام الخاطب المفرد ، وسينزل الوحي في الواقع على ذات مخاطبة ، تؤديه واسطة عن الذات المتكلمة ، تستعمل هنا مباشرة اللغة الإلهية لتأمر بالقراءة أمياً ، لا يتخيل نفسه قارئاً ، وهو لهذا قد اضطرب وأجفل .

وكل ما يهمنا هنا هو معرفة ما إذا كانت هذه الذات المخاطبة ، وتلك الذات المتكلمة يمكن أن تجتمعا نفسياً في ذات واحدة ، هي ذات (محمد) .

ومن الواجب أن نذكر - أولاً - مدى التباعد الرئيسي بين في الحوار ، بين الذات المتكلمة الأميرة الحازمة ، والذات المخاطبة المضطربة المغفلة . فهذا الإجفال يعكس طبيعياً لدى النبي - الذي يعرف أنه لا يعرف القراءة - الشعور والفكرة اللذين يعرفهما عن نفسه ؛ فإن جابته السلبية الخاشعة - ولكنها القاطعة - هي النهاية الطبيعية لعملية نفسية تنبثق عن هذه الفكرة التي يدرك موضوعيتها تماماً : فكرة أميته .

ألا يمكن أن يفهم أن هذا الأمر الصارم - الذي أجفل منه هذا الأمي - قد ضرب صفعاً عن هذه الفكرة الموضوعية فأنكرها ؟ إن هذا التباعد يصور لنا - على أية حال - عملية نفسية أخرى مختلفة تماماً عن الأولى ، ولكنها متحدة معها في الزمن ، لأن كليهما تتلاقى وتتقاطع مع الأخرى في اللحظة نفسها . عندما تأمر الذات المتكلمة فتجفل الأخرى وقد انقلب حالها .

فهل يمكن أن نتصور هذا الاتحاد الزمني لعمليتين متبعادتين في ذات واحدة تنطوي على شخصيتي الحوار ؟

إن هاتين الحالتين - التباعد الجوهرى والاتحاد الزمنى - متعارضتان سواء تصورناهما في مجال واحد للذات ، أم في مجالين مختلفين هما : الشعور وما وراء الشعور .

فهناك بالضرورة تعدد في (الذوات) في حوارنا ، وهو تعدد لا يمكن أن تضمه وحدة نفسية .

فتحن مضطرون لهذا أن نقرر ازدواج الذات ، كما يحدث في أي حوار عادى ، وبين هاتين الذاتين اللتين تتحاوران ، تنجلب الذات الحمدية بوصفها شاهدأً واعياً ومؤرخاً صادقاً للواقع الذي نخلله .

ومع ذلك ، فهذه هي المرة الوحيدة التي ستحدد فيها هذه الذات موقفها بالنسبة للظاهرة القرآنية الغريبة ، هذه هي المرة الوحيدة التي ستحتل فيها - عن قصد - وضعاً واضحاً وإرادياً في مواجهة الذات المتكلمة ، تلك التي تأمر أمياً مشدوهاً أن يقرأ ، محدثة بذلك خروجاً عن المألوف ، يبدو لأول وهلة غير معقول .

وسنجد فيما بعد وإلى النهاية ، أن الذات الحمدية لن تتحدث مع الذات المتكلمة حين تخاطبها ، وهذا الصت - في ذاته - جدير باللحظة ، لأنه يسجل إدراك الرسول ﷺ النهائي أمام الظاهرة ، التي سيقف منها منذ ذلك الحين موقف التسليم . وستظل ذاته دائماً صامتة في الخطاب القرآني ، الذي لن يذكر الأحداث الخاصة في تاريخه . فلن نجد أي صدى لآلامه وخاصة عندما يفقد أكرم زوجة وأفضل عم ، ومع علمنا بما كان لديه من الحنون البنيوي تجاه هاتين الشخصيتين .

هذه الملاحظات عن انعدام الطابع الشخصي في الخطاب القرآني ، الذي

لا يرد فيه الضمير المحمدي إلا بصورة المفرد المخاطب ، يمكن أن نزيدها وضوحاً .
فهناك في الواقع آيات يلفت انتباها إليها صورتها الغريبة ، لما تثل فيها
الذات الحمدية من دور فريد .

وهكذا مثلاً على ذلك ، قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي يَسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلُكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ
بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ، وَجَاءَهُمْ الْمَوْجَ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنَّوْا
أَنَّهُمْ أَحْيَطُ بِهِمْ .. ﴾ [سورة يونس ٢٢/١٠]

ففي هذه الآية نجد أن الانتقال غير العادي من ضمير (كم) إلى ضمير (هم)
جدير باللاحظة ، لأنه لا يمكن أن يكون خطأ نحوياً ، إذ لا يمكن أن يتصور
في ذلك الأسلوب الأدبي الكامل الذي يعد البرهان العظيم على دعوة النبي ﷺ ،
فلو كان في الآية خطأ لكان تصحيحة بعد قليل أمراً ضرورياً وسهلاً ومحكماً .

إذا لم يقع هذا من النبي الذي كان يقرأ القرآن ، لنفسه ولصحابته ، فإنه
يستتبع ألا يكون الخروج على القاعدة المطردة خطأ عنده ، وهو يشهد بأن
(محمد) لم يكن لديه أي مقدرة على التصرف في النص القرآني .

وفضلاً عن ذلك ، فلنسنا نعالج هنا هذه المسألة في صورتها الأدبية ، وإنما
نعالجها من الوجهة النفسية التحليلية . فنحن نلاحظ في هذا الخروج عن المألوف
أن الذات الحمدية تمثل في وضوح وعلى التوالي في دورين مختلفين ، فهي مخاطب
مقصود مباشرة داخل في ضمير المخاطبين الذين يتوجه إليهم الخطاب ، ثم إنها تصير
شاهدأ غير مقصود مباشرة ، موضوعاً بصفة طارئة أمام مشهد عبر عنه القرآن
بضمير الغائبين ، هذا الانتقال غير المتوقع يستتبع حالتين نفسيتين لا يمكن أن
تنتج الثانية منها إلا من الأولى ، أو هي نفسها هذا الحال ، إذا ما تثثنا ذلك في
ذات معينة ، هي هنا ذات محمد .

وبعبارة أخرى ، يجب أن يكون الضمير (هم) في الآية المذكورة النتيجة النفسية المباشرة للضمير (كم) ، أو هو يصدر عنه بواسطة نتيجة وسيطة ^(١) .

بينما نلاحظ من الوجهة النفسية أن الانتقال من (كم) إلى (هم) الفاعل المتابع في الآية ، لا يحدث انتقالاً ما في طبيعة الصورة ، فنحن نلاحظ فيها أن الأفعال ترسم المشهد نفسه الذي يتتابع على اللوحة نفسها ، على حين يتغير الفاعل ، كما هو واضح .

فالانتقال إذن جزئي ، ولكن هل يمكن من أجل هذا أن يحمل ذلك الانتقال الجزئي على مجرد تداعي المعاني الذي يجري في ذات محمد اللاشعورية ؟

الواقع أنه عندما يتدخل تداعي المعاني في عمليات اللاشعور . ولا سيما في الرؤى - فإنه لا يعدل الوضع النسبي للفاعل بانتقاله من شخص لاخر فحسب ، ولكن الفاعل نفسه يتغير فعله .

فهنا على وجه التحديد فاعل ضمفي هو الذات الحمدية التي يتغير وضعها بالنسبة للفاعل الحقيقي ، ولكن الفعل يستمر كما هو في الآية المذكورة .

ولهذا فإن تداعي المعاني لا يمكن أن يتصور هنا على أنه السبب النفسي الذي حتم تعديلاً معيناً لا يظهر إلا في الشكل النحوي للآية ، دون أن يتغير أي تفصيل في المشهد .

لقد سبق للمفسرين القدماء (التقليديين) أن بحثوا هذه المشكلة التي أطلقوا عليها اسم (الالتفات) .

(١) المقصود بالنتيجة النفسية هنا هو حل الموقف النفسي ، والمفروض أن كل عقدة تستلزم حلأً مناسباً يعد نتيجة نفسية لها ، ولنضرب على ذلك مثلاً بالكلمة التي تذكر مبتدأ في أول الجملة فإن عقدة حلها هو الخبر . وكذلك يمكن تطبيق هذه الفكرة على الآية إذ أن الموقف الثاني لا بد أن يكون ناتجاً عن الأول بوصفة نتيجة نفسية . (المترجم)

والالتفات مجرد تفسير سطحي للمشكلة التي نبحث عن مفتاحها ، فهو تفسير أدبي محض لا يدل من الوجهة النفسية إلا على حدوث مقصود أساساً ، صادر عن ذات مختارة هي (الملتفت) .

فهو لهذا لا يقدم البيان النفسي التحليلي الذي نريده ، إذا عدنا جميع الصفات التي أثبناها للذات الحمدية^(١) .

وبعد ، فهها كان فيما سنترره مخالفة للتقليد الديكارتي الذي يحصر العقل في قواعد منهج وضعي ضيق ، فنحن مضطرون إلى أن نبحث عن مفتاح المشكلة خارج نفسية الذات الحمدية .

ولا بد لنا من أن نحدد حينئذ مستوى آخر تم فيه أولاً الظاهرة القرآنية وتكلّم قبل أن تؤثر على الذات التي تحملها وتبلغها .

وبما أنه لا يمكننا أن نتصور هذا المستوى في ذات إنسانية أخرى ، فمن الواجب أن نراه ضرورة في ذات غيبية (ميتافيزيقية) لا يربطها بالذات الحمدية رباط سوي رباط (الوحي) .

☆ ☆ ☆

(١) يقصد بالصفات ما أثبته بحثنا من أن النبي ﷺ خلص ذو فكر موضوعي .. الخ ...

الفكرة الحمدية

مر رسول الله ذات يوم أمام بستان أنصاري في طرف المدينة ، فأشار عليه الرسول بأن يستخدم طريقة معينة في تأثير النخل ، ولكنه بعد ذلك وجد أن الأنصاري قد ترك الطريقة التي نصحه بها لأنها لم تحقق له أقصى ما يمكن من المصلحة ، فأقره النبي ﷺ على ذلك ، معلنًا على الفور أن التجربة الشخصية مقدمة على رأي الفرد ، حتى ولو كان النبي ^(١) .

فن الناحية التاريخية تعد تلك النصيحة التي أبدتها الرسول حديثاً ، وهي

(١) الصحيح في هذا الموقف هو أن النبي ﷺ لم يقترح طريقة معينة في تأثير النخل ، فقد ورد في صحيح مسلم ج ٤ ، تحت عنوان (باب وجوب امثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي) : عن موسى بن طلحة عن أبيه قال مرت مع رسول الله ﷺ بقوم على رؤوس النخل فقال : « ما يصنع هؤلاء ؟ » فقالوا : يلحوظون يجعلون الذكر في الأثنى فتلحق ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أظن يغنى شيئاً » . قال فأخبروا بذلك فتركوه ، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني إنما ظنت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثكم عن الله شيئاً فخذوا به فإني لن أكذب على الله عز وجل » . وعن عائشة وعن ثابت وعن أنس أن النبي ﷺ من بقوم يلحوظون فقال : « لولم يفعلوا لصلاح » قال فخرج شيئاً [وهو رديء الترا] ، فر بهم فقال : « ما لتخلكم » قالوا : قلت كذا وكذا . قال : « أنت أعلم بأمر دنياكم » .

فن هذا يظهر أن النبي لم يقترح طريقة معينة في هذا الصدد ، بل إنه ﷺ قد شرك في صلاح نتيجة علهم ، وقد كان في عرضه لرأيه يسوقه على سبيل الاحتمال دون إلزام . ولذلك عقب على النتيجة قائلاً في الأول (إني إنما ظنت ظناً) وفي الثاني (أنت أعلم بأمر دنياكم) وقد ذكر المؤلف في المامش تعليقاً أورد فيه أن (قصة البستانى مروية بطريقتين مختلفتين إحداهما عن سفيان بن العاص والأخرى عن أنس) ولم أجده فيها وصلت إليه يدي من المراجع ذكر لصحابي يدعى سفيان بن العاص .

بذلك ذات قيمة مطلقة تقريراً في نظر المفسرين والفقهاء ، ومع ذلك فها نحن أولاً نرى أن النبي قد ألغى بنفسه هذا الحديث أمام تجربة بستاني بسيط ، مقرراً بذلك أسبقية العقل والتجربة في سير النشاط الدينيي .

على أننا لا نجد حالة واحدة نسخ فيها النبي آية قرآنية بتجربة فردية حتى ولو كانت تجربته هو نفسه^(١) .

بل على العكس ، ترينا بعض الأحداث في تاريخه تسكه الشديد المطلق في هذا الباب ، فهو لم يتخيل مطلقاً عن آية قرآنية منها كان الثن ، بل نراه يعدل فجأة عن الحج الذي كان قد اخذه له أهابته في السنة السابقة ، وكان السبب الوحيد لهذا العدول هو أن الوحي قد أمره به ، فنزل على أمره ، منها أوشك هذا أن يثير فوضى في المعسكر الإسلامي^(٢) .

فنحن إذن أمام فكرتين تتمثلان في نظر النبي بقيتين مختلفتين : الفكرة الشخصية التي تنبع من معرفته البشرية ، والوحي القرآني المنزل عليه .

(١) ذهب بعض العلماء إلى جواز نسخ الكتاب بالسنة ، واستشهدوا لذلك بقوله تعالى : « **وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ** مِنْ نَاسِكُمْ فَاسْتَهْدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهَدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبَيْوْتِ حَتَّى يَتَوَفَّهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ مِنْ سَبِيلًا **كُمْ** [النساء ٤ / ١٤] .

قالوا : إن الحكم في هذه الآية منسخ بقوله **عَلَيْهِنَّ** « **خَذُوا عَنِي** خذوا عنِي ، قد جعل الله هن سبيلاً ، الثيب ترجم والبكر جلد » وفي الباب أقوال أخرى لا تجيز نسخ الكتاب بالسنة . أما نسخ السنة بالكتاب أو نسخ الكتاب بالكتاب فهو مما اتفق بصدده العلماء . ويرى المؤلف أن قوله **عَلَيْهِنَّ** « **خَذُوا عَنِي** » . إنما كان لشرح الآية لا لنسخها . (المترجم)

(٢) لم يكن أمر الوحي هنا في صورة آية قرآنية ، وإنما يبدو أنه كان مجرد أمر بالصلح والرجوع ، فن الثابت أن النبي **عَلَيْهِنَّ** قد واجه ثورة بعض أصحابه كعمر بن الخطاب حين قال له ، « **عَلَام نَعْطِي الدِّينِيَّةَ فِي دِيَنِنَا ؟** » بقوله « **أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهِ** : **وَلَنْ أَخَالِفَ أَمْرَهُ وَلَنْ يُضِيغَنِي** » هذا هو ما ذكره المقرizi في (إمتاع الأسماع) ص ٢٩٢ ، وليس في كلام المؤلف ما يشير صراحة إلى أن الوحي كان هنا آية ، وإن أوهم السياق خلاف ذلك . (المترجم)

ومن الطبيعي أن نبحث هنا في وضع فاصل دقيق واضح بين هذين الأسسين في ضمیره ﷺ ، كيما نزيد في إيضاح الظاهرة القرآنية .

ويظهر هذا التمييز أيضاً لدى الأنبياء الآخرين كما استطعنا أن ندرك هذا في بحث حالة (أرمياء) .

فعندما رأى هذا النبي ذات يوم (حنانيا المتنبئ) يتخذ موقف المعارض لدعوته ، وهو يسوق الطهانينة إلى قلوب بني إسرائيل فيما كتب الله عليهم ، فوجئ به وهو يمسك بنيره الذي يطوق به عنقه ، فيحطمه صارخاً : « هاك ما قال الله : سأحطم هكذا طوق ملك بابل » .

لقد كانت هذه الكلمة - بصفة عامة - التكذيب الصريح القاطع لدعوة أرمياء كلها ، ولكنه أجاب عن طواعية : « أمين ، حق الله ما تقول » .

ويفسر الأستاذ (أندريله لودز M. A. Lods) - الذي يورد هذه الفقرة من كتاب أرمياء - هذا الموقف الغريب في قوله : لقد كان يظن أن الله قد رجع في قضائه⁽¹⁾ .

لقد كان هذا بلا شك هو التفسير الوحيد المعقول لرفع التعارض الذي قد يبدو في موقف النبي ، فإن (أرمياء) قد أبلغ ندرة التشاومية باسم الرب ، وهو أيضاً باسم الرب قد آمن بضرورة التزام الصمت لحظة تنبؤ (حنانيا) ، لكن هذا الصمت لم يكن بناء على آية موحاة إلى (أرمياء) ، بل بناء على اجتهاده الشخصي ، فلقد قدر أن من المحتمل أن يكون (حنانيا) قد تلقى وحيًّا من الله .

ومع ذلك فإن الوحي يأتيه على الفور ليصحح هذا التقدير ، فإذا بالنبي يعاود في سرعة نهيج دعوته المألف .

(1) أندريله لودز (أنبياء بني إسرائيل) (Les prophètes d'Israël) ص 188

هذا الحادث العارض يفصل بوضوح فكرة الإنسان عن وحي النبي في ضمير أرماء ، تماماً كا تفصل المشورة السابقة حديث النبي عن الوحي القرآني .

وفضلاً عن ذلك فإن القرآن يثبت تماماً في النطاق الزمني هذه النسبة بين المصدرين في قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أُوحِيَ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا إِلَيَّا نَّأَيْتَنَا ﴾ [الشورى ٤٢ / ٥٢] .

فقوله « ما كنت » أي قبل غار حراء ، والنبي في تلك الفترة لم يكن لديه سوى معلوماته الشخصية ، وهي معلومات تبدو لنا عديمة الصلة بالوحي القرآني ، إذا ما أعطينا الآية المذكورة كل معناها التاريخي والآية تثبت عرضاً - ولكن بطريقة صريحة - مصدر الوحي القرآني بعد حراء ، وهو على كل حال ليس قبل (إيحاء الروح) المأخذ من قوله : « أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا ». هذه النقطة ثابتة تاريخياً ، لأن الآية التي ندرسها قد مرت أولاً بشعور النبي ، و تعرضت لنقده الذاتي الذي يجيد تماماً هذا الفصل الضروري لاقتناعه الخاص .

وفضلاً عن ذلك فإن القرآن قد دأب على تذكيره ، وتأكيد هذا الفصل في آيات كثيرة ، وهكذا آية تؤدي ما أدته الآية الأولى :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتَلَوَّ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ، وَلَا تَخْطُطْهُ بَيْنَكَ ﴾ [العنكبوت ٤٨ / ٢٩] .

فتاريخ الوحي القرآني يبدأ إذن (بعد القرآن) وليس (قبله) ، وذلك هو ماتوحيه الآية على وجه التحديد .

أما من الوجهة النفسية المتصلة بشعور النبي ﷺ ، فإن هذه الآية تعزز ما قبلها في فصل السنة الحمدية عن الوحي القرآني .

وإن القرآن ليلح كثيراً في هذه النقطة ، كا يمكن أن ندركه في الآية :
﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ، وقد أتيناك من لدنا ذكراً ﴾ .
[طه ٩٩/٢٠].

وفي آيات أخرى يبدو القرآن وكأنما يشير إلى تحديد مقصود للوحي في نقطة معينة بالذات ، كأنما ليتعلق ضمير النبي واهتمامه بأشياء لم تكن بعد قد أوحيت ، أو لم تنزل عليه قط ، وهكذا مثلاً على ذلك قوله تعالى :

﴿ ولقد أرسلنا رسلًا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم تقصص عليك ﴾ . [القصص ٢٨/٢٨].

ففي هذه الآية يمضي الوحي القرآني ليس أبعد من الفكرة الحمدية فحسب ، ولكن أبعد مما قد أوحى فعلاً .

ومن الممكن أن نذكر آيات كثيرة ، ولا سيا الآية :

﴿ واسأله من أرسلنا قبلك من رسلنا ، أجعلنا من دون الرحمن آلةً يعبدون ﴾ . [الزخرف ٤٣/٤٥].

وهي تؤدي المعنى نفسه .

وأحياناً يرد الفصل في القرآن بين الفكرة الحمدية والفكرة القرآنية بمناسبة حادث يجري في الحياة العادية :

﴿ ولو نشاء لأريناكم فلعلكم بسيماهم ﴾ [محمد ٤٧ / ٣٠].

وأخيراً ، قد نرى هنا الفصل في التعارض بين الفكرة الحمدية والفكرة القرآنية ، كا في هذه الآية التي سوف نحللها فيما بعد^(١) ، وهي قوله تعالى :

(١) راجع الفصل الخاص بالمناقضات .

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْضِي إِلَيْكَ وَحْيَهُ ﴾ [طه / ٢٠ - ١١٤] .

ويجب أن نأخذ في اعتبارنا - عندما نبحث هذا الفصل - عنصراً آخر خارجياً يؤكده بدوره ، هو عنصر الصياغة الخاصة بالحديث ، فلقد قيل - وهو القول الحق : « إن الأسلوب هو الرجل » .

ومن المقطوع به أن الأحاديث الحمدية ، والوحي القرآني يتلذلان أسلوبين لكل منها طابعه ، وصياغته الخاصة .

فالعبارة القرآنية لها نسق وجرس تعرفه الأذن ، ولها هيئة تركيبية وألفاظ خاصة ، فليس من الخطأ أو الغلو في شيء أن يقال : إن الأسلوب القرآني معجز ، لا يتسع لأحد الإتيان بمثله .

ولئن كان قد روي أن الشاعر الكبير (النبي) قد حاول - دون جدوى - أن يقلده ، فإن التاريخ يسجل محاولة معينة في هذا السبيل هي محاولة (البيان العربي) الذي كتبه (الباب) .

لكنها لم تكن سوى محاولات يائسة^(١) .

وبعد ، فليس لأحد أن يرتاب فيما تحتويه هذه الآيات من فصل قاطع تاريخي ونفسي بين الفكرة الحممية والوحي القرآني ، ذلك الفصل الذي - متى استقر في شعور النبي - أضاء جوانب الظاهرة القرآنية .

☆ ☆ ☆

(١) راجع (البابية والإسلام Le Babisme et L'islam) للشيخ عبد الرحمن تاج .

الرسالة

إن من الواجب ألا نغفل أهمية التأثير السحري للكلمات على بعض العقول ذات التكوين الديكارتي ، وخاصة في عصرنا هذا الذي يحتل فيه الأسلوب العلمي مجال الدين . فهناك كلمات ترتدي أقنعة ، ولئن عرفت السياسة بعضاً منها ، فلقد كان حظ العلم كبيراً ، وليس لأحد أن يتصور الخطأ أو العدم الذي تستره هذه الأقنعة ، عندما تسيل هذه الكلمات من لعاب قلم مهيب لكاتب كبير ، فتطلق كتبه أشباحها لتخطر في عقول كثير من المتعالين ، فتزيد من سخافتها .

وهكذا صار من الشائع في أوساطنا العلمية أن يرجع الباحثون إلى الدراسات الإسلامية التي يقوم بها كتاب ، أغروا بالكتابة في كل شيء ؛ فهم يضعون كلمة في مكان حقيقة غابت عنهم ، أو لم يحاولوا إدراكتها .

وبهذه الطريقة رأينا أن (ذاتاً ثانية) تتدخل في تفسيرهم للظاهرة النبوية ، ولا سيا عند (أرمياء) ، ذاتاً أكثر من مجردة ، وغير حسية ، وبعيدة عن الاحتمال ، تعدد في نظرهم مصدراً لمعلومات الذات الحسية الأصلية . هذه الفكرة الشاذة تذكرنا من قريب بفكرة عزيزة لدى المنجمين هي فكرة (المثل الفلكي)^(١) .

ولكن لهذه الكلمات الساحرة تأثيراً فعالاً على بعض العقول ، أشبه بسحر الصور والرسوم في نظر الأطفال .

(١) المثل الفلكي مأخوذ من فكرة أفلاطون عن عالم المثل وعالم الصور ، ولكن بصورة أخرى تناسب أفكار المنجمين الفلكيين . (المترجم)

فنـ المـ عـلـوـمـ أـنـ مـنـ يـكـوـنـ مـتـلـأـ بـالـثـقـةـ فـيـ قـيـةـ بـعـضـ الـكـتـابـ ،ـ لـاـ يـبـحـثـ عـنـ قـيـةـ الـكـلـمـةـ الـعـبـرـةـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ الـفـكـرـةـ الـتـيـ يـعـبـرـونـ عـنـهـ .

وـمـنـ هـذـاـ الـقـبـيلـ كـلـمـةـ (ـلـاـشـعـورـ)ـ ،ـ فـقـدـ لـعـبـتـ عـلـىـ أـقـلـامـ الـكـتـابـ دـوـرـاـ نـظـرـيـاـ هـامـاـ فـيـ تـفـسـيرـ الـظـاهـرـةـ الـقـرـآنـيـةـ .

إـذـاـ أـرـدـنـاـ أـنـ نـفـهـمـ مـعـنـىـ هـذـاـ الـمـصـلـحـ فـيـ نـظـرـيـاتـ عـلـمـ الـنـفـسـ ،ـ وـجـدـنـاهـ فـيـ مـنـتـهـىـ الـغـمـوـضـ ،ـ فـهـوـ لـاـ يـعـنـيـ شـيـئـاـ مـحـدـداـ كـاـ تـعـنـيـ مـثـلـاـ الـمـصـلـحـاتـ الـمـعـرـوـفـةـ كـالـتـذـكـرـ وـالـإـرـادـةـ .

إـنـ نـظـرـيـةـ (ـلـاـشـعـورـ)ـ مـاـ تـرـازـالـ فـيـ مـرـحـلـةـ نـشـوـئـهـاـ ،ـ وـمـعـ ذـلـكـ فـقـدـ اـسـتـخـدـمـوـهـاـ لـكـيـ يـفـسـرـوـنـاـ كـاـ يـدـعـونـ .ـ الـظـاهـرـةـ الـقـرـآنـيـةـ بـطـرـيـقـةـ مـوـضـوـعـيـةـ .

وـمـنـ الصـعـبـ عـلـيـنـاـ أـنـ نـعـتـقـدـ أـنـ هـؤـلـاءـ الـمـؤـلـفـينـ قـدـ بـذـلـواـ أـقـلـ الـجـهـدـ لـكـيـ يـتـفـهـمـوـاـ الـمـوـضـوـعـ .

فـهـاـ لـاـ شـكـ فـيـهـ أـنـ الـذـاتـ الـإـنـسـانـيـةـ تـحـتـوـيـ عـلـىـ مـجـالـ مـعـيـنـ تـتـكـوـنـ فـيـ الـظـواـهـرـ الـنـفـسـيـةـ الـغـامـضـةـ ،ـ الـتـيـ لـاـ تـخـضـعـ لـسـلـطـانـ الـشـعـورـ ،ـ كـالـأـحـلـامـ مـثـلـاـ .

فـهـذـاـ الـمـجـالـ الـمـظـلـمـ الـذـيـ تـدـوـيـ فـيـهـ بـعـضـ طـوـارـئـ الـحـيـةـ الـنـفـسـيـةـ الـشـعـورـيـةـ فـيـ الـفـرـدـ ،ـ ذـوـ عـلـاقـةـ وـاضـحةـ بـالـحـالـاتـ الـشـعـورـيـةـ ،ـ فـلـوـ أـرـدـنـاـ لـأـطـلـقـنـاـ لـفـظـ (ـلـاـشـعـورـ)ـ عـلـىـ هـذـاـ الـمـجـالـ الـمـظـلـمـ ،ـ وـجـمـيعـ الـعـمـلـيـاتـ الـتـيـ تـمـ فـيـهـ أـشـكـالـ (ـمـحـوـرـةـ)ـ خـاصـةـ لـفـكـرـةـ أـوـ وـاقـعـ مـرـبـالـشـعـورـ ،ـ فـيـتـصـ الـلـاـشـعـورـ هـذـهـ الـعـنـاـصـرـ الـشـعـورـيـةـ ،ـ وـيـوـدـعـهـاـ خـيـلـتـهـ لـكـيـ يـقـلـبـهـاـ غـالـبـاـ إـلـىـ رـمـوزـ ،ـ إـلـىـ أـحـلـامـ ،ـ إـلـىـ حـدـيـثـ نـفـسـيـ ،ـ إـلـىـ إـلهـامـ ؛ـ وـلـكـنـ هـذـهـ الـرـمـوزـ تـحـفـظـ بـعـالـمـ الـفـكـرـةـ أـوـ الـوـاقـعـ الـذـيـ تـوـلـدـتـ عـنـهـ .

لـاـ شـكـ أـنـ هـذـهـ الـعـلـاقـةـ تـتـفـاـوـتـ فـيـ غـمـوـضـهـاـ ،ـ وـلـكـنـ التـحـلـيلـ قـدـ يـكـشـفـ عـنـهـ :ـ إـذـ مـنـ الـمـكـنـ أـنـ نـجـدـ فـيـ حـلـ أـوـ كـاـبـوـسـ الـطـرـيـقـةـ الـتـيـ اـتـيـعـهـاـ الـلـاـشـعـورـ فـيـ

صياغة رمزه بالرجوع إلى حادث سابق تسبب فيه ، فهو حساسية خاطفة ، أو تذكرة قاس ، أو هو راجع إلى يسر المضم أو عسره ... الخ ..

فاللاشعور يعمل هنا عمل المستقبل الكهربائي بالنسبة للمولد الكهربائي الذي هو الشعور ، وعليه ففي هذا المجال الأخير يجب أن نلتمس دائمًا مصدر العمليات النفسية التي يصفونها باللاشعورية .

وعندما يتضح أن فكرة ما لا تخضع مطلقاً للذات الشعورية ، فمن الممكن أن نفهم من هذا أنها بالضرورة أجنبية عن هذه الذات ، وأنه لا محل لها في اللاشعور .

هذا هو المبدأ النبدي الذي نريد أن نتخذه هنا أساساً لدراسة الوحي القرآني .

☆ ☆ ☆



المصائر الظاهرة للوحي

الوحي بوصفه ظاهرة تتدلى حدود الزمن بتميز بخصائص ظاهرتين هامتين ، وذلك بصرف النظر عن طبيعته في ذاته ، وعن حامله النفسي خلال الذات الحمدية ، هاتان الخصائص هما :

- أ - تنجم الوحي .
- ب - وحدته الكبيرة .



التنجيم

يضم الوحي في مجموعه ثلاثة وعشرين عاماً ، فهو لا يكُون ظاهرة مؤقتة أو خاطفة . ولقد نزلت الآيات منجمة ، بين كل وحي وما يليه مدة انقطاع تتفاوت طولاً وقصراً .

ولقد ينقطع الوحي مدة أطول مما ينتظره النبي ، وخاصة عندما يحتاج أن يتخذ قراراً يعتقد أن من الواجب ألا يصدره قبل تصديق السماء عليه .

وأوضح مثال على ذلك موقفه إزاء قرار الهجرة ، فلقد غادر أصحابه مكة فارين بدينهم ، بينما كان يعتقد أنه لا بد - فيما يتعلق بشخصه - أن ينتظر أمراً صريحاً من الوحي .

ومثال آخر عندما كان الأمر بالنسبة له يحتم اتخاذ قرار في موقف محير مريب ، بينما ينتظر - على أخر من الجر - وحي الله الحاسم .

ولقد تعرض النبي ﷺ مثل هذه الحيرة في حادثة الإفك ، التي لم يفصل فيها الوحي إلا بعد شهر^(١) من الانتظار على مضض .

كان هذا يبدو - في الظاهر - تورطاً وحرجاً لم يلبث المستهزئون أن وجهوا من أجلها تقدم الجارح إلى النبي ، وكان هو يتألم لذلك أحياناً .

وعليه فهذا كان الافتراض الذي يوضع عن طبيعة القرآن ، فإن هناك سؤالاً

(١) المترجم

كذا ورد في حديث عائشة الذي رواه البخاري .

كبيراً يتردد حول هذا الموضوع : ألم يكن من الممكن أن يتذبذب جملة واحدة ، من العبرية الإنسانية التي ربما يكون قد صدر عنها^(١) ؟ .

ولكنا برجوعنا خلال الزمن نستطيع أن نحكم بأهمية هذا التنجيم الفذ للوحي ، أهمية قصوى لنجاح الدعوة .

إذ بماذا كنا نفسر من الوجهات التاريخية والاجتماعية والأدبية قرآنًا ٰ يهبط كأنما هو برق خاطف في ظلمات الجاهلية ؟

وماذا يعني هذا بالنسبة لتاريخ النبي ، لو أنه كان قد تلقى وحياً كلياً فجائياً ، لو أنه تلقاه بوصفه وثيقة ، أي نوعاً من صحف التفويض لدى بني الإنسان ؟ ..

أي أمل كان يمكن أن يتتسه عنده قبيل بدر مثلاً ، لو أنه بدلاً من أن يتوقع إمداد الملائكة ظل يكرر آية سبق أن حفظها عن ظهر قلب ؟

إننا ببحثنا مسألة تجزئة الوحي في ضوء هذه النظارات نستطيع أن ندرك أولاً قيمته التربوية .

فتلك في الواقع هي الطريقة التربوية الوحيدة الممكنة في حقبة تسمى ببلاد دين وبزوغ حضارة .

وسيهدي الوحي خلال ثلاثة وعشرين عاماً سير النبي وأصحابه خطوة خطوة نحو هذا المدف البعيد ، وهو يحوطهم في كل لحظة بالعناية الإلهية المناسبة . فهو يعزز جهودهم العظيمة ، ويدفع أرواحهم وإرادتهم نحو هدف الملحة الفريدة في التاريخ ، فيكرم بأية صريحة قضاء شهيد أو استشهاد بطل .

كيف كان القرآن يؤدي دوره حيال طبيعة الإنسان التي جاء يصوغها في ذلك العصر ، لو أنه سبق بنزوله أحداث حنين وأحد ؟ .. وماذا كان يكون ، لو

(١) هذا تسؤال افتراضي على لسان المباحثين .

أنه لم يأت لكل ألم بعذائه العاجل ، ولو أنه لم ينزل لكل تضحيه جزاءها ، ولكل هزيمة أملها ، ولكل نصر درسه في الاحتشام ، ولكل عقبة إشارة إلى ما تقتضيه من جهد ، ولكل خطر أدبي أو مادي روح التشجيع اللازم لمواجهته ؟

وكما كان الإسلام ينتشر في ربا الحجاز ونجد ، كان الوحي ينزل بالدرس الضروري في المثابرة والصبر ، والإقدام والإخلاص ، يلقن أولئك الأبطال الأسطوريين ، أبطال الملهمة الخارقة .

فهل كان لدرسه أن يجد طريقه إلى قلوبهم وضمائرهم لو لم يكن نزوله تبعاً لأمثلة الحياة نفسها ، والواقع المحيط بهم ؟ .

ولو أن القرآن كان قد نزل جملة واحدة لتحول سريعاً إلى كلمة مقدسة خامدة وإلى فكرة ميتة ، وإلى مجرد وثيقة دينية ، لا مصدر يبعث الحياة في حضارة وليدة .

فالحركة التاريخية والاجتماعية والروحية التي نهض بأبعائها الإسلام لا سر لها إلا في هذا التنجم .

والقرآن يبرز هذه الخاصة الخفية وهو يخاطب النبي ﷺ بقوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جَمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَلِكَ لَنُثْبِتَ بِهِ فَوَادِكَ وَرَتَّلَنَا تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان ٢٥ / ٢٢].

فنزل القرآن على نجوم ، وقد كان في اعتبار الجاهليين نقصاً شاداً ، يتجلى لنا براجعتنا الزمن والأحداث شرطاً أساسياً ضرورياً لانتصار الدعوة الحمدية .

ولن يشق علينا أن نجد في هذا النهج التربوي - الذي أثار سخرية القوم ، وأزاغ النقد السطحي في عصرنا عن الجادة - طابع العلم العلوي الذي أمل (كلمة الله) بطريقة التنجم .

الوحدة الكمية

الوحي ظاهرة منجمة ، فهو في أساسه متضاد ، شأن مجموعة عدديه ، أي أنه متكون من وحدات متتالية هي الآيات ، وهذه الخاصة توحى إلينا بفكرة الوحدة الكمية : فكل وحي مستقل يضم وحدة جديدة إلى المجموعة القرآنية . بيد أن هذه الوحدة القرآنية ليست ثابتة ، فهي لا تماطل الوحدة التي تزيد في مجموعة الأعداد حين يضاف واحد إلى ثلاثة أو أربعة أو خمسة ليؤدي إلى الوحدة العددية التالية .

فإن للوحي مقياساً متغرياً هو : كيته أو سعته ، تلك السعة التي تتراوح بين حد أدنى هو الآية ، وحد أقصى هو السورة .

وتتأمل هذه الوحدة يتيح لنا بعض الملاحظات المفيدة عن العلاقة بين الذات الحمدية والظاهرة القرآنية ، إذ هي تتناسب في الزمن مع الحالة الخاصة التي سمعناها (حالة التلقي) عند النبي ﷺ .

ولقد رأينا - بصفة خاصة - أن إرادته تنعدم مؤقتاً ، إذ هو عاجز في تلك اللحظات عن أن يغطي وجهه المحتقن ، المتفصد عرقاً . فعن هذه الذات العاجزة فجأة - وللحظات - تصدر وحدة التنزيل ، وعلى هذه الذات الخارقة في حالة لا شعورية تقريرياً يطبع الوحي فجأة فقراته الوجيزة .

تلك هي وحدة (الظاهرة القرآنية) من ناحية الكم ، وهي التي ندرسها بالنسبة لهذه الذات العاجزة مؤقتاً ، والتي هي (حامل الوحي) .

هذه الوحدة تؤدي بالضرورة فكرة واحدة ، وأحياناً مجموعة من الفكر المنتظمة في أسلوب منطقي يمكننا ملاحظته في آيات القرآن ، ودراسة هذه الفكر

في ذاتها ، وفي علاقتها ببقية حلقات السلسلة ، تكشف عن قدرة خالقة ومنظمة ، لا يمكن أن تنطوي عليها الذات الحمدية ، في تلك الظروف النفسية الخاصة بحالة تلقيها الوحي ، بل حتى في ظروفها الطبيعية ، بشرط أن تقر نتائج المقياس الأول .

وحقيقة ، ماذا تقول في فكرة لدى إنسان لم يفكر فيها ، ولا يمكنه أن يفكر فيها في الحالة الخاصة التي يعانيها ؟ . وماذا تقول في هذا النسق المتصل لتعاليم تؤديها هذه الفكرة ، حين لا يتأسس هذا النسق على إرادة وتفكير منظم ؟ .

إن من الجلي أننا لا يمكن أن نتصور ذلك في النظرة الأولى ، وفضلاً عن ذلك ، فلو افترضنا أن التفكير يمكن أن يحدث لا شعورياً ولا إرادياً لدى فرد ما ، فإن النبي على الرغم من هذا لم يكن لديه الزمن المادي كما يتصور وينظم تعاليه في البرهة الخاطفة للوحي .

ولسوف نرى أن هذه التعاليم تعبرأحياناً عن أفكار خارج حدود الفكر تماماً في العصر الحمدي ، بل لا يمكن أن تخطر في فكر إنساني ، وسنورد نحن لذلك أمثلة فيما بعد في فصل (موضوعات ومواصف قرآنية) .

أما الآن ، فنحن نكون مقياساً لنحكم على صلة وحدة الوحي بالذات الحمدية . ولسنا للأسف مطمئنين إلى أن الأمثلة التي درسناها هنا تمثل تماماً هذه الوحدة أو شطراً منها .

ولكن من المستطاع أن تخلص من هذه الصعوبة ، حين نجعل وحدة التنزيل مجموع الآيات المتتابعة التي تسهم في اكتمال فكرة واحدة ، وهذا العدد يمكن أن يهبط إلى الحد الأدنى ، في آية واحدة ، ويمكن أن يرتفع إلى الحد الأقصى في سورة كاملة .

☆ ☆ ☆

مثال على الوحدة التشريعية

إن سورة النساء تقدم لنا نموذجاً تشريعياً على قانون الأحوال الشخصية ، فال فكرة التشريعية التي نبحثها تكتمل في الآيات (٢٢ - ٢٥) ، ومن المحتل أن تكون قد نزلت كلها مرة واحدة .

ولكنا مبالغة في الدقة لن ندرس هنا غير الآية (٢٣) فقط ، وهي قوله تعالى :

﴿ حَرَّمْتُ عَلَيْكُمْ أَمْهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ وَعَمَاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخْرِيَّاتِ ، وَبَنَاتُ الْأَخْتِ ، وَأَمْهَاتُكُمُ الْلَّاتِي أَرْضَعْتُمُ وَأَخْوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأَمْهَاتُ نَسَائِكُمْ ، وَرَبَائِبِكُمُ الْلَّاتِي فِي حِجُورِكُمْ مِنْ نَسَائِكُمُ الْلَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ، فَإِنَّ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ ، وَحَلَالُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ، وَأَنْ تَجْمِعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيْماً ﴾ [سورة النساء ٤/٢٣-٢٤].

فهذا نص أساسي يقرر في نفحة واحدة من الوحي تشريع الزواج بجميع تفاصيله ، وشروطه القانونية الضرورية ، وهو ينظم بصورة ما المحرمات من النساء ، مشتملاً بذلك على حكين جوهريين هما : الاستيعاب والمحصر الكامل للحالات المشار إليها ، وتصنيفها في نظام منطقي ، وعليه فتعداد ثلاث عشرة حالة ، وتصنيفها الواضح يستوجب ملابسات نفسية وزمانية متنافية مع خصائص الوحي .

والحق أن النبي لم يفكر في الحالات المذكورة ولم ينظمها أيضاً ، بينما ترينا مناقشة النص تصنيناً للحالات المحرمة بدرجة القرابة العصبية والترتيب النزولي :

الأم والبنت ، والأخت وبنات الأخ وبنات الأخت من القرابة المباشرة - والمرضة - وأخت الرضاعة من القرابة الرضاعية ، ولا يحل للمرء أن يتزوج أم امرأته ، أو ابنته أو أختها : فدرجة القرابة هنا مقيسة بالنسبة للمرأة .

ويكفي أن نلحظ أيضاً في هذا التصنيف أفضلية رباط الذكر على رباط الأنثى ، فابنة الأخ تذكر قبل ابنة الأخت ، والقرابة المتصلة بالزوج قبل القرابة المتصلة بالزوجة مع أسبقية رباط الذكورة ..

ولما كان قد سلمنا بأن النبي صلوات الله عليه لم يجمع في نفسه هذه المحرمات قبل نزولها ، وما كان له أن ينظمها خلال وضعة الوحي ، إذ هو أمر يتنافى مع ظروف حالة تلقيه للوحي ، ومع نتائج المقياس الأول ، فإن المسألة تظل معلقة فيها إذا وجب تفسيرها طبقاً للأسلوب الديكارتي .

وإنما لاضطرون هنا - كا اضطررنا هنالك - إلى أن نبحث عن تفسير للظاهرة خارج هذا النطاق .



مثال على الوحدة التاريخية

هذا المثال تقدمه لنا الآية الآتية :

- (١) ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُنَافِقُونَ﴾
- (٢) ﴿قَالُوا نَشَهِدُ إِنَّكُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ﴾
- (٣) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكُمْ لِرَسُولِهِ﴾
- (٤) ﴿وَاللَّهُ يَشَهِدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكاذِبُونَ﴾ [المنافقون ١٦٢]

ها هو ذا النص الذي ندرسه . والذى قصدنا إلى ترقيميه وتجزئته أربعة أجزاء ، ندرس فيها نظام الفقرات .

وتطهر المسحة التاريخية للآية في الفقرة الأولى التي تصور لنا حادثاً عادياً هو حضور المنافقين بين يدي النبي ، ولقد جاءت هذه الفقرة في مكانها فعلاً ، لأن الهدف العاجل من هذه الآية هو أن تصف لنا غدر المنافقين وكذبهم ، فمن الواجب أولاً أن تعطينا وصفاً لإطار الحادثة ، وهو كون المنافقين في حضرة النبي . أما الأفكار التالية لذلك فينبغي أن تجيء ، وفق نظام طبيعي يتبع درجة الأهمية ، أي ينتقل من الفكرة الرئيسية إلى الفكرة التابعة ، وخاصة في الأسلوب الخطابي كما هو شأن القرآن .

والفكرة الرئيسية هنا هي أن يعلن غدر المنافقين ، وأن يكتذبوا في مقالتهم .

إذا ما طبقنا هذه الملاحظة على ترتيب أفكار الآية صارت هكذا :

- (١) إذا جاءك المنافقون
- (٢) قالوا نشهد إنك لرسول الله
- (٣) والله يعلم إنك لرسوله
- (٤) والله يشهد إن المنافقين لكاذبون

وبهذه الصورة تصبح الآية بالتدقيق كاملة ، ومطابقة للتركيب العربي ، فيما عدا القلب الذي طرأ على وضع الجملتين (٣ و ٤) لنردها إلى ترتيبها الطبيعي ، ومع ذلك فربما نلاحظ أن الآية تتعرض في نسقها الجديد لنقد في الصميم ، إذ تكون برهاناً خطيراً ضد القيمة العلوية للوحى ، لأن معنى الفقرة (٤) كله قد أصبح في التنظيم الجديد تكذيباً ، لالغدر المنافقين ، بل لإقرارهم وشهادتهم بأنه رسول الله ، ففي التركيب القرآني للأفكار دقة مذهلة ، لأن الفقرة الثالثة التابعة تؤكد أولاً صحة رسالة النبي - وهو ما شهد به المنافقون - قبل أن يعلن كذبهم في الفقرة الرابعة الرئيسية ، هذا الترتيب الدقيق الذي يتميز بالعمق واليقظة البالغة يتنافى - كا يحب أن نكرر - مع الظروف النفسية والزمنية التي تبرق فيها (الوحدة الكية) للقرآن ، حتى كأنما هي ومضة خاطفة .

وهو يتنافى أيضاً مع الارتجال والتلقائية لأسلوب القرآن ، وواجبنا أن نذكر القارئ بأن الخطاب القرآني من الناحية الشكلية ، يعد عرضاً شفوياً لاتظفر فيه الفكرة بالزمن المادي الكافي ، لتحقيق الدقة المنطقية التي نلمسها في الأسلوب المكتوب .

فليس لدى الإنسان عندما يتحدث وقت لكي (يدير لسانه في فمه سبع مرات) ، والأسلوب الخطابي عموماً عرضة لزلات اللسان ، على حين يقل تعرض الأسلوب المحرر للأخطاء العلمية ، لأن لدى الكاتب فرصة (ليغمس القلم في الدواة سبع مرات) ، قبل كتابة الفكرة .

فبحث الوحدة الكلية ، تلك الومضة الروحية من الوحي ، يبرز في آيات القرآن دلائل ترتيب وتفكير وإرادة ، تعجز عن تفسيرها في حدود المعلومات التاريخية ، والنفسية ، التي أثبتناها للذات المحمدية .



الصورة الأدبية للقرآن

إن الجانب الأدبي للرسالة ، ذلك الذي كان في نظر المفسرين التقليديين موضوع الدراسة الأول ، يفقد بعض أهميته شيئاً فشيئاً في عصرنا الذي يهتم بالعلم أكثر من اهتمامه بالأدب^(١) .

وحقاً إن سيطرتنا القاصرة على عقرية اللغة الجاهلية ، لا تسمح لنا بأن نحكم - عن معرفة - على سمو الأسلوب في القرآن . ومع ذلك فإن هناك آية تستحق انتباها ، وهي ت Medina في هذه النقطة بعلومات تاريخية بالغة الأهمية . إذ أن القرآن يؤكّد صراحة هذا السمو الذي يقصد به إعجاز العقرية الأدبية في عصره ، فهو يقذف في وجوه معاصريه بهذا التحدي المذهل :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رِبِّ مَا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مُّثِلِهِ وَادْعُوا شَهِداءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة ٢٢/٢]

ولم يذكر التاريخ أن أحداً قد أجاب على هذا التحدي ، وبهذا يمكن أن نستخلص أنه قد ظلل دون تعقيب ، وأن إعجازه الأدبي قد أفحى فعلاً عقرية ذلك العصر.

ولكن لدينا - فيما يخص بحثنا هذا - طرقاً أخرى لإصدار حكم ، في هذا الجانب الخاص من المسألة .

فالنفس البدوية طروب في جوهرها ، وجميع مطاعها وانفعالاتها واندفاعاتها إنما تتجلى في تعبير موسيقي موزون ، هو بيت الشعر الذي سيكون مقاييسه

(١) ذكرنا أسباب ذلك في المدخل .

خطوة الجمل السريعة أو الطويلة ، وعلم العروض نفسه في جوهره بدوي ، إذن فصورة العبرية البدوية قد انطبعت في الشعر .

هذه اللغة الرخية التي تردد خلالها صهيل الخيال ، ودلت في جوانبها قعقة السيف الهندية ، قد كانت تتصف هنا وهناك صيحات الحرب يطلقها الفتىان في كل مكان ، إنما تعبير عن الحماسة الأسطورية التي كان بطلها (عنترة) ، أو عن النشوة الشعرية التي كان فتهاها (امرؤ القيس) .

والجاز في اللغة العربية - كما سنرى فيما بعد - يستعير عناصره من سماء بلا سحاب ، ومن صحراء بلا حدود ، تعبيرها القطا أو تشب خلالها الآرام ، فهي لا تعبّر عن أية حيرة روحية أو ميتافيزيقية ، وهي تجاهل دقائق المنطق ، وتجريد الفكر الفلسفى أو العلمي أو الديني .

وثرتها اللغوية هي تلك التي تحقق حاجات الحياة البسيطة الخارجية أو الداخلية ، لبدوي لا لحضري .

تلك هي الخصائص العامة لهذه اللغة الجاهلية الوثنية المترحلة البرية ، التي سيطّوها القرآن بعقرّيته الخاصة كما يعبر عن فكرة عالية .

وسيختار القرآن للتعبير عن هذه الفكرة صورة جديدة هي : (الجملة) . فالآلية القرآنية ستقصي ناحية شعر البدية ، ولكن نسقه سيبقى على كل حال ، إذ هي قد تحررت من الوزن فحسب فاتسعة مجالها .

وهناك شهادات سجلتها لنا السيرة في ذلك العصر ، تقدم لنا معلومات واسعة عن التأثير الغلاب الذي كان لآيات القرآن على النفس البدوية .

فعمّر رضي الله عنه يتحول إلى الإسلام بفعل هذا التأثير ، على حين قد عبر الوليد بن المغيرة - الذي كان مثالاً في الفصاحة والفخر الأدبي - عن رأيه في

(سحر القرآن) بقوله : « والله لقد سمعت كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لثر ، وإن أسفله مغدق ؛ وإنه يعلو ولا يعلو عليه ». .

قال ذلك ردأ على أبي جهل الذي سأله عن رأيه فيما سمع من (محمد) . هذه اللغة التي لم تعبر حتى تلك اللحظة - قبيل الرسالة - إلا عن ذكاء بدو الصحراء ، تحتاج بقدر ما أن تشي لكي تشبع رغبات عقل واجهته - منذ ذلك الحين - المشاكل الغيبية والشرعية والاجتاعية بل العلمية أيضاً .

إن ظاهرة لغوية كهذه فريدة في تاريخ اللغات ، إذ لم يحدث للغة العربية تطور تدريجي ، بل بعض ما يشبه الانفجار الثوري المباغت ، كما كانت الظاهرة القرآنية مباغتة .

وبهذا تكون اللغة العربية قد مرت طفراً من المرحلة اللهجية الجاهلية إلى لغة منظمة فنياً ، لكي تنقل فكرة الثقافة الجديدة والحضارة الوليدة .

لقد ذهب بعض المفسرين إلى أن القرآن لم يستخدم مطلقاً ألفاظاً أجنبية عن لهجة المحاجز ، مع أنه من بين أن في القرآن ألفاظاً جديدة ، وخاصة تلك الألفاظ الآرامية التي استخدمها لتعيين مفاهيم توحيدية جديدة من الناحية النوعية ، كلفظ (ملوكوت) ، والأسماء الخاصة مثل (جالوت وهاروت وماروت) ، فمن وجهة الدراسات اللغوية يبدو القرآن وكأنما قد استحضر ثروته اللفظية الخاصة ، وأنشأها إنشاءً بطريقة فجائية وغريبة .

هذه الظاهرة قد خلقت من الوجهتين الأدبية واللغوية فصلاً تماماً بين اللغة الجاهلية واللغة الإسلامية .

وليس يغض من شأن هذه النتيجة ذلك الفرض الباطل الذي قال به المستشرق (مرجليليوث) ، فإن الجدال حول هذه المسألة قد صفي وأغلق في مصر

بما قام به الرافعي ومدرسته من دراسات ، فلم يعد (لفرض) العالم الإنجليزي
مجال إلا بعض الدراسات المغرضة .

وفضلاً عن ذلك فليس من الممكن أن نتصور : كيف ، ولماذا اخترع بعض
الناس نوعاً أدبياً رصيناً كالشعر الجاهلي ، ثم اختلقوا له أسماء شعرائه ومؤلفيه^(١) ؟
إن هذا غير مفهوم .

أية كانت وجهة الأمر ، فإن المسألة اللغوية التي أشارها القرآن تستحق في
ذاتها دراسة جادة تضم ألفاظه الجديدة ، واستخدامه الفذ للكلمات ، وخاصة في
مجال الأخرويات ، وربما ظفر علم التفسير من ذلك ب المجال رحيب يستطيع فيه
أن يلاحظ امتداد الظاهرة القرآنية .

ولقد كان حتّى على القرآن - إذا ما أراد أن يدخل في اللغة العربية فكرته
الدينية ، ومفاهيمه التوحيدية - أن يتجاوز الحدود التقليدية للأدب الجاهلي .
والحق أنه قد أحدث انقلاباً هائلاً في الأدب العربي بتغييره الأداة الفنية في
التعبير ، فهو من ناحية قد جعل الجملة المنظمة في موضع البيت الموزون ، وجاء
من ناحية أخرى بفكرة جديدة ، أدخل بها مفاهيم ومواضيعات جديدة ، لكي
يصل العقلية الجاهلية بتيار التوحيد .

على أن هذه المفاهيم ليست مترجمة في آيات القرآن فحسب ، بل إن القرآن
قد هضها وقتلها ، ثم كيّفها حتى تناسب العقلية العربية .

وما يدلنا على هذا ، أن نأخذ مثلاً التعبير الإنجيلي (مُلْكُ اللهِ de Royaume
Dieu) ونرى هل نجد في القرآن بالتعبير نفسه ؟

إن القرآن لم يضعه بحرفه ، بل شكله في هيئة خاصة تمنحه أصالته

(المترجم) (١) حق المؤلف هذه الفكرة في مدخل الكتاب بما لا مزيد عليه .

الإسلامية ، فكلمة (Royaume) مرادفها العربي لفظ (ملك) ولقد تمله القرآن في صورة اللفظ (أيام) ^(١) .

والقرآن يتحاشى بهذا التكثيف للبس الذي قد ينشأ من الترافق بين الألفاظ (ملكة Royaume - ملك Domaine - ملك) أو لفظ كون (Création) الذي يغير كثيراً من معنى التعبير الإنجيلي .

فالقرآن قد وفق ولاشك في أن يصوغه في ذلك التعبير الأصلي (أيام الله) ^(٢) الذي لا يعثر عليه أمهار المترجمين .

ويكمننا أن نسجل هذه الملاحظات نفسها بالنسبة لجميع المفاهيم الإنجيلية الأخرى التي جاءت في القرآن باللسان العربي ، فقد تمل مفهوم العبارة (Esprit saint) ، ثم صاغه في ذلك التعبير الموفق (روح القدس) .

ولقد تعرضت الثروة اللغوية التي جاء بها القرآن في جميع تفاصيلها لمثل هذا التكثيف الرائع ، كما حدث لذلك الاسم الخاص (Putiphar) وهو اسم الشخصية الكتائية التي أطلقت عليها رواية القرآن لقب (العزيز) في قصة يوسف ، ولنا أن نتساءل عمّا إذا كانت هناك صلة في المعنى بين الاسم الإسرائييلي ولقب القرآني ، فالتفسير العربي يبدو أنه يقصد بكلمة Putiphar اشتتقاقاً مصرياً يبدأ من الأصل Puti=favori : (عزيز) ، والأصل Phare (مستشار أوناصل) . ونقرأ عن بحث القسيس (فيجورو Vigoureux) في الموضوع ^(٣) نعرف أن هذه الكلمة مصرية مركبة معناها (عزيز الإله شمس) .

(١) ورد هذا في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرُجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَرْهُمْ بِأَيَامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم ٥١٤]

(٢) يقصد (أيام الله) ما يحمله شعور الإنسان المتدبر من أن للحق يوماً ينتصر فيه بقيام ملكته .

(٣) الأب فيجورو (الكتاب المقدس والوثائق العلمية) .

وعلى أي من الرأيين نرى أن التكثيف الاشتقافي القرآني قد حذف اللفظ المكمل - الإضافي ، ليتمثله في صورة أكثر تطابقاً مع روح التوحيد الإسلامية ، فإذا به يكتفي بلفظة (العزيز)^(١) .

وما يذكر أن هذا التكثيف الذي تجنب صعوبة الترجمة الصوتية للحروف الأولى ، قد حل مشكلة لغوية لا يتسعى لجاهل بالدراسات المصرية أن يحلها ، حتى ولو كان في أتم حالات وعيه .



(١) يبدو أن كلمة « العزيز » قد انتقلت إلى حقل التفسير العربي عن طريق دراسات (موسى بن ميون) تلميذ المدرسة الإسلامية ياسبانيا .

مضمون الرسالة

إن رحابة الموضوعات القرآنية وتنوعها لشيء فريد ، طبقاً لتعبير القرآن نفسه **﴿ ما فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾** [الأنعام ٣٨/٦] ، فهو يبدأ حديثه من ذرة الوجود المستودعة باطن الصخر والمستقرة في أعماق البحار **﴿ إِلَى (النجم) الَّذِي يَسْبُحُ فِي فَلَكِهِ نَحْوَ مُسْتَقْرِهِ الْعِلْمِ ﴾** ^(١) ، وهو يتقصى أبعد الجوانب المظلمة في القلب الإنساني ، فيتغلغل في نفس المؤمن والكافر بنظرية تلمس أدق الانفعالات في هذه النفس . وهو يتوجه نحو ماضي الإنسانية البعيد ، و نحو مستقبلها ، كيما يعلمها واجبات الحياة ، وهو يرسم لوحة أخاذة لمشهد الحضارات المتتابعة ، ثم يدعونا إلى أن تتأمله لنفيد من عواقبه عظة واعتباراً .

وإن درسه الأخلاقي هو ثرة نظرية نفسية متعمقة في الطبيعة البشرية تصف لنا النواقص التي ينهي عنها ، وينفر منها ، والفضائل التي يدعونا إلى التأسي بها ، من خلال حياة الأنبياء ، أولئك الأبطال والشهداء في سجل ملحمة السماء ؛ وعلى هذا الأساس يدفع القرآن المؤمن إلى الندم الصادق ، حين يعده بالغفران ، **أساس التربية الجزائية في الأديان السماوية** .

أمام هذا المشهد العظيم وقف الفيلسوف (توماس كارليل) ، فما تمالك عنه ، بل انبعثت من أعماقه صرخة إعجاب بالقرآن فقال : « هذا صدى متفجر من قلب الكون نفسه **﴿ وَفِي هَذِهِ الصَّرْخَةِ الْفَلْسَفِيَّةِ ، نَجْدٌ أَكْثَرُ مِنْ فَكْرٍ جَافَّةٍ لِّمَوْرَخٍ ،**

(١) يشير المؤلف بذلك إلى قوله تعالى **﴿ يَا أَيُّهَا إِنَّ تَكُّ مُثْقَلَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدِلٍ فَتَكُنْ فِي صَرْخَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بَهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾** . [لقمان ١٦/٢١]

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى **﴿ وَكُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾** . [يس ٤٠/٣٦]

(٣) توماس كارليل (كتاب الأبطال) .

نجد بعض ما يشبه الاعتراف التلقائي لضير إنساني سام بعثت أمام عظمة الظاهرة القرآنية ؛ وإن العقل الإنساني ليقف حائراً أمام رحابة القرآن وعمقه ، إنه بناء فريد ذو هندسة ونسب فنية تتحدى المقدرة المبدعة لدى الإنسان .

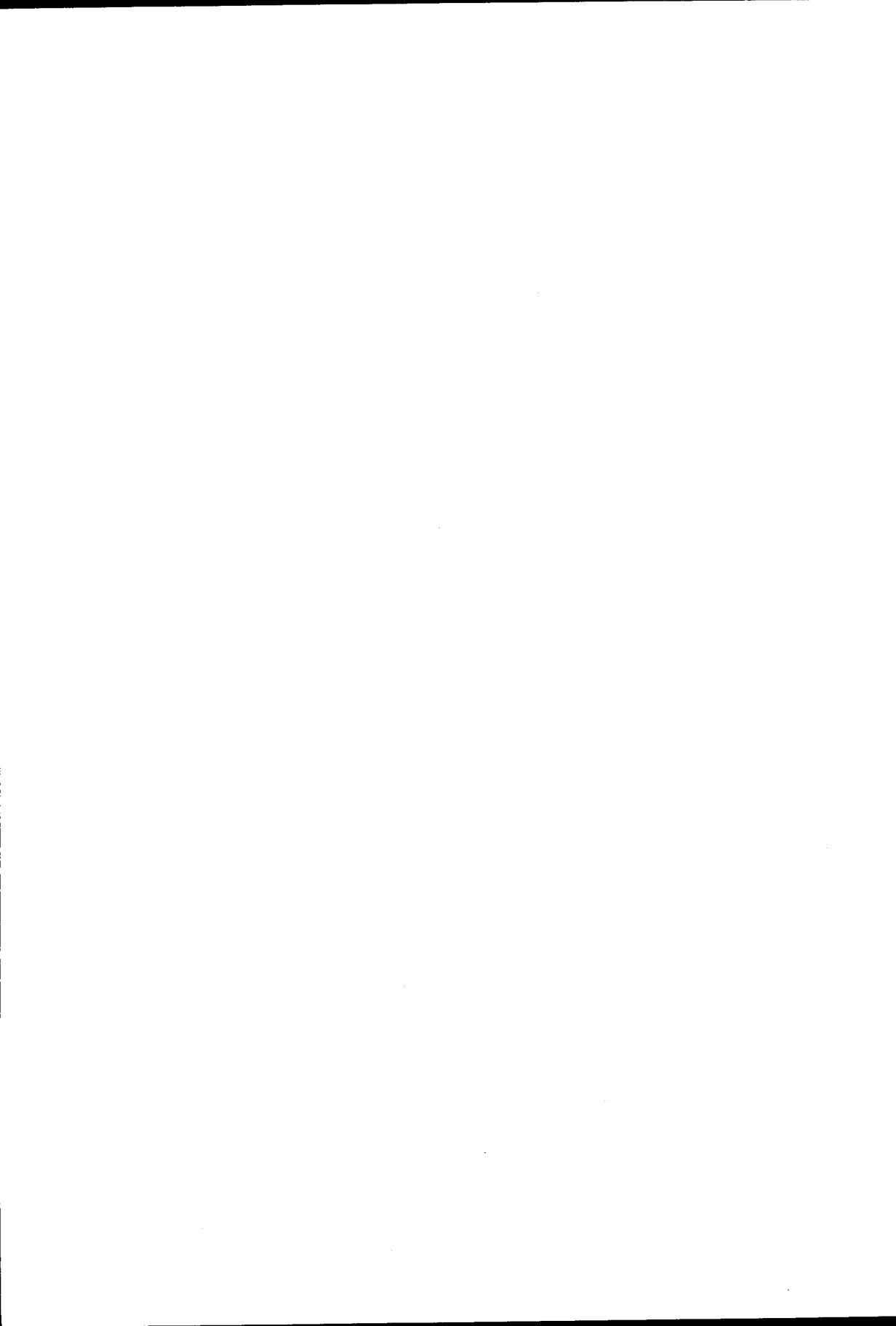
إن عقريمة الإنسان تحمل بالضرورة طابع الأرض ، ليخضع كل شيء لقانون المكان والزمان ، بينما يتخطى القرآن دائماً نطاق هذا القانون ، وما كان لكتاب بهذا السمو أن يتصور في حدود الأبعاد الضيقة للعقريمة الإنسانية ؛ ومن المقطوع به أنه لو أتيح لأحد الناس أن يقرأ قراءة واحدة يدرك خلاها رحابة موضوعه ، فلن يمكنه أن يتصور الذات الحمدية إلا مجرد واسطة لعلم غيبي مطلق .

وفضلاً عن ذلك ، فإن هذه الذات تشغل فيه مكاناً ضئيلاً ، إذ نادرًا ما يتحدث القرآن عن تاريخ (محمد) الإنسان : إن آلامه العظمى أو مساته لم ترد فيه قط ؛ ولو تخيلنا النازلة التي أصابته في أوج دعوته بفقد عمه وزوجه لأدركنا مدى الدوى الرهيب لحدث كهذا ، في حياة (رجل) كان حتى آخر لحظاته يبكي خديجة وأبا طالب ، عندما كان اسمها يذكران أمامه ، وعلى الرغم من هذا لا نجد أي صدى لموتها في القرآن ، بل ولا اسم الزوجة الحانية ، الزوجة التي تقبلت في حجرها انبثاق الإسلام الوليد .

هذه النقطة ضرورية في رأينا لأية دراسة نفسية تحليلية لموضوع القرآن ، الذي شغل منذ بعيد اهتمام المستشرقين لغایات مختلفة وبدوافع جد متحالفة . ولقد قدمت هذه الموضوعات الخاصة بالقرآن مادة غزيرة لدراسات هؤلاء العلماء ، وربما كان من الواجب أن نبحثها هنا لنلفت إليها انتباه القارئ ، ولكننا سنخصص بإيجاز لفتة للتشابه العجيب بين الكتاب المقدس^(١) والقرآن :

(١) يقصد بالكتاب المقدس مجموع الكتب المنزلة على أنبياء بني إسرائيل ومنها التوراة وإنجيل . (المترجم)

العلاقة بين القرآن والكتاب المقدس



العلاقة بين القرآن والكتاب المقدس

لم يرد التجادلون حول هذه العلاقة أن يدركوا عناصر المشكلة كلها ، وأن يتصوروها من سائر وجوهها .

فعلاوة على أن التشابه الذي قررناه ليس الطابع الوحيد أو الم Johari في القرآن ، فإن القرآن يؤكد مستعلنًا صلته بالكتاب المقدس ، فهو يطلب دائمًا مكانه في الدورة التوحيدية ، وهو بهذا وبذاك يثبت - باعتماد - التشابه بينه وبين التوراة والإنجيل ، وهو يؤكد هذه القرابة صراحة ، ويلفت إليها النبي نفسه كلما جدت مناسبة ، وهناك فيما ذكر آية تنص خاصة على تلك القرابة :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَفْتَرِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدِيهِ ، وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رِيبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس ٣٧/١٠]

وعلى كل ، فإن هذه القرابة تسم القرآن بطبعها الخاص : فهو في كثير من المواضيع يبدو مكملاً أو مصححاً معلومات الكتاب المقدس .

وعلى الرغم من أن القرآن يعلن بكل وضوح هذا التشابه والقرابة إلى الكتب السابقة ، فإنه يحتفظ بصورته الخاصة في كل فصل من فصول الفكرة التوحيدية كما نبين ذلك فيما يأتي .

ما وراء الطبيعة

تهدف فكرة التوحيد من الناحية الميتافيزيقية إلى إثبات وحدانية الله ، إذ هو العلة الوحيدة التي تدخل في تكوين الظواهر وفي تطورها ، وهو الذي يحكمها بما يتصف به من القدرة المطلقة والبقاء والإرادة والعلم . الخ .. ومع ذلك فإن الإسلام سيعرض عقيدته الغيبية الخاصة بطريقة أكثر مطابقة للعقل ، وأكثر تدقيقاً ، وفي اتجاه أكثر روحية .

ووالواقع أن الكتب العبرية تكشف عن بعض التشبيه ، ومن المحتمل أن يكون قد دخلها بطريقة مفاجئة عقب (التل斐ق) الذي وصفناه في فصل (الحركة النبوية) .

ويتجلى هذا التشبيه في رؤيا يعقوب المروية في سفر التكوين : « ورأى حلماً وإذا سلم منصوبة على الأرض ورأسها ميس السماء وهو ذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها ، وهو ذا الرب واقف عليها فقال أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحاق . » [سفر التكوين - الفصل الثامن والعشرون - الفقرتان ١٢ و ١٣]

ومن ناحية أخرى ، فإن تعاليم الربانيين كانت قد أقامت على الوعد الذي تلقاه إبراهيم ، وعلى ميزة الاختيار^(١) التي كانت ليعقوب عقيدة دينية قومية : فالله سبحانه وتعالى قد أصبح في تلك العقيدة - على وجه التقرير - الوهية قومية . حق إن جوهر الحركة النبوية منذ (عamos) إلى (أشعيا الثاني)

(١) اختيار إسحاق لولده يعقوب لتكون النبوة فيه وفي عقبه .

سيكون بالتحديد رد فعل لهذه الروح الأنانية ، فجميع الأنبياء الذين ينتمون إلى تلك الحركة الإصلاحية كأرمياء سببوا نزول قصاري جهدهم ليؤكدوا وجود الله (رب العالمين) .

ومع ذلك فإن العقيدة المسيحية قد اخترع من جانبها ذاتاً إنسانية في الأقانيم الإلهية ، وبهذا نشأت عقيدة جوهرها :

« الرب الحي (تَجَسَّدُ) إنسان »

وتولد عن هذه العقيدة التفسير المسيحي الذي سيقبس من الثقافة الإسلامية المنطق الأرسطي ، لكي ينشئ عقيدة دينية ثالوثية ، قائمة على سر الثالوث الأقدس .

بينما اتجه الوحي القرآني إلى أن يقرر النتيجة الخامسة للفكرة التوحيدية : (الله واحد ، مخالف للحوادث ، رب للعالمين) . فأخرج بهذه الطريقة الخامسة ذات الله جل شأنه من نطاق الأنانية اليهودية ، والتعدد المسيحي . ولقد تقررت هذه العقيدة الجوهرية للإسلام الموحد في سورة من أربع آيات :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كَفُوا أَحَدٌ ﴾ [سورة الإخلاص ١١٢ - ٤]

وفي هذه الآيات يتجلّى (الإخلاص) طابعاً خاصاً بالفكرة القرآنية : فلقد قضى على فكري التعدد والتشبيه دون تضليل أو إبرام . أما ما باقي من صلة بينه وبين الأديان الأخرى فهو في روح الآيات إن لم يكن في نصها ، وهكذا يتقرر بجلاء الأساس النظري الذي ستتبثّق عنه الدراسات الدينية الإسلامية وتطور ، ثم تنتقل منه إلى المسيحية على يد (توماس الإكويوني) ، وإلى اليهودية على يد (موسى بن ميمون) .

وإذا بفلسفة دينية نابعة من القرآن تتغلغل في أعماق الثقافة التوحيدية ، ولسنا ندري إلى أي مدى كانت الثورات التالية في الفكر المسيحي - منذ الحركة الألبية (Albigeois) حتى حركة الإصلاح ، محسنة بوصفها نتائج مباشرة أو غير مباشرة لفهم الميتافيزيقي في القرآن .

ومن المحدود أن نجهل الطابع الأصيل لهذا الفهم ، وأهميته في تطور المشكلة الدينية في العالم اليهودي المسيحي ، كما أنه من المحدود أيضاً لهذا التأثير العقدي الإسلامي أن نقول مع (الأب تيري R. P. G. Thery) :

« حرم النبي صراحة أي استخدام للعقل في المشكلة الدينية ، لأن وجود الله لا يمكن البرهنة عليه ، والاجتهاد أو انطلاق العقل ليس من التوجيهات الأساسية للقرآن ^(١) . »

فالقول بهذا يعني أننا ندرس في مقدمات مسيحية ثم نطبق نتائجها على مشكلة إسلامية ، وتلك بكل أسف - هي العادة الغالبة على بعض الدراسات ، كما فعل العلامة الشهير (جينيوبيرت Guignebert) ، فإنه بعد أن درس العناصر التي تسم (تطور العقيدة) اليهودية المسيحية ، طبق نتائجها بطريقة غير متوقعة على تطور العقيدة الإسلامية كأنما كانت موضوع دراسته ^(٢) .

☆ ☆ ☆

(١) محاضرات عن (الفلسفة الإسلامية والثقافة الفرنسية) للأب تيري الأستاذ بالمعهد الكاثوليكي في باريس ص ٢٥ .

(٢) جينيوبيرت Guignebert في (تطور العقيدة) .

آخر وِيَّات

إن خلود الروح ، تلك الفكرة الجوهرية في الثقافة التوحيدية ، يستتبع نتائج منطقية هي : نهاية العالم ، يوم الحساب ، الجنة ، النار .

هذا المجال لم تلق عليه الكتب العربية إلا شعاعاً خافتاً ، لأنها كانت مهتمة بالتنظيم الاجتماعي لأول بيئة توحيدية . ثم جاء الإنجيل فزاده إياضاحاً حين ألح على بني إسرائيل في تذكيرهم (ب أيام الله) ، ذلك المفهوم الموجه إلى مجتمع موحد قطع في طريق التطور شوطاً . وسنرى أن القرآن يبرز في هذا المجال الآخروي إبرازاً مؤثراً ، فلقد قصت فيه رواية الخلود بنبرة خاشعة رهيبة ، في أسلوب فاق الذروة في بلاغته ، وقد بثت في أنحائه صوراً مشاهد تسكب الخشية في قلوب العباد ما لا يمكن معه لإنسان - حتى في هذه الأيام - أن يصدق عن مشاهده المائلة .

إن مشاهد القيامة في القرآن ذات حقائق خلابة ، والشخصيات التي تحتوتها تتكلم وتتحرك ، فالمملك ، والشيطان ، والأبرار والأشرار ، كل هؤلاء يتسمون بواقعية لا تغفل أدق التفاصيل النفسية ، ولا تهمل أية كلمة من شأنها أن تذكر بأهوال تلك الساعة الرهيبة ، والزمن نفسه يتد ، والحكم يصدر و (تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) [المعارض ٤/٧٠] . ثم يعلن مشهد الختام في ذلك الفصل الرهيب : (فُضُّرِبَ بَيْنَهُمْ بَسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قَبْلِهِ العَذَابُ) [الحديد ١٢/٥٧] . هذا هو المقام الحالد

للسعادة وللأشقياء ، وليس في الوجود كله مشهد يماشل هذا المشهد في الحركة ، أو يفوقه في الألوان التي تتوالى في مختلف سور القرآن .

من هذا المشهد الرائع ، وبعد ستة قرون من الزمان ، قبست عقريبة (دانتي) لوحاتها الخيالية في (الكوميديا الإلهية) ، وقد أوحى إليه بها ما كتبه المعرى في (رسالة العفران^(١)) .



(١) أسين بالاسيو *Les Escatalogia Musulmana* أو (أخرىات القرآن في الكوميديا الإلهية) أورده العلامة تيري .

كونيات

في سفر التكوين نجد كيفية الأمر بالخلق في تلك العبارات : « وقال الله ليكن نور فكان نور^(١) ».

هذه الصورة تذكرنا بطريقة فريدة بعبارة القرآن ﴿ كن فيكون ﴾ [البقرة ١١٨/٢] فإن التشابه بين العبارتين عجيب .

ولكن القرآن يصف لنا دائماً عملية هذا التكوين الأمر ، فهو يحدثنا أولاً عن وحدة مادة الكون الأولى في قوله :

﴿ أو لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَقَنَّا هُمَا ﴾ [سورة الأنبياء ٢٠/٢١]

ثم يحدثنا عن الحالة البدائية لتلك المادة :

﴿ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت ١١/٤١]

ثم إن الله جلت قدرته يحدد لكل كوكب فلكه ومستقره ، مجزئاً بذلك المادة في المكان ، ومقرراً جميع القوانين التي ستحكم الظاهرة الطبيعية . ثم تكون الظاهرة الحيوية :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ ﴾ [الأنبياء ٣٠/٢١] .

(١) سفر التكوين - الإصلاح الأول - فقرة ٤ .

وهناك آيات كثيرة تكمل هذه اللوحة الموجبة لصورة التكوين في القرآن ، وعلى كل فإن الفعل الأولى الخالق أمر شفوي .

لعل في كيفية الخلق هذه ما يصطدم مع أفكار الذين يعتمدون على (فرض) (لا فوازيريه Rien ne se crée, Rien ne se perd) أي لا شيء يوجد (من العدم) ولا شيء يدخل (في العدم) ، ومعنى هذا أنه لا يمكن أن يخلق شيء من لا شيء . ومع ذلك فينبغي أن نعلم أنه من الوجهة المنطقية الحضة لا يوجد أدنى تناف عسير على الرد بين العقل والمبدأ الخالق في « كن فيكون » ، ولا يستطيع مخلوق أن يقيم على ذلك برهاناً تجريبياً . أما الدين فإنه يقرر أن الله هو الذي يملأ سر التكوين بين الكاف والنون - كا يقولون - ، ولكننا نتساءل ابتداء هل يوجد تعارض أو ما يشبه التعارض الذي لا يمكن دفعه بين هذا المفهوم الديني والمفهوم العلمي ؟ فلننظر إلام يؤول حل مشكلة المادة في التحليل الأخير ، أعني الجوهر الموجود ، وال المجال الحامل لكل ما هو موجود ؟

يحيب الطبيعيون : تؤول المادة في التحليل الأخير إلى نوع من الطاقة ، ولكن : ألا يمكن أن تفسر (كلمة الله) نفسها بأنها نوع من الطاقة ، الطاقة في أعظم وأتم أشكالها (بما أنها خالقة ؟)

أليس لنا الحق في أن نعد المادة في مجموعها مجرد تشكيل وتأليف لهذه الـ (كن) الخالقة ؟ ...

☆ ☆ ☆

أُخْلَاقٌ

إن الأخلاق الالادينية - بقدر ما لهذا التعبير من معنى - تقيم أعمال الإنسان على أساس المنافع الشخصية العاجلة ، التي صارت أساس المجتمع المدني ؛ على أن الأخلاق الدينية (التوحيدية) تحترم أيضاً المنفعة الشخصية ، ولكنها تمتاز برعاية منافع الآخرين ، وهي بذلك تدفع الفرد إلى أن ينشد دائمًا ثواب الله قبل أن يهدف إلى فائدته .

من أجل هذا الثواب صاحت التوراة الميثاق الخلقي الأول للإنسانية في وصايتها العشر ، وساق الإنجيل توجيهاته في عظة المسيح على الجبل ، ولكن الأمر في الكتابين كليهما أمر مبدأً أخلاقي سلبي ، فهو يأمر الناس بالكف عن فعل الشر في حالة ، وبعدم مقاومة الشر في أخرى .

أما القرآن فسيأتي ببِدأ إيجابيًّاً أساسياً ، كما يكمل منهج الأخلاق التوحيدية ، ذلك المبدأ هو (لزوم مقاومة الشر) فهو يخاطب معتنقيه بقوله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أَخْرَجْتُ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آل عمران ١١٠/٣]

قصر الجزاء كله على (يوم القيمة) ، فقد أصبحت الأخلاق من مسائل الآخرة ، وأضحت برمتها من المهم الشخصية » .

حتى إذا جاء القرآن وجدناه يقيم بناءه الخلقي على أساس القيمة الخلقية للفرد ، وعلى العاقبة الدنيوية للجماعة ، فاما الفرد فإن ثوابه مستحق يوم الحساب ، ومن أجل هذا يقرر القرآن صراحة القيمة الدينية للفرد في قوله تعالى :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيداً ﴾ [المدثر ١١٧٤]

وأما الجماعة فإن جزاءها عاجل ، يلفتنا القرآن إلى قصته في هذه الدنيا حين يدعونا دائماً إلى تأمل العقاب الدنيوي في عواقب الأمم البايدة ، والحضارات الدراسية :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام

١١٧٦]

بل إن القرآن ليعنف تلك الأمم في آية أخرى فيقول :

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنَ ، مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ ، وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً ، وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرَنَآ آخَرِينَ ﴾ . [الأنعام ٦٦]

☆ ☆ ☆

اجتئاع

كان الغرض من الشريعة الموسوية أن تضع مبادئ مجتمع موحد ناشئ ، وأن توثق الصلات بين أفراده ، أوئك الأفراد المغمورين في مجموعات الشعوب الوثنية . وبذلك تكون هذه الشريعة قد تصورت المشاكل الاجتماعية من الوجهة الإسرائيلية الداخلية . ثم إننا نجد شريعة الحب لدى عيسى تفتح أكثر من ذلك باب الرحمة المسيحية لأهل الفطرة من الوثنين .

حتى إذا جاء القرآن وجدهنا يتناول - في نصه - المشكلة من الزاوية الإنسانية الشاملة :

﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَانَ قَتْلَ النَّاسَ جَيِّعًا ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَانَ أَحْيَا النَّاسَ جَيِّعًا ۝﴾ . [المائدة ٢١/٥]

ولقد كانت إحدى النتائج الخطيرة لهذا المبدأ العام أن وضعت مشكلة الرق للمرة الأولى في تاريخ الإنسانية في طريق الحل ، فإن عتق الرقيق كان مرحلة ضرورية لإلغاء الاسترقاق ، الذي كان أساساً جوهرياً للنشاط في المجتمعات السابقة .

لقد جعل القرآن من تحرير العبيد مبدأً خلقياً عاماً ، وإذا ما ارتكب المسلم نوعاً من المخالفات الشرعية يتحول العتق إلى شرط شرعي للتوبة والغفران ، فإذا كان قد لاحظنا التشابه بين القرآن والكتب المقدسة - فيما مضى من البحث - فإننا نلاحظ الآن الطابع المميز لصورته الخاصة .

☆ ☆ ☆

تاريخ الوحدانية

لدين إبراهيم تاريخه الذي يضم أعمال الأنبياء ومناقبهم ، وربما وجدنا في الفصل التالي التشابه العجيب بين القرآن والكتاب المقدس ، فإن تاريخ الأنبياء يتواتي منذ إبراهيم إلى زكريا ويعي ومريم والمسيح . فأحياناً نجد القرآن يكرر القصة نفسها وأحياناً يأتي بمادة تاريخية خاصة به مثل : هود ، صالح ونادره ، ولقمان ، وأهل الكهف وذى القرنين .. الخ^(١) .

على أن التشابه هنا عجيب ، كما سنرى في قصة يوسف ، التي تواجهه النقد بشكلة خطيرة ، فعلى عهد النبي نفسه لم يتربدوا في أن يثيروا بعض الاعتراضات التي تشار الآن ، وبعد ثلاثة عشر قرناً .

والواقع أننا لو صرفا النظر - منهجاً - عن القيمة العلوية للقرآن ، ولو أغفلنا - تبعاً للهوى - اعتباراته الأخرى ، فإن هذا التشابه سيظل لغزاً غير مفهوم . ولكي نفهم هذا ينبغي ، أن ننصب اللوحة التي ترينا سائر وجوه التشابه في نظرة واحدة ، وسيكفينا لذلك مثال واحد هو (قصة يوسف) ، التي سنتخذها مقياساً لدراستنا النقدية لهذا الموضوع .

☆ ☆ ☆

(١) وأما قوله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ [الكهف ٨٣/١٨] فإن كانت الاشارة فيه إلى اليهود ، فربما علموا القصة من أخبار التاريخ ، لأن التوراة لم يرد فيها شيء من ذلك .
(المترجم)

قصة يوسف في القرآن والكتاب المقدس

القصة الكتابية	القصة القرآنية
(الفصل السابع والثلاثون)	بسم الله الرحمن الرحيم
(١) وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان	(١) ﴿أَلر. تلَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾
(٢) وهذه مواليد يعقوب لما كان يوسف ابن سبع عشرة سنة، وكان يرعى الغنم مع إخوته وهو غلام مع بنى بلهه وبنى زلفة امرأة أبيه، أخبر يوسف أباهم عنهم ببريبة شنيعة.	(٢) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّعْلَمْ تَعْقِلُونَ﴾
(٣) وكان إسرائيل يحب يوسف على جميع بنيه لأنَّه ابن شيخوخته فصنع له قياساً موسى.	(٣) ﴿نَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أُوحِيَنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمْ يَنْغَافِلْنَا﴾
(٤) ورأى إخوته أنَّ أباهم يحبه على جميع إخوته فأبغضوه ولم يستطعوا أن يكلموه بسلام.	(٤) ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾

(١) الكتاب المقدس ، ترجمة الآباء اليسوعيين (العهد القديم) المجلد الأول سفر التكوين ، الطبعة الثانية ، مطبعة اليسوعيين بيروت عام ١٨٨٢ .

القصة الكتابية	القصة القرآنية
(٥) ورأى يوسف حلماً فأخبر إخوته به فازدادوا كراهيته له .	(٥) ﴿قال يابني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾
(٦) قال لهم اسمعوا هذا الحلم الذي رأيته . (٧) رأيت كأنا نخزن حزماً في الصحراء . فإذا حزمت وقفت ثم انتصبت فأحاطت حزملك وسجدت لحزمي .	
(٨) فقال له إخوته : أulk عملك علينا أو تسلط علينا ، وازدادوا أيضاً حنقاً عليه لأجل أحلامه وكلامه .	
(٩) ورأى أيضاً حلماً آخر فقصه على إخوته وقال : رأيت حلماً أيضاً كان الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي .	
(١٠) وإذا قصه على أبيه وإخوته زجره أبوه وقال له ما هذا الحلم الذي رأيته أترانا نجيء أنا وأمك وإخوتك فنسجد لك إلى الأرض .. ؟ .	(٦) ﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كأنتها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق إن ربك عليم حكيم﴾
(١١) فحسده إخوته وكان أبوه يحفظ هذا الكلام .	(٧) ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾
(١٢) ومضى إخوته ليروعوا غنم أبيهم عند شكيم .	
(١٣) فقال إسرائيل ليوسف هو ذا إخوتك	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
<p>يرعون عند شكيم هلم أبعثك إليهم . قال : هأنذا .</p>	
<p>(١٤) فقال له : امض فافتقد سلامة إخوتك سلامة الغم واتئني بالخبر ، وأرسله من وادي جبرون فأتي شكيم .</p>	<p>(٨) ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أينما منا ونحن عصبة إن أبانا في ضلال مبين﴾</p>
<p>(١٥) فصادفه رجل وهو تائه في الصحراء فسألة الرجل قائلاً : ماتطلب ؟</p>	
<p>(١٦) قال أطلب إخوتي أين يرعون ؟ .</p>	<p>(٩) ﴿اقتلوا يوسف أو اطروحه أرضاً يخْلُّ لهم وجه أيمكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾</p>
<p>(١٧) فقال الرجل قد رحلوا من ههنا وقد سمتعهم يقولون نصي إلى دوتائين فضى يوسف في إثر إخوته فوجدهم في دوتائين .</p>	
<p>(١٨) فلما رأوه عن بعد قبل أن يقرب منهم أئمروا عليه ليقتلوه .</p>	<p>(١٠) ﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين﴾</p>
<p>(١٩) فقال بعضهم لبعض : ها هو ذا صاحب الأحلام مقابل .</p>	
<p>(٢٠) والآن تعالوا نقتله ونطرحه في بعض الآبار ونقول إن وحشاً ضارياً افترسه ، ونرى ما يكون من أحلامه .</p>	<p>(١١) ﴿قالوا يا أباانا مالك لاتأمنا على يوسف وإنما له لناصحون﴾</p>
<p>(٢١) فسمع رأوبين فخلصه من أيديهم وقال لأنقتله .</p>	<p>(١٢) ﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنما له لحافظون﴾</p>

القصة الكتابية	القصة القرآنية
(٢٢) وقال لهم رأوا بنين لا تسفكوا دمأ، اطروحوه في هذه البئر التي في البرية لاتلقوا أيديكم عليه، لكي يخلصه من أيديهم ويرده إلى أبيه.	(١٢) ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذَهَّبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ وَأَتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾
(٢٣) فلما جاء يوسف إخوته نزعوا عنه قيصه، القميص الموشى الذي عليه.	(١٤) ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّئْبُ وَنَحْنُ عَصْبَةٍ إِنَّا إِذَاٰ لَخَسِرْنَا﴾
(٢٤) وأخذنوه وطروحوه في البئر وكانت البئر فارغة لاماء فيها.	(١٥) ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبَرِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لِتَنْتَهِنُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾
(٢٥) ثم جلسوا يأكلون ورفعوا عيونهم ونظروا وإذا بقافلة من الإسماعيليين مقبلة من جلعاد، وجمالهم محملة نكعة وبساناً ولادناً وهم سائرون إلى مصر.	(١٦) ﴿وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عَشَاءً يَكُونُ﴾
(٢٦) فقال لهم إخوته ما الفائدة من أن نقتل أخانا ونخفي دمه.	(١٧) ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْبِقُ وَتَرَكْنَا يَوْسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾
(٢٧) فقالوا نبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحنا، فسبع له إخوته.	
(٢٨) فرقوا مذهبين تجأر فجذبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوه للإسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف إلى مصر.	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
(٢٩) ورجع رأوين إلى البئر فإذا يوسف ليس في البئر فرق ثيابه.	
(٣٠) ورجع إلى إخوته وقال: الولد ليس موجوداً، وأنا إلى أين أمضي	
(٣١) فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً من العز وغمسو القميص في الدم.	
(٣٢) وبعثوا بالقميص الملوث فأنفذوه إلى أبيهم وقالوا: هذا أثبته، أقيص ابنك هو أم لا.	(١٨) وجاؤوا على قيصه بدم كذب قال بل سؤلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون
(٣٣) فأثبتته وقال قيص ابني. وحش ضار أكله، افترس يوسف افتراساً.	
(٣٤) ومزق يعقوب ثيابه وشد مسحأ على حقويه وناح على ابنه أياماً كثيرة.	
(٣٥) وقام جميع بنيه وبناته يعزونه فأبى أن يتعرى وقال: إني أنزل إلى ابني نائحاً إلى الجحيم، وبكي عليه أبوه.	
(٣٦) وباعه المدينون في مصر لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط.	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
<p>(الفصل الثامن والثلاثون)</p>	
<p>(١) وكان في ذلك الوقت أن یہودا انفرد عن إخوته فنزل برجل عَذَّلَّامِيْ يقال له حَيَّة.</p>	<p>(١٩) ۝ و جاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأذى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسرُوه بضاعة والله عليم بما یعملون ۝</p>
<p>(٢) ورأى یہودا هناك بنت رجل كتعاني اسمه «شوع» فتزوجها ودخل بها.</p>	
<p>(٣) فحملت وولدت ابنًا فسماه عيرا.</p>	<p>(٢٠) ۝ و شرَوْه بِنِيْ بُخْس دراهِم معدودة</p>
<p>(٤) ثم حملت أيضًا وولدت ابنًا فسمته أدنان.</p>	<p>و كانوا فيه من الزاهدين ۝</p>
<p>(٥) وعاودت أيضًا فولدت ابنًا وسمته شيلة وكان في «كاذيب» حين ولدته ... وبعد ذلك خرج أخوه الذي على يده القرمز فسي زاره.</p>	
<p>(الفصل التاسع والثلاثون)</p>	
<p>(١) وأما يوسف فأنزل إلى مصر فاشترأه فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرطة، رجل مصرى، من أيدي الإسماعيليين الذين نزلوا به إلى هناك.</p>	
<p>(٢) وكان الرب مع يوسف فكان رجلاً ناجحاً وأقام ببيت مولاه المصري.</p>	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
(٢) ورأى مولاه أنَّ الرَّبَّ مَعَهُ وَأَنَّ جَيْعَ ما يَعْمَلُه يَنْجُحُه الرَّبُّ فِي يَدِهِ.	
(٤) فَنَالَ يُوسُفُ حَظْوَةً فِي عَيْنِيهِ وَخَدْمَهِ فَأَقَامَهُ عَلَى بَيْتِهِ، وَجَيْعَ مَا كَانَ لَهُ جَعْلُهُ فِي يَدِهِ.	(٢١) ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مَصَرَّ لِأَمْرَاتِهِ أَكْرَمِي مُثَوَّهَ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ تَتَّخِذَهُ وَلَدَّا وَكَذَلِكَ مَكَّنَاهُ لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلَتَعْلَمَنَا مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾
(٥) وَكَانَ مِنْذَ أَقَامَهُ عَلَى بَيْتِهِ وَجَيْعَ مَا هُوَ لَهُ أَنَّ الرَّبَّ بَارَكَ بَيْتَ الْمَصْرِيِّ بِسَبَبِ يُوسُفَ وَكَانَتْ بَرَكَةُ الرَّبِّ عَلَى جَيْعَ مَا هُوَ لَهُ فِي الْبَيْتِ وَفِي الْحَقْلِ.	
(٦) فَتَرَكَ جَيْعَ مَا كَانَ لَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفَ مَعْهُ شَيْئًا إِلَّا الْخَبِيرُ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُهُ، وَكَانَ يُوسُفُ حَسْنَ الْهَيَّةِ وَجَيْلَ الْمَنْظَرِ.	(٢٢) ﴿وَلَمَا بَلَغَ أَشَدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُخَزِّيَ الْمُحْسِنِينَ﴾
(٧) وَكَانَ بَعْدَ هَذِهِ الْأَمْرَوْنَ أَنَّ امْرَأَ مَوْلَاهُ طَمَحَتْ عَيْنِهَا إِلَى يُوسُفَ وَقَالَتْ ضَاجِعِيَّ.	(٢٢) ﴿وَرَأَوْدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنُ مُثَوِّي إِنَّهُ لَا يَنْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾
(٨) فَأَبَى وَقَالَ لِامْرَأَ مَوْلَاهُ: هَوْذَا مَوْلَايُ لَا يَعْرِفُ مَعِي شَيْئًا مَا فِي الْبَيْتِ وَجَيْعَ مَا هُوَ لَهُ جَعْلُهُ فِي يَدِيِّ.	(٢٤) ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهُمَّ بِهَا الْوَلَا أَنْ رَأَيْ بِرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عَبَادِنَا الْمُخَلَّصِينَ﴾
(٩) وَلَيْسَ فِي هَذَا الْبَيْتِ شَيْءٌ فَوْقَ يَدِيِّ. وَلَمْ يَمْسِكْ عَنِّي شَيْئًا غَيْرِكِ لَأَنَّكِ زَوْجِتِهِ فَكَيْفَ أَصْنَعُ هَذِهِ السَّيْئَةَ	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
العظية وأخطئ إلى الله .	
(١٠) وكلمه يوماً بعد آخر فلم يقبل منها أن ينام بجانبها ليكون معها .	(٢٥) ﴿ واستبقا الباب وقدت قيصه من ذير وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسْجُنَ أو عذاب أليم ﴾
(١١) فاتفق في بعض الأيام أنه دخل البيت ليتعاطى أمره ولم يكن في البيت أحد من أهله .	
(١٢) فأمسكت بشوبه قائلة ضاجعني . فترك رداءه بيدها وفر هارباً إلى الخارج .	(٢٦) ﴿ قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قيصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ﴾
(١٣) فلما رأت أنه قد ترك رداءه وهرب خارجاً .	
(١٤) صاحت بأهل بيتها وقالت لهم انظروا كيف جاءنا برج عراقي ليتلعب بنا ، أتاني ليضاجعني فصرخت بصوت عال .	(٢٧) ﴿ وإن كان قيصه قد من ذير فكذبت وهو من الصادقين ﴾
(١٥) فلما سمعني قد رفعت صوتي وصرخت ترك رداءه بجانبي وفر هارباً إلى الخارج .	
(١٦) ووضعت رداءه بجانبها حتى قدم مولاه إلى بيته .	(٢٨) ﴿ فلما رأى قيصه قد من ذير قال إنه من كيدك إن كيدك عظيم ﴾
(١٧) فكلمته بثل هذه الكلام وقالت أتاني العبد العراقي الذي جئتني به	(٢٩) ﴿ يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾

القصة الكتابية	القصة القرآنية
ليتلاعب بي .	
(١٨) وكان عندما رفعت صوتي وصرخت أنه قد ترك رداءه بجانبي وهرب خارجاً .	(٣٠) ﴿وقال نسوة في المدينة : امرأة العزيز تراود فتاه عن نفسه قد شففها حباً إنا لزراها في ضلال مبين﴾
(١٩) فلما سمع مولاه كلام امرأته الذي أخبرته به قالت كذا صنع بي عبده استشاط عليه غضباً .	
(٢٠) فأخذ يوسف مولاه وأودعه الحصن حيث كان سجناء الملك مقيدين ، فكان هناك في الحصن .	(٢١) ﴿فَلَمَّا سَمِعْتُ بِمَكْرِهِنَ أَرْسَلْتُ إِلَيْهِنَ وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مِنْكَأَ وَأَتَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَ سَكِينَأَ وَقَالَتْ اخْرَجْ عَلَيْهِنَ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَعْنَ أَيْدِيهِنَ وَقَلَنْ حَاشَ اللَّهُ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾
(٢١) وكان الرب مع يوسف وأمال إليه رحمته ورزقه حظوة في عيني رئيس الحصن .	(٢٢) ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَ الَّذِي لَمْ تَتَّقِنِ فِيهِ وَلَقَدْ رَأَوْدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمْ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمْرَهُ لِيَسْجُنَّ وَلِيَكُونَأَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾
(٢٢) فجعل رئيس الحصن في يد يوسف جميع السجناء الذين في الحصن وجميع ما كانوا يصنعون هناك كان هو مدبره .	(٢٣) ﴿قَالَ رَبُّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مَا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرُفَ عَنِي كَيْدَهُنَ أَصْبَحَ إِلَيْهِنَ وَأَكْنَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾
	(٢٤) ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

القصة الكتابية	القصة القرآنية
وجوهكما مكتئبة اليوم .	
(٨) فقال له رأينا حلماً وليس لنا من يعبره فقال لها يوسف : أليس أن الله التعبير ؟ فَصَّا عَلَيْهِ .	(٣٩) ﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَرْبَابُ مُتَنَرِّقُونَ خَيْرُ أَمْلَأَهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾
(٩) فَقَصَ رَئِيسُ السَّقَاه حَلْمًا عَلَى يُوسُفَ وَقَالَ لَهُ : رَأَيْتَ كَأْنَ جُفْنَةَ كَرْمِ بَنِ يَدِيِّ .	(٤٠) ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمْرٌ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكُ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾
(١٠) وَفِي الْجُفْنَةِ ثَلَاثَةُ قَضْبَانٍ وَكَأْنِيْ بِهَا أَفْرَغْتُ وَصَارَتْ عَنْيَا .	
(١١) وَكَانَتْ كَأْسُ فَرْعَوْنَ فِي يَدِيِّ فَأَخْذَتْ الْعَنْبَ وَعَصْرَتْهُ فِي كَأْسِ فَرْعَوْنَ وَنَاوَلْتُ الْكَأْسَ لِفَرْعَوْنَ .	(٤١) ﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَمَا أَحْدَكَا فَيُسْقِي رَبِّهِ خَمْرًا وَأَمَا الْآخِرُ فَيُصْلِبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرَ مِنْ رَأْسِهِ ، فَقَنِيْ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانَ﴾
(١٢) قَالَ لَهُ يُوسُفٌ هَذَا تَعْبِيرُهُ ثَلَاثَةُ الْقَضْبَانِ هِيَ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ .	
(١٣) بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَرْفَعُ فَرْعَوْنُ رَأْسَكَ وَيَرْدِكَ إِلَى مَنْزِلَتِكَ وَيَتَنَاهُ فَرْعَوْنُ كَأْسَهُ كَالْعَادَةِ الْأُولَى حِينَ كَنْتَ سَاقِيَهُ .	
(١٤) إِنَّمَا إِذَا جَاءَ أَمْرَكَ فَادْكُرْنِيْ فِي نَفْسِكَ وَاصْنُعْ إِلَيْيَ رَحْمَةً ، وَأَجْرِ ذَكْرِيْ لِدِيِّ فَرْعَوْنَ ، وَأَخْرُجْنِيْ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ .	(٤٢) ﴿وَقَالَ لِلَّذِيْ ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهَا اذْكُرْنِيْ عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذَكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بَضْعَ سِنِّينَ﴾

القصة الكتابية	القصة القرآنية
(١٥) لأنني قد خطفت من أرض العبرانيين ووهنا أيضاً طرحوني في هذا الجب من غير أن أفعل شيئاً .	
(١٦) ولما رأى رئيس الخازين أنه قد عبر له بخير قال ليوسف رأيت أنا أيضاً في حلم كأن ثلاثة سلال حوارى على رأسى .	
(١٧) وفي السلة العليا من جميع طعام فرعون مما يصنعه الخباز والطير تأكله من السلة من فوق رأسى .	
(١٨) فأجاب يوسف وقال له هذا تعبيره ، الثلاث سلال هي ثلاثة أيام .	
(١٩) بعد ثلاثة أيام ينزع فرعون رأسك عن بدنك ويعلقك على خشبة فتأكل الطير لحمك .	
(٢٠) فكان في اليوم الثالث يوم مولد فرعون أنه صنع مأدبة لكل عبيده فرفع رأس رئيس السقاة ورأس رئيس الخازين بين عبيده .	
(٢١) فرد رئيس السقاة إلى سقايته فناول فرعون الكأس .	
(٢٢) وأما رئيس الخازين فعلقه على حسب تعبير يوسف لها .	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
<p>(٢٢) ونبي رئيس السقاة يوسف ولم يذكره.</p>	
<p>(الفصل الحادي والأربعون)</p>	
<p>(١) وكان بعد مضي سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلماً كأله واقف على شاطئ النهر.</p>	<p>(٤٢) ﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يأكلها الملائكة في رؤياني إن كنتم للرؤيا تَعْبُرُون﴾</p>
<p>(٢) فإذا بسبع بقرات صاعدة منه وهي حسان المنظر، وسمان الأبدان فارتعدت في المرج.</p>	
<p>(٣) وكأن سبع بقرات أخرى صاعدة وراءها من النهر وهي قباح المنظر وعجاف الأبدان فوقفت بجانب تلك على شاطئ النهر.</p>	
<p>(٤) فأكلت البقرات القباح المنظر العجاف الأبدان سبع البقرات الحسان المنظر سمان واستيقظ فرعون.</p>	
<p>(٥) ثم نام ثانية فرأى كأن سبع سنابل قد نبتت في ساق واحدة وهي سمان جياد.</p>	
<p>(٦) وكأن سبع سنابل دقاقاً لفتحتها الريح الشرقية نبتت وراءها.</p>	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
(٧) فابتلت السنابل الدقاد سبع السنابل السينية الممتلئة واستيقظ فرعون فإذا هو حلم.	
(٨) فلما كانت الغدأة انزعجت نفسه فبعث ودعا جميع سحر مصر وجميع حكائها، فقص عليهم فرعون حلمه فلم يكن من يعبره لفرعون.	(٤٤) ﴿قَالُوا أَضْفَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمٍ﴾ (٤٥) ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسَلُونَ﴾
(٩) فكلم رئيس السقاة فرعون وقال إني لأذكر اليوم خطئي.	
(١٠) إن فرعون كان قد سخط على عبديه فجعلني في حبس بيت رئيس الشرطة أنا ورئيس المخازين.	
(١١) فرأينا كلانا حلماً في ليلة واحدة حلم كلّ تعبير بحسبه.	
(١٢) وكان معنا هناك غلام عرباني عبد لرئيس الشرطة فقصصنا عليه فعبر لنا حلمينا، عبر لكل واحد منا بحسب حلمه.	
(١٣) وكما عبر لسا كان، فردي الملك إلى رتبتي وذاك علقة.	
(١٤) فبعث فرعون ودعا يوسف فأسرعوا به من السجن فاحتلق وأبدل ثيابه ودخل على فرعون.	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
<p>(١٥) فقال فرعون ليوسف قد رأيت حلمًا ولم يكن من يعبره ، وقد سمعت عنك أنك إذا سمعت حلمًا تعبره .</p>	<p>(٤٦) ﴿يُوسُفُ أَهْبَأَ الصَّدِيقَ أَفْتَنَا فِي سَبْعَ بَقَرَاتٍ سَمَانٍ يَا أَكْلُهُنَّ سَبْعَ عَجَافٍ وَسَبْعَ سَنِيلَاتٍ يَخْرُجُ وَآخِرُ يَابَسَاتٍ لَعَلَّيُ أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لِعْلَمَهُ يَعْلَمُون﴾</p>
<p>(١٦) فأجاب يوسف فرعون ... (وقال لا يعلمي بل الله يجيب فرعون بالسلام) .</p>	
<p>(١٧) فقال فرعون ليوسف رأيت كأني واقف على شاطئ النهر .</p>	
<p>(١٨) وكأن قد صعد منه سبع بقرات سمان الأبدان حسان الصور فارتعدت في المرج .</p>	
<p>(١٩) وإذا سبع بقرات أخرى قد صعدت وراءها عجافاً قباج المئات جداً رقاق الأبدان لم أر مثلها في جميع أرض مصر في القبح .</p>	
<p>(٢٠) فأكلت البقرات العجاف القباج سبع البقرات الأولى سمان .</p>	
<p>(٢١) فدخلت في بطونها ولم يتبيّن أنها قد دخلت فيها وبقي منظرها قبيحاً كا كان أولاً واستيقظت .</p>	
<p>(٢٢) ثم رأيت في حلمي كأن سبع سنابل قد نبتت في ساق واحدة ، ممتلئة حساناً .</p>	<p>(٤٧) ﴿قَالَ تَزَرَّعُونَ سَبْعَ سَنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سَنَبَلَهِ إِلَّا قَلِيلًا مَا تَأْكُلُون﴾</p>

القصة الكتابية	القصة القرآنية
(٢٢) وكان سبع سنابل جافة دقائق قد لفحتها الريح الشرقية نبتت وراءها .	(٤٨) هُمْ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شَدَادَةَ يَأْكُلُنَا مَا قَدَّمْتُ لَهُ إِلَّا قَلِيلًا مَا تَحْصُنُونَ ﴿٤﴾
(٢٤) فابتلت السنابل الدقائق السبع (السنابل الحسان) ^(١) فأخبرت بذلك السحرة فلم يكن من ينبهني .	(٤٩) هُمْ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامَ فِيهِ يَغْاثَ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصُرُونَ ﴿٥﴾
(٢٥) فقال يوسف لفرعون : حلم فرعون واحد ، الذي سيصنعه الله أخبر به فرعون .	
(٢٦) سبع البقرات الجياد هي سبع سنين وسبع السنابل الحسان هي سبع سنين ، هو حلم واحد .	
(٢٧) وسبع البقرات الدقائق القبائح الصاعدة وراءها هي سبع سنين وسبع السنابل الفارغة التي لفحتها الريح الشرقية تكون سبع سنين جوع .	
(٢٨) هو الأمر الذي ذكرته لفرعون إن الله مكافف فرعون بما هو صانعه .	
(٢٩) ستائكم سبع سنين فيها شيء عظيم في جميع أرض مصر .	(٥٠) هُوَ قَالَ الْمَلِكُ اتَّوْنِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالَ النَّسْوَةِ الَّتِي قُطِّعْنَ أَيْدِيهِنَ إِنَّ رَبِّي بِكِيدْهُنْ عَلِيمٌ ﴿٥﴾

(١) الجمل الموجودة بين التقويسين () غير مختارة في النص الفرنسي ، ولكنها زدناها هنا لأنها واردة على نسق الرواية القرآنية ، إذ تروي الرؤيا هنالك مرتين على لسان الملك ، فناسب أن تتحقق ذلك في الرواية العربية . (المترجم)

القصة الكتابية	القصة القرآنية
(٣٠) وتأتيكم بعدها سبع سنين جوع فينسى جميع الشبع الذي كان في أرض مصر، ويتلف الجوع الأرض.	(٥١) ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنِي إِذْ رَأَوْدَتْنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ اللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ، قَالَتِ امْرَأَةٌ عَزِيزٌ إِنَّهُ حَصْحَصٌ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لِمَنِ الصَّادِقِينَ﴾
(٣١) ولا يتبيّن أثر ذلك الشبع في الأرض من قبل الجوع الذي عقبه لأنّه شديد جداً.	
(٣٢) وأما تكرار الحلم على فرعون مرتين فلأنّ الأمر مقرر من لدن الله وسيصنّعه عاجلاً.	
(٣٣) والآن فلينظر فرعون رجالاً فهم حكيمياً يقيمه على أرض مصر.	(٥٢) ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمْ أَنِّي لَمْ أَخْنَهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِ﴾
(٣٤) ولি�شرع فرعون ويوكل وكلاء على الأرض. ويأخذ خمس غلة مصر في سبع سنين الشبع.	(٥٣) ﴿وَمَا أَبْرَئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لِأَمَارَةٍ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾
(٣٥) ول يجعلوا كل طعام سني الخير الآتية وبخزنوا بُرها تحت يد فرعون طعاماً في المدن ويحفظوه.	(٥٤) ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَئْتُوْنِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لِدِينِكَ مَكِينٌ أَمِينٌ﴾
(٣٦) فيكون الطعام ذخيرة لها سبع سنين الجوع التي ستكون في أرض مصر فلا ينفرض أهل الأرض بالمجاعة.	
(٣٧) فحسن الكلام عند فرعون وعند عبيده أجمع.	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
(٢٨) فقال فرعون لعييده: هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله.	(٥٥) ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِظْتُ عَلَيْهِ﴾
(٢٩) وقال فرعون ليوسف: بعد ما عرفك الله هذا كله فليس فَهُمْ حَكِيمٌ مُّثُلِّكَ.	
(٤٠) أَنْتَ تَكُونُ عَلَى بَيْتِي وَإِلَيْكَ يَنْقَادُ كُلُّ شَعْبٍ وَلَا كُونُ أَعْظَمُ مِنْكَ إِلَّا بِالْعَرْشِ.	
(٤١) وقال فرعون ليوسف انظر قد أفتاك على أرض مصر.	
(٤٢) وَنَزَعَ فَرْعَوْنَ خَاتَمَهُ مِنْ يَدِهِ وَجَعَلَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ وَأَلْبَسَهُ ثِيَابَ بَزْ وَجَعَلَ طَوْقًا مِّنَ الْذَّهَبِ فِي عَنْقِهِ.	(٥٦) ﴿وَكَذَلِكَ مَكَنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حِيثُ يَشَاءُ تُصِيبُ بِرْحَتَنَا مِنْ نَشَاءٍ وَلَا تُنْصِبُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾
(٤٣) وَأَرْكَبَهُ مَرْكَبَتِهِ الثَّانِيَةَ وَنَادَاهُ: أَمَامَهُ ارْكَعُوا. وَأَقَامَهُ عَلَى جَمِيعِ أَرْضِ مصرِ.	
(٤٤) وَقَالَ فَرْعَوْنَ لِيُوسُفَ: أَنَا فَرْعَوْنٌ بَدْوِنِكَ لَا يَرْفَعُ أَحَدٌ يَدَهُ وَلَا رِجْلَهُ فِي جَمِيعِ أَرْضِ مصرِ.	
(٤٥) فَخَرَنَ يُوسُفُ مِنَ الْبَرِّ مَا يَعْدَلُ رِمْلَ الْبَحْرِ كَثْرَةً حَتَّى تَرَكَ إِحْصَاءَهُ لَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَحْصُى.	(٥٧) ﴿وَلِأَجْرِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾
(٤٦) وَكَلَّتْ سِعَ سَيِّ الشَّعْبِ الَّذِي كَانَ فِي أَرْضِ مصرِ.	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
<p>(٤٧) وبذلت سبع سنين الجوع تأتي كا قال يوسف ، فكان جوع في جميع البلدان وأما جميع أرض مصر فكان فيها طعام .</p>	
<p>(٤٨) فلما جاءع جميع أهل مصر صرخ الشعب إلى فرعون لأجل الخبز ، فقال فرعون لكل المصريين انطلقوا إلى يوسف فما يقله لكم فاصنعواه .</p>	
<p>(٤٩) وشنل الجوع جميع وجه الأرض ففتح يوسف جميع ما فيه طعام فباع لل المصريين . واشتد الجوع في أرض مصر .</p>	
<p>(٥٠) وقدم أهل الأرض بأسرها إلى مصر على يوسف ليتاروا لأن الجوع كان شديداً في الأرض كلها .</p>	
<p>(الفصل الثاني والأربعون)</p> <p>(١) فلما علم يعقوب أن القوت موجود في مصر قال لبنيه : ما بالكم تنتظرون بعضكم إلى بعض .</p> <p>(٢) وقال إني سمعت أن القوت موجود في مصر فاهبطوا إلى هناك ، وامتاروا لنا فنحيا ولا نموت .</p>	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
(٢) فهبط عشرة من إخوة يوسف ليتعاونوا بُرآ من مصر.	
(٤) وأما بنيامين أخو يوسف فلم يبعثه يعقوب مع إخوته لأنه قال له لعله يلحقه سوء.	
(٥) وأتى بنو إسرائيل فين أتى ليتاروا إذ كان الجموع في أرض كنعان.	
(٦) وكان يوسف هو المسلط على الأرض والممير لجميع شعب الأرض فجاء إخوته وسجدوا له بوجوههم إلى الأرض.	
(٧) ولما رأى يوسف إخوته عرفهم فتتذرع لهم وكلهم بعفاء وقال لهم من أين قدمتم قالوا له من أرض كنعان لنبتاع طعاماً.	(٥٨) ﴿وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهو له مُنْكِرٌ﴾
(٨) وعرف يوسف إخوته وأما هم فلم يعرفوه.	
(٩) فتذكرة يوسف الأحلام التي حلمها بهم فقال لهم أنتم جواسيس إنما جئتم لتجسوا ثغور الأرض.	
(١٠) فقالوا له لا يا سيدى إنما جاء عبيده ليتعاونوا طعاماً.	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
(١١) نحن كلنا بنو رجل واحد إنما سليمو القلب ليس عبيده بجوايس .	
(١٢) فقال لهم كلاماً بل إنما جئتم لتجسوا ثغور الأرض .	
(١٣) قالوا : عبيده أثنا عشر أخاً نحن بنو رجل واحد في أرض كنعان ، هو ذا الصغيراليوم عندأيينا والواحد مفقود .	
(١٤) فقال لهم يوسف بل الأمر كما قلت لكم أنتم جوايس .	
(١٥) وبهذا تختنون وحياة فرعون لاخرجتم من ههنا أو يجيء أخوكم الأصغر إلى ههنا .	(٥٩) ﴿ولما جهزهم بجهازهم قال أئتوني بأخ لكم من أئكم لا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المزلين﴾
(١٦) ابعشو واحداً منكم يأتي بأخيم وأنت تقيدون حتى تختن كلامكم هل أنت صادقون وإلا فوحية فرعون إنكم جوايس .	
(١٧) فجعلهم في الحبس ثلاثة أيام .	(٦٠) ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون﴾
(١٨) وفي اليوم الثالث قال لهم يوسف اصنعوا هذا تحيوا ، إني أتقى الله .	
(١٩) إن كنتم سليمي القلوب فواحد منكم يَقْيَدُ في بيت حبسكم ، وأنتم فانطلقو .	(٦١) ﴿ قالوا سراواه عنده أباء وإنما لفاعلون﴾

القصة الكتابية	القصة القرآنية
وخدوا ميرة لجماعة بيتكم .	
(٢٠) وأتوا بأخيك الصغير إلى ليتحقق كلامكم ولا تهلكوا فصنعوا كذلك .	
(٢١) وقال بعضهم لبعض : إنما الآثون في أخينا إذ رأينا نفسه في شدة وقد استرحنا فلم نسمع له ؛ لذلك نالتنا هذه الشدة .	
(٢٢) فأجابهم رأوبين قائلاً : ألم أقل لكم لاتأثروا في دم الولد وأنتم لم تسمعوا ، لذلك نحن مطالبون بدمه .	
(٢٣) ولم يكونوا يعلمون أن يوسف يفهم ذلك لأنه جعل ترجماناً بينه وبينهم .	
(٢٤) فتحول عنهم وبكي ، ثم عاد إليهم وخطبهم وأخذ من بينهم شمعون فقيده بشهادهم .	
(٢٥) وأمر يوسف أن تملأ أوعيهم برأ وترد فضة كل واحد في جوالقه وأن يعطوا زاداً للطريق ، فصنع لهم كذلك .	
(٢٦) وحملوا ميرتهم على حميرهم وساروا من هناك .	(٦٢) ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعِلُوهُمْ بِضَاعَتِهِمْ فِي رَحَامِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرَفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾
(٢٧) وفتح أحدهم جوالقه ليطرح علها في المبيت لمحاره فرأى فإذا فضته في فم جوالقه .	-

القصة الكتابية	القصة القرآنية
(٢٨) فقال لإخوهه قد ردت فضي وهاهي ذي في جوالقي فاستطارت قلوبهم ويهتوا بعضهم إلى بعض قائلين: ما فعل الله بنا.	
(٢٩) وجاؤوا يعقوب أباهم في أرض كنعان فقصوا عليه جميع ما نالهم وقالوا :	(٦٢) ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنِعَ مِنَ الْكَيْلِ فَأَرْسَلْنَا مَعْنَا أَخَانَا
(٣٠) قد خاطبنا الرجل سيد الأرض بجفاء واتهمنا بتجسس الأرض.	نَكْتُلْ وَإِنَا لَهُ لَخَافِظُونَ﴾
(٣١) فقلنا لـه نحن سليم القلوب لسنا بجواصيس.	
(٣٢) نحن اثنا عشر أخاً بنو آبينا أحدهنا مفقود والصغير اليوم عند آبينا في أرض كنعان.	(٦٤) ﴿قَالَ هَلْ آمِنْتُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمْ أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلِهِ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾
(٣٣) فقال الرجل سيد الأرض بهذا أعلم أنكم سليم القلوب ، دعوا عندي أخاً منكم وامتاروا الجماعة بيوتكم وانصرفوا.	(٦٥) ﴿وَلَا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعِتِهِمْ رَدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتِنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزَدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ، ذَلِكَ كَيْلَ يَسِيرٍ﴾
(٣٤) وأنوبي بأخيكم الصغير فأعلم أنكم لست بجواصيس وأنكم سليم القلوب فأعطيكم أخاكم وتجررون في الأرض.	(٦٦) ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكَيْلٌ﴾
(٣٥) وبينما هم يفرغون أوعيائهم إذا بصرة فضة كل واحد في جوالقه فلما رأوا صرفتهم هم وأبواهم خافوا.	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
<p>(٣٦) فقال لهم يعقوب أبوهم : قد أثلكتوني ، يوسف مفقود وشمعون مفقود وبنيامين تأخذونه ، عليّ نزلت هذه كلها .</p>	
<p>(٣٧) فكلم رأوبين أباه قائلاً : إن لم أعد به إليك فقاتل ولدي ، سلمه إلى يدي وأنا أرده عليك .</p>	
<p>(٣٨) قال لا ينحدر ابني معكم لأن أخيه قد مات وهو وحده بقي ، فإن صادفه سوء في الطريق الذي تذهبون فيه أنزلتم شبيتي بحسرة إلى الجحيم .</p>	
(الفصل الثالث والأربعون)	
<p>(١) وكان الجوع شديداً في الأرض .</p>	
<p>(٢) فلما فرغوا من أكل الميرة التي أتوا بها من مصر ، قال لهم أبوهم : ارجعوا فابتاعوا لنا قليلاً من الطعام .</p>	
<p>(٣) فكلمه يهودا قائلاً : إن الرجل أشهد علينا ، وقال : لا ترون وجهي إلا وأخوكم معكم .</p>	
<p>(٤) فإن بعثت أخانا اخدرنا وابتعدنا لك طعاماً .</p>	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
(٥) وإن لم تبعثه لاتنحدر لأن الرجل قال لنا : لا ترون وجيء إلا وأخوكم معكم .	
(٦) فقال إسرائيل ولم أسمكم إلي وأخبرتم الرجل أن لكم أخا أيضا ؟	
(٧) قالوا : إن الرجل سأله عننا وعن عشيرتنا ، وقال أبوكم باق بعد ، وهل لكم أخ ؟ فأخبرناه بحسب هذا الكلام . هل كنا نعلم أنه سيقول : أحضروا أخاكم ؟ ..	
(٨) وقال يهودا لإسرائيل أيه : ابعث الغلام معي حتى تقوم وغضي ونخيا ولانجوت نحن وأنت وأطفالنا جيعا .	
(٩) أنا أضنه ، من يدي تطلبك إن لم أعد به إليك ، وأقه بين يديك فأنا مذنب إليك طول الزمان .	
(١٠) إنه لولا أنا تلبيتنا لكنا الآن قد رجعنا مرتين .	
(١١) فقال لهم إسرائيل أبوهم : إن كان ذلك كذلك فاصنعوا هذا ، خذوا من أطيب فاكهة الأرض في أوعيتكم ، واستصحبوا هدية إلى الرجل شيئاً من	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
<p>البلسان وشائعاً من الدبس ونكعة ولاذناً وفستاناً ولوزاً.</p>	
<p>(١٢) وخذوا معكم فضة أخرى في أيديكم، والفضة المردودة في أفواه أوعيتكم ردوها معكم، لعل ذلك كان سهواً.</p>	
<p>(١٣) وخذوا أخاكم وقوموا فارجعوا إلى الرجل.</p>	<p>(٦٧) ﴿وقال يابني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت عليه فليتوكل المتكللون﴾</p>
<p>(١٤) والله القدير بهم رحمة أمام الرجل، فيطلق لكم أخاكم الآخر وبنiamين وإن ثكلتهم أكن ثكلتهم.</p>	
<p>(١٥) فأخذ القوم هذه الهدية وأخذوا فضة أخرى في أيديهم وبنiamين وقاموا وانحدروا إلى مصر ووقفوا بين يدي يوسف.</p>	
<p>(١٦) فلما رأى يوسف بنiamين معهم قال لقيم بيته أدخل القوم البيت واذبح ذبيحة وهبها فإن القوم يأكلون معى عند الظهر.</p>	<p>(٦٨) ﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾</p>
<p>(١٧) فصنع الرجل كأمره يوسف وأدخل ال القوم بيته يوسف.</p>	
<p>(١٨) فخافوا إذ دخلوا بيته يوسف وقالوا إنما نحن مدخلون بسبب الفضة التي</p>	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
<p>رددت في جواليقنا أولاً ليتسبب علينا ويقع بنا ويأخذنا بعيداً ويأخذ حمرنا.</p>	
<p>(١٩) فتقدموا إلى قيم البيت وكلموه عند باب البيت.</p>	
<p>(٢٠) وقالوا استمع يا سيدي إنا اخدرنا أولاً لنبتاع طعاماً.</p>	
<p>(٢١) وكان لما صرنا إلى البيت وفتحنا جواليقنا أنا وجدنا فضة كل واحد في جوالقه فضتنا بوزنها فرددناها معنا.</p>	
<p>(٢٢) وأتينا بفضة أخرى معنا لنبتاع طعاماً لا نعلم من جعل فضتنا في جواليقنا.</p>	
<p>(٢٣) فقال سلام لكم لا تخافوا إن إلهم وإله أيكم رزقكم كنزاً في جواليقكم وأما فضتكم فقد صارت عندي. ثم أخرج إليهم شعون.</p>	
<p>(٢٤) وأدخل الرجل القوم بيت يوسف وأعطاهم ماء فغلوا أرجلهم وطرح علفأً لميرهم.</p>	
<p>(٢٥) وهيؤوا المدية حتى يجيء يوسف عند الظهر لأنهم سمعوا بأنهم هناك سيأكلون طعاماً.</p>	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
(٢٦) ولما قدم يوسف إلى البيت أدخلوا له المديرة التي في أيديهم إلى البيت وسجدوا له إلى الأرض .	
(٢٧) فسأل عن سلامتهم ثم قال هل أبوكم الشيخ الذي ذكرتكم في سلام ... أحي هو بعد ؟	
(٢٨) قالوا عبدك أبونا في سلام ولا يزال حياً وخرعوا له وسجدوا .	
(٢٩) ورفع طرفه ونظر بنيامين أخيه ابن أمه فقال : لهذا أخوك الصغير الذي ذكرتكمه لي ، وقال : يرافقكم الله يك يا بني .	(٦١) ﴿ ولما دخلوا على يوسف أوى إليه أخيه قال إني أنا أخوك فلا تبئس بما كانوا يعملون ﴾
(٣٠) ثم أسرع يوسف وقد تحرك فواده نحو أخيه وأراد أن يبكي فدخل الخد ع و بكى هناك .	
(٣١) ثم غسل وجهه وخرج وتجدد وقال قدموا الطعام .	
(٣٢) فقدموا له وحده و لهم وحده ، وللمصريين الأكلين عنده وحده ، لأن المصريين لا يجوز لهم أن يأكلوا مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين .	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
<p>(٢٣) وأجلسوا بين يديه البكر في مرتبته والصغير في مرتبته فبهت القوم بعضهم إلى بعض .</p>	
<p>(٢٤) ثم رفع حصصاً من بين يديه إليهم فكانت حصة بنيامين أكثر من حصة الواحد منهم خمسة أضعاف وشربوا معه حتى سكروا .</p>	
<p>(الفصل الرابع والأربعون)</p>	
<p>(١) ثم أمر قيم بيته وقال له املأ جواليق ال القوم طعاماً قدر ما يطيقون حمله وأجعل فضة كل واحد في جوالقه .</p>	<p>(٧٠) ﴿فَلَمَّا جَهَّزُوهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَاءِيَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذْنَ مَؤْذِنَ أَيْتَهَا الْعِيرَ إِنْكُمْ لَسَارِقُونَ﴾</p>
<p>(٢) واجعل جامي جام الفضة في جوالق الصغير مع فضة ميرته . فصنع بحسب كلام يوسف الذي أمره به .</p>	<p>(٧١) ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾</p>
<p>(٣) فلما أضاء الصبح انصرف القوم بمحيرهم .</p>	<p>(٧٢) ﴿قَالُوا نَفِقَدْ صَوَاعِ الْمَلَكِ وَلِنْ جَاءَ بِهِ حَلْ بَعِيرٌ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾</p>
<p>(٤) فبعد أن خرجنوا من المدينة ولم يبعدوا قال يوسف لقيم بيته : قم فاسع في أثر ال القوم فإذا أدركتم فقل لهم : لم كافأتم الخير بالشر ؟</p>	<p>(٧٣) ﴿قَالُوا تَالَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جَئَنَا لِنَفْسِنَا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَنَا سَارِقِينَ﴾</p>
<p>(٥) أليس هذا هو الذي يشرب به مولاي ويتفاءل به ؟ قد أسلتم فيها صنعتم .</p>	<p>- ٢٣٩ -</p>

القصة الكتابية	القصة القرآنية
(٦) فلهم و قال لهم ذلك الكلام .	
(٧) قالوا له : لماذا يتكلم سيدك بمثل هذا الكلام حاش لعيذك أن يصنعوا مثل هذا الأمر .	(٧٤) ﴿ قالوا ما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾
(٨) فإن الفضة التي وجدناها في أفواه جواليقنا رددناها عليك من أرض كنعان فكيف نسرق من بيت مولاك فضة أو ذهباً ؟	(٧٥) ﴿ قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين ﴾
(٩) من وجد معه من عيذك فليقتل ونحن أيضاً نكون لسيدي عيذاً .	
(١٠) قال نعم وبحسب قولكم فليكن من وجد معه يكون لي عبداً وأنتم تكونون أبرياً .	
(١١) فبادر وحط كل واحد جوالقه على الأرض وفتح كل واحد جوالقه .	
(١٢) ففتشهم مبتدئاً بالأكبر حتى جوالق بنiamين .	(٧٦) ﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كيذنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم علیم ﴾
(١٣) فزروا شيا بهم وحمل كل واحد حاره ورجعوا إلى المدينة .	
(١٤) ودخل يهودا وإخوته بيت يوسف وهو لم يزل هناك ووقعوا بين يديه على الأرض .	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
(١٥) فقال لهم يوسف ما هذا الصنيع الذي صنعتم أما علتم أن رجلاً مثل يتفاءل؟	
(١٦) فقال يهودا : ما تقول لسيدي . بم نتكلم وبماذا نتبرأ؟ قد كشف الله ذنب عبيدي . ها نحن أولاء عبيد لسيدي نحن ومن وجد الجام في يده .	
(١٧) قال حاش لي أن أصنع هذا . بل الرجل الذي وجد الجام في يده هو يكون عبداً وأنتم تصعدون بسلام إلى أيكم .	
(١٨) فتقدمن إلية يهودا وقال يا سيدى أتتوك أن يتكلم عبدي كلمة على مسمع سيدى ولا يشتد غضبك على عبدي فإنك مثل فرعون .	
(١٩) كان سيدى سأله عبيده هل لكم أب أو أخ .	
(٢٠) فقلنا لسيدي لنا أب شيخ ، وابن شيخوخته صغير وأخ قد مات وبقي هو وحده لأمه ، وأبوه يحبه .	
(٢١) فقلت لعبيده انزلوا به إلی واجعل نظري عليه .	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
(٢٢) فقلنا لسيدي لا يقدر الغلام أن يترك أباه وإن تركه يمت أبوه.	
(٢٣) فقلت لمبيدك إن لم ينحدر أخوكم الصغير معكم فلا تعاودوا تنتظرون وجهي.	
(٢٤) فكان لما صعدنا إلى عبده أبي أنا أخبرناه بكلام سيدى.	
(٢٥) وقال أبونا ارجعوا فاشترونا قليلاً من الطعام.	
(٢٦) فقلنا لا نقدر أن ننحدر وإنما إن كان أخونا الصغير معنا ننحدر لأننا لا نقدر أن ننظر وجه الرجل مالم يكن أخونا الصغير معنا.	
(٢٧) فقال لنا عبده أبي : أنت تعلمون أن امرأة ولدت لي ابنين.	
(٢٨) فخرج أحدهما من عندي وقلت إنه قد افترس وإلى الآن لم أره.	
(٢٩) فإن أخذتم هذا أيضاً من أمامي فأصابه سوء أنزلم شيئاً بالشقاء إلى الجحيم.	
(٣٠) والآن إذا بلغت إلى عبده أبي والغلام ليس معنا ونفسه متعلقة بنفسه.	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
(٣١) فيكون أنه عندما يرى أن الغلام مفقود يموت ويخدر عبدهك شيبة عبدك أينما بحسرة إلى الجحيم .	(٧٧) ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقُ فَقَدْ سَرَقَ أَخْ لَهُ مِنْ قَبْلَ فَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يَئِدْهَا لَهُمْ قَالَ أَتُنْتُ شُرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصْنَعُونَ﴾
(٣٢) لأن عبده قد ضمن الغلام لأبي قائلأ: إن لم أعد به إليك أكن مذنبًا إلى أبي طول الزمان .	
(٣٣) فليبيق عبدهك الآن مكان الغلام لسيدي ويصعد الغلام مع إخوته .	(٧٨) ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شِيخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهِ إِنَا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾
(٣٤) فإني كيف أصعد إلى أبي والغلام ليس معي فأشهد البلاء الذي يحل به .	
	(٧٩) ﴿قَالَ مَعَاذُ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مِنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهِ إِنَّا إِذَا لَظَلَمْنَا مَنْ﴾
	(٨٠) ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَاصَّوْهُ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاهُكُمْ قَدْ أَخْذَ عَلَيْكُمْ مَوْتَقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلِ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أُبْرِحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذِنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾
	(٨١) ﴿هَارْجَعُوا إِلَيْكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ أَبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهَدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كَنَّا لِلْفَيْبِ حَافِظِينَ﴾
	(٨٢) ﴿هَوَاسْأَلَ الْقَرِيْبَةِ الَّتِي كَنَّا فِيهَا وَالْعِيْزَ﴾

القصة الكتابية	القصة القرآنية
	التي أقبلنا فيها وإننا لصادقون ﴿٤﴾
	﴿قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصيّرْ جيّلَ عَنِ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ جِيّعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٨٣)
	﴿وَتَوَلَّوْنَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِيَّضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْخَرْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٨٤)
	﴿قَالُوا تَالَّهِ تَفْتَأِذْنُكَ يُوسُفُ حَقٌّ تَكُونُ حَرَّاصاً أَوْ تَكُونُ مِنَ الْمَالِكِينَ﴾ (٨٥)
	﴿قَالَ إِنِّي أَشْكُو بَشِّي وَحْزُنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٦)
(الفصل الخامس والأربعون)	﴿يَا أَبَيَ اذْهِبُوا فَتَحْسَسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَسُّرُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧)
(١) فلم يستطع يوسف أن يضبط نفسه لدى جميع الواقفين فنادى أخريجوا كل أحد من بين يديه . فلم يقف عنده أحد حين تعرف إلى إخوته .	﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضرُّ وَجَئْنَا بِضَاعَةٍ مِنْزَجَةٌ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلُ وَتَصْدِيقُ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَعْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (٨٨)
(٢) فأطلق صوته بالبكاء فسمعه المصريون وسمعه آل فرعون .	
(٣) وقال يوسف لإخوته : أنا يوسف	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
<p>أحى أبي بعد . فلم يستطع إخوته أن يجربوه لأنهم ارتابوا قدامه .</p>	
<p>(٤) فقال يوسف لإخوته تقدموا إلي فتقديموا فقال : أنا يوسف أخوك الذي بعثوه إلى مصر .</p>	<p>(٨٩) ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتَ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذَا أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾</p>
<p>(٥) والآن لا تأسفوا ولا يشق عليكم أنكم بعثوني إلى هنا فإن الله قد بعثني أمامكم لأحييك .</p>	<p>(٩٠) ﴿قَالُوا أَنْتَ لَأْنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقُّ وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيغُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾</p>
<p>(٦) وقد مضت سنتا جوع في الأرض وبقي خمس سنين ليس فيها حرث ولا حصاد .</p>	
<p>(٧) فبعثني الله قدامكم ليجعل لكم بقية في الأرض وليستبقيكم لنجاة عظيمة .</p>	
<p>(٨) فالآن لا أنت بعثوني إلى هنا بل الله وهو صيرني أباً لفرعون وسيداً لجميع أهله ومتسلطاً على أرض مصر .</p>	<p>(٩١) ﴿قَالُوا تَالَّهِ لَقَدْ آثَرْتَ اللَّهَ عَلَيْنَا إِنَّ كَنَا لَخَاطِئِينَ﴾</p>
<p>(٩) فبادروا وأشخاصوا إلى أبي وقولوا له كذا قال ابنك يوسف قد جعلني الله سيداً لجميع المصريين ، هلم إلى ولا تقف .</p>	<p>(٩٢) ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾</p>
<p>(١٠) فتقى في أرض جasan وتكون قريباً مني أنت وبنوك وبنيك وغمك وبدرك وجميع ما هولك .</p>	<p>(٩٣) ﴿فَأَذْهَبُوا بِقُمِصِي هَذَا فَأَلْقَوْهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُوْنِي بِأَهْلِكَ أَجْمَعِينَ﴾</p>

القصة الكتابية	القصة القرآنية
(11) وأعولك ه هنا إذ قد بقي خمس سنين جوعاً لـ لاتفاقك أنت وأهلك وجميع مالك.	
(12) وهذه عيونكم ناظرة وعيناً أخي بنيامين إن في الذي يخاطبكم.	
(13) فأخبروا أبي بجميع مجده بصر وجميع ما رأيتوه وبادروا فاهبتوه بأبي إلى هنا.	
(14) ثم ألقى بنفسه على عنق بنيامين أخيه فبكى وبكى بنيامين على عنقه.	
(15) وقبل سائر إخوته وبكى معهم وبعد ذلك كلاموه.	
(16) وفنا الخبر إلى بيت فرعون وقيل قد جاء إخوة يوسف فحسن ذلك في عيني فرعون وعيون عبيده.	
(17) فقال فرعون ليوسف قل لإخوتك اصنعوا هذا حملوا دوابكم وانطلقوا وادخلوا أرض كنعان.	
(18) وخذدوا أباماكم وبيوتكم وتعالوا إلى فأعطيكم خير أرض مصر وتأكلوا دسم الأرض.	
(19) وأنت مأمور أن تقول لهم اصنعوا هذا	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
<p>خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأطفالكم ونسائكم واحلوا أباماً وتعالوا .</p>	
<p>(٢٠) ولا تحزن عيونكم على أثاثكم إن خير جميع أرض مصر هو لكم .</p>	
<p>(٢١) فصنع كذلك بنو إسرائيل أعظام يوسف عجلات بأمر فرعون وأعظام زاداً للطريق .</p>	
<p>(٢٢) وأعطي كل واحد منهم حلل ثياب ، وأعطي بنiamين ثلاثة مئة من الفضة وخمس حلل ثياب .</p>	
<p>(٢٣) وبعث إلى أخيه مثل ذلك . وبعث إليه أيضاً بشرة حمير محملة من خير مصر وعشرون حملة براً وخبزاً وزاداً لأخيه للطريق .</p>	
<p>(٢٤) ثم صرف إخوته فضوا وقال لهم لا تتخاصلوا في الطريق .</p>	<p>(٩٤) ﴿ولما فضلت العير قال أبواهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾</p>
<p>(٢٥) فشخصوا من مصر وصاروا إلى أرض كنعان إلى يعقوب أبيهم .</p>	<p>(٩٥) ﴿قالوا والله إنك لفي ضلالك القديم﴾</p>
<p>(٢٦) وأخبروه وقالوا إن يوسف لا يزال باقياً وهو أيضاً مسلط على جميع أرض مصر فحمد قلبه لأنه لم يصدقهم .</p>	<p>(٩٦) ﴿فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدى بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله مالا تعلمون﴾</p>
<p>(٢٧) ثم كلموه بجميع كلام يوسف الذي كلامهم به ورأى العجلات التي بعث بها</p>	

القصة الكتابية	القصة القرآنية
<p>يوسف لتحمله فعاشت روح يعقوب أبيهم .</p> <p>(٢٨) وقال إسرائيل حسي أن يوسف ابني لا يزال باقياً أمضى وأراه قبل أن موت .</p>	
<p>(الفصل السادس والأربعون)</p>	
<p>(١) فارتحل إسرائيل بجميع ماله حتى جاء بئر سبع فذبح ذبائح لإله أبيه إسحق .</p>	<p>(٩٧) ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذَنْبُنَا إِنَا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾</p>
<p>(٢) فكلم الله إسرائيل ليلاً في الحلم وقال : يعقوب يعقوب قال هأنذا .</p>	<p>(٩٨) ﴿قَالَ سُوفَ أَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾</p>
<p>(٣) قال أنا الله إله أبيك لا تخاف أن تهبط مصر فإني سأجعلك ثم أمة عظيمة .</p>	
<p>(٤) أنا أهبط معك إلى مصر وأنا أصعدك ، ويوسف هو يغمض عينيك .</p>	
<p>(٥) فقام يعقوب من بئر سبع وحمل بنو إسرائيل يعقوب أباهم وأطفالهم .</p>	
<p>(يلي ذلك أسماء بني إسرائيل الذين جاووا إلى مصر)</p>	
<p>(٢٨) فبعث هؤلاً قدامه إلى يوسف ليدلهم على أرض جasan ، ثم جاؤوا أرض جasan .</p>	<p>(٩٩) ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوْيَ إِلَيْهِ أَبُوهِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾</p>
<p>(٢٩) فشد يوسف على مركبته وصعد ليلاً في</p>	<p>(١٠٠) ﴿وَرُفِعَ أَبُوهِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرَّوْا إِلَيْهِ</p>

القصة الكتابية	القصة القرآنية
<p>إسرائيل أباه في جasan فلما ظهر له ألقى بنفسه على عنقه وبكى على عنقه طويلاً.</p>	<p>سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤيامي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجنـي من السجن</p>
<p>(٣٠) فقال إسرائيل ليوسف : دعني أموت الآن بعد ما رأيت وجهك لأنك بعد باق .</p>	<p>وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيـني وبين إخـوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العـلـيم الـحـكـيم</p>
<p>(٣١) ثم قال يوسف لإخـوته ولآلـيـه : أنا صاعد إلى فـرعـون لـأـخـبـرـه وأـقـولـه إنـ إـخـوـيـ وـآلـأـبـيـ الـذـيـنـ كـانـواـ فـيـ أـرـضـ كـنـعـانـ قـدـ قـدـمـواـ عـلـيـ .</p>	
<p>(٣٢) والـقـوـمـ رـعـاـةـ غـنـمـ لـأـنـهـ كـانـواـ أـصـحـابـ ماـشـيـةـ وـقـدـ أـتـوـ بـغـنـمـ وـبـقـرـهـ وـجـبـرـهـ وـجـيـعـ مـاـ هـوـ لـهـ .</p>	
<p>(٣٣) فـإـذـ اـسـتـدـعـاـكـمـ فـرـعـونـ وـقـالـ لـكـ ماـ حـرـفـتـكـ .</p>	<p>(١٠١) (رب قد آتـيـتـيـ مـنـ الـلـكـ وـعـلـمـتـيـ مـنـ تـأـوـيلـ الـأـحـادـيـثـ فـاطـرـ السـوـاـتـ</p>
<p>(٣٤) فـقـولـواـ كـنـاـ ذـوـيـ ماـشـيـةـ مـنـذـ صـغـرـنـاـ إـلـىـ الـآنـ وـنـحـنـ وـآـبـاؤـنـاـ جـمـيـعـاـ لـكـ تـقـيـوـاـ بـأـرـضـ جـاسـانـ لـأـنـ كـلـ رـاعـيـ غـنـمـ هـوـ عـنـدـ الـمـصـرـيـنـ رـجـسـ .</p>	<p>وـالـأـرـضـ أـنـتـ وـلـيـيـ فـيـ الدـنـيـاـ وـالـآـخـرـةـ تـوـفـيـ مـسـلـاـ وـالـحـقـيـقـيـ بـالـصـالـحـيـنـ</p>
<p>(الفصل السابع والأربعون)</p>	
<p>(١) فـدـخـلـ يـوـسـفـ عـلـىـ فـرـعـونـ وـأـخـبـرـهـ وـقـالـ ...ـالـخـ ...ـ</p>	

جدول التفاصيل القرآنية في قصة يوسف

- ١ -

رقم الآية القرآنية	الرواية القرآنية	الرواية الكتابية	ملاحظات
٢-١	مدخل يضع القصة في إطار الظاهرة الدينية	مدخل يضع القصة في الإطار العائلي	اختلاف
٦-٤	رؤيا واحدة ليوسف	رؤيان ليوسف	اختلاف
١٥-٧	ذهاب يوسف بموافقة يعقوب	ذهاب يوسف بأمر يعقوب	اختلاف
١٨-١٦	ارتباط يعقوب في أولاده وأمهه عقب المؤامرة	سرعة تصديق يعقوب و Yashe عقب المؤامرة	اختلاف
٢٠-١٩	بيع يوسف ووصوله إلى مصر	الرواية نفسها	القرآن يؤكد أكثر تدخل إرادة الله
٢٤	هم يوسف بالعصية وبرهان الله له	لم يرد	
٢٥	القديص تأخذ المرأة	القديص تأخذ المرأة	
٢٩-٢٧	إدانة خلقية من الزوج لزوجه	غضب الزوج على يوسف	اختلاف
٣١-٣٠	فضيحة في المدينة واجتئاع النساء	لم يرد	
٣٤	دعاء يوسف أمام إخراج المرأة	لم يرد	النبي يتحدث أكثر في القرآن
٤٠-٣٦	وعظ يوسف لاصحابه	لم يرد	
٤١	تعبر الرؤيين يطلب من يوسف	تعبر الرؤيين يتقدم به يوسف	اختلاف
٤٨-٤٢	حل نفسي لقادة السجن باعتراف المرأة	حل سياسي مترب على رؤيا فرعون	الروح تتكلم أكثر في القرآن
٤٩	تکهن بعام الرخاء والتجاة	لم يرد	
٥٣	وعظ في حضرة الملك	لم يرد	شخصية النبي أكثر ظهوراً في القرآن

رقم الآية القرآنية	الرواية القرآنية	الرواية الكتائية	ملاحظات
٥٤	رد اعتبار يوسف	مهمة محمود بها إلى يوسف	عدالة في القرآن وسياسة في التوراة
٥٥	يوسف يطلب مسؤولية الحازن	مسؤولية الحازن تعرض عليه	اختلاف
٥٧	اهتمام بالآخرة	لم يرد	الدين يتكلّم أكثر في القرآن
٦٢ - ٥٨	مشهد يوسف مع إخوته	صورة بتصرف	يوسف أكثر نبوة في القرآن
٦٢ - ٦٣	بواعث العودة إلى مصر : مسعى أبناء يعقوب لديه	بواعث العودة إلى مصر ، أمر يعقوب الذي يبدو كأنما ترك شمعون لصيده	الاتهام بالجاسوسية اعتقال شمعون غير وارد في القرآن
٦٩ - ٦٨	وصولهم إلى مصر وتأمر يوسف	الصورة نفسها	
٧٦ - ٧٥	رحيل إخوة يوسف واعتقال بنiamin	مع بعض التصرف	
٨٠	تشاور الإخوة	لم يرد	
٨٧ - ٨١	عودة الأبناء إلى يعقوب الذي يستعين بالأمل والمصايرة	لم يرد	
٨٨	عودة إلى مصر لدى يوسف	لم يرد	
٩٢ - ٨٩	مشهد الحل بعفو يوسف عن إخوته	حل الموقف بانفعال يوسف	اختلاف
٩٣	إرسال قيس يوسف إلى أبيه	لم يرد	
٩٤ - ٩٥	وجدان يعقوب	م يرد	
٩٦ - ٩٩	شفاء يعقوب ودعاؤه وغفوه عن بنيه	لم يرد	
١٠١	ختام يوسف للقصة بحمد الله والشأن عليه	لم يرد	المعالم الروحية في القرآن

النتائج الموازنة للروايتين

في هاتين الروايتين اللتين فرغنا من عرضهما يمكننا أن نوازن بعض العناصر المتشابهة ، بطريقة تبرز لنا الطابع الخاص بالقرآن . ثم إننا نحتاج أن نبحث قضية هذا التشابه بين الكتاين ، وهو أمر جد مفيد لموضوعنا .

إن سدى التاريخ واحد تماماً في كلتا الروايتين ، ومع ذلك فإن مجرد التأمل السريع يمكن أن يكشف لنا عن عناصر خاصة تميز كلتيهما على حدة ، فرواية القرآن تنغمر باستقرار في مناخ روحاني ، نشعر به في مواقف وكلام الشخصيات التي تحرك المشهد القرآني . فهناك قدر كبير من حرارة الروح في كلمات يعقوب ومشاعره في القرآن ، فهو نبي أكثر منه أباً ، وتبرز هذه الصفة خصوصاً في طريقته في التعبير عن يأسه عندما علم باختفاء يوسف . كا تتجلى في طريقته في تصوير أمله حين يدفع بنيه إلى أن يتحسوا من يوسف وأخيه . وامرأة العزيز نفسها تتحدث في رواية القرآن بلغة تليق بضمير إنساني وخزه الندم ، وأرغمتها طهارة الضحية ونراحتها على الاستسلام للحق ، فإذا بالخاطئة تعرف في النهاية بغلطتها . وفي السجن يتحدث يوسف بلغة روحية ملقة ، سواء مع صاحبيه ، أم مع السجان ، فهو يتحدث بوصفه نبياً يؤدي رسالته إلى كل نفس يرجو خلاصها .

وفي مقابل ذلك نجد الرواية الكتائية تبالغ بعض الشيء في وصف الشخصيات المصرية - الوثنية بالطبع - بأوصاف عبرانية ، فالسجان يتحدث بوصفه موحداً^(١) ، وفي القسم الخاص بتعبير الرؤيا في القصة يرسم رمز الماجعة في

(١) التوراة الفصل التاسع والثلاثون جلة ٢٤ .

صورة أقل إجادة ، فعبارة التوراة هي : « فابتلعت السنابل الجياد »^(١) ، أما في الرواية القرآنية فإنها تعقبها فحسب .

والرواية الكتابية تكشف أيضاً عن أخطاء تاريخية تثبت صفة (الوضع التاريخي) للفقرة التي نناقشها ، فمثلاً فقرة « لأن المصريين لا يجوز لهم أن يأكلوا مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين »^(٢) يمكننا التأكيد بأنها من وضع النساخ الماليين إلى أن يذكروا فترة المحن التي أصابت بني إسرائيل في مصر ، وهي بعد زمن يوسف .

وفي رواية التوراة استخدام إخوة يوسف في سفرهم « حيراً » بدلأً من (العير) في رواية القرآن ، على حين أن استخدام الحمير لا يمكن أن يتسع للعبرانيين إلا بعد استقرارهم في وادي النيل ، بعد ما صاروا حضريين ، إذ الحمار حيوان حضري عاجز في كل حالة عن أن يجتاز مسافات صحراوية شاسعة لكي يجبيء من فلسطين ، وفضلاً عن ذلك فإن ذرية إبراهيم ويوسف كانوا يعيشون في حالة الرعاة الرحل ، رعاة المواشي والأغنام .

وأخيراً فإن (حل) عقدة القصة يحمل طابع السرد التاريخي في الرواية الكتابية ، فهو يشتمل في الفصول الأخيرة - التي أثثنا حذفها كيما تتجنب الإطالة المملاة - على تفاصيل مادية عن استقرار العبرانيين في مصر .

أما في القرآن فإن هذا الحل يدور حول الطابع المميز للشخصية المحورية : يوسف الذي يختتم هذا الختام المنتصر .

(١) الرواية الكاثوليكية تقول « السنابل الجياد تلتهم الخ ... » .

(٢) التوراة الفصل الثالث والأربعون جلة ٢٢ .

﴿ وَرَفَعَ أَبُو يَهٰءِي عَلَى الْعَرْشِ وَخَرَّوْلَهُ سَجَّدًا ، وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ
رَؤْيَايِي مِنْ قَبْلٍ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السَّجْنِ ،
وَجَاءَ بَكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَّعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْرَقِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لَمَّا
يَشَاءُ ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يُوسُفُ ١٢/١٠٠]



البحث النقدي للمسألة

أياً ما كان الاختلاف بين الروايتين ، فإن الصلة بينهما تظل على أية حال بينة ، فقد أوحى إلى النقد في جميع العصور بالاعتراضات المتخالفة . هذه الاعتراضات يمكن أن تتلخص في فرضين :

الأول : أن النبي قد تسبح - دون علم - بالفكرة التوحيدية ، التي ربما تثلها لا شعورياً في عقريته الخاصة ، كما يفيضها بعد ذلك في آيات القرآن .

الثاني : أن النبي قد تعلم الكتب المقدسة اليهودية المسيحية ، تعلمًا مباشراً ، وشعورياً ، لكي يستخدم ذلك فيما بعد في بناء القرآن .

تلük هي المشكلة الخطيرة .

ولكي نخلها ينبغي أن نبحث هذين الفرضين على التوالي من الوجهتين التاريخية والنفسية .

وربما كان من المفيد لفهم هذا الفصل أن نعتمد على معلومات المقياس الأول ، ونتائجها التي استخلصناها عن الذات الحمدية .

☆ ☆ ☆

الفرض الأول

هذا الفرض ذو شقين :

أولهما : وجود تأثير يهودي مسيحي في الوسط الجاهلي .

ثانيهما : الطريقة التي تنسى بها لهذا التأثير أن يبرز في الظاهرة القرآنية .

ولكن جميع الأبحاث التي توجهت إلى الكشف عن هذا التأثير في البيئة العربية قبل الإسلام لم تأت بأية نتيجة إيجابية .

وإذا تعكس صورة هذه البيئة في أدب لغتها المشتركة ، وفي أدبها الشعبي الذي يفصح عن أمية عامة ، فهي بيئه (أميين) حسب التعبير التاريخي للقرآن .

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأَمَيْنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتٍ وَيُزَكِّيْهِمْ وَيَعْلَمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لِفْيِ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة ٢/٦٢]

والوثائق المخطوطة عن هذا العصر نادرة ، فإن ثروته الفكرية وأدبها الشعبي لم يحفظ إلا بطريق الرواية المشافهة ، ذلك الطريق الذي أوصل جوهر التراث إلى عصور الأدب والعلم الإسلامية .

على أن القرآن يعد حجة مخطوطة ذات وثوق تاريخي لا يقبل الجدل ، عن العصر الجاهلي . ولكن هذه الوثيقة الوحيدة - تؤيدها الرواية المشافهة - لا تفيينا بشيء فيما يتعلق (بفكرة توحيدية) ذاتية في الوسط الجاهلي ، بل إنها على العكس تؤكد مرات كثيرة أن لا وجود لأي تأثير ديني في العصر الجاهلي . وحين يتوجه القرآن مرة أخرى إلى النبي نجده يحدد له مفهوم رسالته قائلاً :
﴿ وَيَعْلَمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾^(١) [البقرة ١٥١/٢] فها هو ذا قد (عين)

(١) لا شك أن النبي قد مرت بوعيه هذه الآية حينما خطب بها أثناء الوحي كما مر في كلام (المجلز) ص ١٤٩ (المؤلف)

صراحة معلم الوحدانية الأول لبلاد العرب .

والحق أن هذه الآية قد أكدت ياسهاب في القرآن ، وخاصة في قصة نوح ، التي يختتمها القرآن تلك الخاتمة البيانية :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نَوْحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُ هَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَقِينَ ﴾ [هود / ٤٩ / ١١]

وعرض قصة يوسف نفسه - ذلك الذي انتهينا منه - محصور في إطار الآياتين « ٣ » و « ١٠١ » اللتين تحملان الطابع التاريخي السابق نفسه ، أعني تأكيد خلو البيئة العربية من أي تاريخ توحيدى ^(١) .

وإذن : فأية قيمة منطقية يمكن أن تكون لهذه الآيات والتأكيدات كلها في نظر النبي ﷺ ومعاصريه ، لو أنها لم تكن سوى تبليغات منافية لواقع هاتيك الأيام .

والحق أن هذا الواقع - القابل للتعديل من هؤلاء المعاصرين الذين انتدبو للشهادة صراحة في الآيات السابقة - لم يكن سوى انعدام أي تأثير يهودي مسيحي في الحياة الجاهلية ، وهو ما أكدته القرآن بقوة ، وأيدته الأخبار المواترة .

لقد قام الآباء اليسوعيون - في مستهل هذا القرن - بآبحاث مهمة جداً في هذا الموضوع ، لكي يحددوا مدى إسهام (شعراء النصرانية في الجاهلية) ، وقد انتهت أبحاثهم بحصول أدبي عظيم ليس له من النصرانية إلا العنوان المذكور ، وكان لهذا العمل العظيم نتيجة مفاجئة ذات مغزى ، هي أنه قد برهن على عكس ما كان يريد مؤلفوه .

(١) المقصود بالتاريخ التوحيدى ما يتصل بالأديان المزيلة لا ما يتصل بفكرة الألوهية التي كان العرب ملین بها في ثنايا إشراكهم بالله ، وهو ما تدل عليه الآية الكريمة ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيَقْرَبُونَا إِلَى اللَّهِ زَلْفَى ﴾ [الزمر / ٢٣٩] (المترجم)

ونحن نذكر - من جهة أخرى - أنه لم يثبت أن كان بكرة أو ضواحيها أي مركز ثقافي ديني ، ليقوم بنشر فكرة الكتاب المقدس ، التي عبر عنها القرآن .

وكل ما يمكن أن يذكر هو أن بعض الحنفاء كان لهم تأثير روحي معين على الوسط الذي تشكلت فيه الذات الحمدية ، بل إن النبي نفسه كان (حنيفياً) قبل بعثته ، والآيات التي تذكر (جهله بالكتب) تتطبق تماماً على (الحنفاء) الآخرين ، ومع ذلك فإن وجود (الحنيفي) نفسه كان حالة نادرة في بيئه مشركة في جوهرها ، ونضيف أيضاً في هذا الصدد أن هذه البيئة لم تتطور كثيراً منذ هاتيك العصور الخواли إلى الآن على الرغم من طابع القرون الإسلامية التي مرت عليها .

لقد تساءل أحد المؤلفين العرب المحدثين في إحدى الدراسات الاجتماعية الهامة فقال : « هل الإسلام من صنع اليهودية والمسيحية »^(١) ؟ ثم أجاب بالنفي معتقداً على ملاحظة للأب (لامانس) الذي عزا انعدام تأثير المسيحية إلى (بعد معتقدها العرب عن الرعاية المناسبة للكنيسة) . ومن ناحية أخرى ، لو أن الفكرة اليهودية المسيحية كانت قد تغلغلت حقاً في الثقافة والبيئة الجاهلية فإن من غير المفهوم ألا توجد ترجمة عربية للكتاب المقدس . وهنالك حدث مؤكّد فيما يتصل بالعهد الجديد (الإنجيل) وهو أنه حتى القرن الرابع المجري لم تكن قد وضعت له ترجمة عربية ، نعرف هذا من مصادر الغزالي الذي اضطر أن يلجأ إلى خطوط قبطي كيما يحرر (رده)^(٢) .

وقد ذكر (الأب شدياق R.P.Cchediac) - الذي اضطر إلى البحث في كل ناحية عن المصادر الإنجيلية التي استخدمها الفيلسوف العربي في تأليف (الرد) حين كان يريده ترجمة مؤلف الفيلسوف - ذكر أن أول نص مسيحي ترجم إلى

(١) الدكتور بشر فارس (الشرف عند العرب قبل الإسلام) (بالفرنسية) .

(٢) الغزالي (الرد على من ادعى الوهية المسيح بصريح الإنجيل) .

العربية كان مخطوطاً بكتبة (القديس بطرسبرج) ، كتب حوالي عام ١٠٦٠ م ،
بيد رجل يدعى (ابن العسال) .

وهكذا لم تكن توجد ترجمة عربية للإنجيل في عصر الغزالي ، فن باب أولى لم يكن يوجد مثل هذه الترجمة في العصر الجاهلي .

فهل كان يمكن أن توجد - بصفة خاصة - ترجمة للعهد القديم (التوراة) ؟
إن القرآن الذي يذكر لنا صدى ما دار من المجادلة بين النبي وبعض أحبّار
اليهود بالمدينة ، يقول مخاطباً هؤلاء : ﴿ قُلْ فَأَتُوا بِالْتُّورَاةِ فَاتَّلُوْهَا إِنْ كَنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران ٩٣]

أفليس هذا دليلاً على أنه لم يكن يوجد من يقرأ العبرية من العرب من
ناحية ، وعلى أنه لم تكن توجد ترجمة عربية للتوراة من ناحية أخرى ؟

وعليه ، فلا شيء أقل احتالاً من وجود تأثير توحيدى في البيئة العربية
الجاهلية ، لأنعدام المصادر اليهودية المسيحية المكتوبة فيها ، ليصبح من المستحيل
أن نقول يامكان حدوث (امتصاص لا شعوري) للذات الحمدية ، في هذا الوسط
الجاهلي .

☆ ☆ ☆

الفرض الثاني

هذا الفرض الثاني ينسب إلى النبي ﷺ أنه قد تلقى تعليماً شخصياً مباشراً
عن الكتب السابقة للقرآن ، وربما كان لنا في هذا الصدد احتالان أو فرضاً
تفسيّان :

أوّلها : أن النبي رعا تعلم بطريقة منهجية كيما يضع القرآن بعلمه .

وثانيهما : أنه ربما كان قد تعلم أو نَعَمَ ، ثم استخدم لا شعورياً المادة التي حصلت في يده . والفرض الأول غير محتمل ؛ إذا ما اعتربنا النتيجة العامة عن النبوة ، والنتيجة الخاصة عن الذات الحمدية ، وهي إخلاص هذه الذات واقتناعها الشخصي ، وهي المعاني التي أنهينا بها مناقشة الفصول السابقة .

أما الافتراض الثاني ، فإن الاعتبارات نفسها عن الذات الحمدية تلزمنا بأن خصها بغزى نفسي أكثر تحديداً ، فبناء على ما أثبتناه في المقياس الأول نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نعد تعلم محمد الشخصي المباشر كأنه (حالة إدراك منسية لدى المتعلم نفسه) ، والأمر في هذه الحالة يتعلق - في جملته - بظاهرة نسيان جد غريبة ، علماً بأن جميع تفاصيل حياة النبي الخاصة وال العامة تشهد عنده بعادلة شخصية كاملة . وخاصة ذاكرته التي كانت خارقة لكل اعتبار ، حتى في حالة التلقي التي كان يعانيها خلال لحظات الوحي ، لقد كانت ذاكرته تعمل كما رأينا في المقياس الأول وكما سرى فيما بعد في فصل (المناقضات) ، وقد كان هو في الواقع الحافظ الأول للسور ، التي كان يرتلها عن ظهر قلب حتى لحظاته الأخيرة . ولقد قدم إليه ذات يوم لفداء مكي أسير لدى المسلمين ، قلادة كانت تتحلى بها خديجة ، فتعرف عليها في الحال وقد دمعت عيناه ، ثم إنه أطلق سراح المشرك الذي كان صهراً ، وأمره أن يرد القلادة إلى ابنته .

هذه الذاكرة السمعية البصرية الخارقة التي عُرف بها النبي والقائد لا يمكن أن تتفق مع مرض الذاكرة بالنسيان ، النسيان الذي يجب أن يعد هنا جزئياً ، لأنه لا يشمل كل الماضي الشعوري للنبي ، بل يقتصر على تذكر مصدر تعلمه الكتب ، وطريقته في أن يستخدمها لا شعورياً . وربما كان هذا النسيان أغرب حين نجد النبي يتذكر موضوع هذا التعلم تذكراً كاملاً ، كسورة يوسف مثلاً^(١) .

(١) سورة يوسف مكية كلها والمفهوم من كلام المفسرين أنها نزلت جملة واحدة على ما ذكره الألوسي (ج ١٢ ص ١٧) قال : « وسبب نزولها على ما روي عن سعد بن أبي وقاص أنه =

ولدينا غرابة أخرى ، هي أن هذا الموضوع لا يأتي في صورة نسخة مكررة من التوراة ، فهو يتعرض أولاً للمسات القرآن في التفاصيل المادية هنا ، وفي الإطار الروحي هناك ، كاً أوضحنا ذلك في العرض الموازن لقصة يوسف ، وأخيراً فإن المصادر العربية للتعليم غير موجودة إطلاقاً ، كاً رأينا في بحث الفرض الأول . وإن فلقد كان من الواجب على النبي أن يكيف موضوع تعلمه المستقى من مصدر أجنبى بالضرورة ، ويعده لليوافق التعبير القرآني ، وذلك باختيار سابق للألاظف العربية .

ولم يكن من المستطاع أن يحدث هذا التعديل تلقائياً ، دون أن تشتراك فيه القدرات الشعورية لدى النبي .

من أجل هذا كله نجد أنفسنا محيرين أمام حالة نسيان مرضي ، وأمام حالة (لا شعور جزئي) لا يشرحها علم النفس ، حتى ولو فرضنا أن حالة كهذه كانت متوافقة - من ناحية أخرى - مع سائر خصائص الظاهرة القرآنية .

أما من الناحية التاريخية ، فإذا كان هذا المصدر الأجنبي قد وجد لتعليم النبي ، فإنه لن يكون سوى مصدر شفهي ، غير مكتوب لكي يكون في متناول أمي ، وربما كان هناك في هذه الحالة (ملّق) ما يهمس دائماً إليه - دون علمه - بكل ما يتصل بدعوته . وإن الطابع الخاطئ لافتراض كهذا ليقف في مواجهة واقعين لا يقبلان المناقشة ، هما القيمة القرآنية ، وقيمة الذات الحمدية ، وهكذا ينتهي بنا الفرض إلى تناقض تاريخي ونفسي ، فنحن مضطرون إلى أن نستنتج أن وجود الشبه الملحوظة لا تعزى إلى تأثير يهودي مسيحي ذاع في البيئة الجاهلية ، ولا إلى تعلم شخصي أو لشعوري لشخص النبي .

= أنزل القرآن على رسول الله عليه الصلاة والسلام فتلاه على أصحابه زماناً فقالوا : « يا رسول الله لو قصصت علينا » فنزلت ، وقد ورد غير ذلك في سبب النزول ، ولكن سائر ما قيل لا ينافي أنها نزلت كلها مرة واحدة ». (المترجم)

هذه النتيجة القائمة حتى الآن على ملاحظة وجوه الشبه ، تتحتم أكثر من ذلك حين نأخذ في اعتبارنا صفات القرآن الخاصة . والحق أنه حتى في تاريخ الوحدانية ، الذي تتوثق فيه القرابة بين القرآن والكتاب المقدس يؤكد القرآن غالباً استقلاله بعلامة مميزة كثيرة ، كتلك التي جعلناها في الجدول المואزن لقصة يوسف ، وأيضاً فيما نراه في مشهد عبوربني إسرائيل البحر الأحمر وقد غرق فرعون وجنوذه كما روى (سفر المجرة)^(١) : ولكن رواية القرآن تكمل هذا العرض بتفصيل غير متوقع ، وهو أيضاً غير عادي ! .. أعني : (النجاة البدنية) لفرعون الذي أفلت بأعجوبة من الغرق . لكن علماء الدراسات المصرية خاصة يهاجمون الرواية الكتبية ، مدعين أن تاريخ ملوك مصر لم يسجل اختفاء فرعون المعاصر لموسى في البحر الأحمر ، ولنتأمل الآن ما ذكرته الرواية القرآنية :

﴿ آنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . فَإِلَيْهِمْ تُنَجَّيُكَ بِيَدِنَكَ لِتَكُونَ لَمَنْ خَلْفَكَ آيَةً . وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [يومن]

[٩١ ، ٩٢]

لقد فتش التفسير الكتبي - بصفة خاصة - عن التأييد التاريخي لاختفاء فرعون موسى ، في الوثائق التي تحدثت عن حياة (امنحتب الرابع) وهو اسم السلالة الملكية للشخصية المصرية . ويعتمد الأستاذ (هيلير دي بارانتون Hilair de Parenton) في هذا على مذكرات (مورسيل Moursil) في هذا على مذكرات (Les Memoires de Moursil) وهو أمير حيبي ، كتب في مذكراته أن : « ملكة مصر التي كانت عابدة كبيرة للإله آمون أرسلت رسولاً إلى أبي ، وكتبت له قائلة : مات زوجي وليس لي ولد .. » ، ولكن الملك الحيبي ارتتاب في موت فرعون إلى أن كتبت له الملكة بعما للنص نفسه : « لم قلت : إنهم يريدون أن يخدعني .. إن الناس جميعاً

(١) أحد أسفار التوراة .

ينسبون إليك كثيراً من الأبناء ، فأعطي إذن واحداً منهم ليصبح زوجي ويحكم مصر » ، ويستمر الأستاذ بارانتون في قوله : « فاقتنع الملك الحيثي وأرسل أحد أبنائه ، الذي مات في الطريق ميتة طبيعية - كا يقول المصريون ومقتولاً كا يدعى الحيثيون » ^(١) .

ولقد تعمدنا ذكر النصوص الجوهرية للوثيقة الحيثية التي يستخدمها هذا المؤلف أساساً للبرهنة على موت فرعون . على أن هذا الاستنتاج الذي يوحى به وهم التوفيق بين فكرة الكتاب المقدس وما يثبته التاريخ ، معارضٌ برأي علماء الدراسات المصرية ، فإنهم لا يقررون اختفاء (امنحتب الرابع) ، وإنما يقررون تغييراً مفاجئاً في اسمه الذي أصبح (أخناتون) ، وتبدلأً خلقياً وسياسيًّا في ذاته عقب الهجرة ، فكأنما حدثت في حياة الشخصية المصرية ثورة مفاجئة . وهكذا ما كتبه في هذا الموضوع (ماسبيرو Maspéro) : « وبضربة واحدة في الواقع تبدل هذا الفرعون شخصية أخرى ، واحتفظت العملة الملكية باسم نفسه ، (سوتون باتي نفرخ براوانرا Suten Bati Neferkheperraouanra) . ولكن الاسم : (سارع Sa-Râ) يصبح (رع-أتون حوي رع-Râ-Aten-Houti) .

وفضلاً عن ذلك فإن دينه قد تغير ، كان كاهن الإله (آمون) ، فأصبح كاهن الإله (آتون-رع Aton-Râ) ، وبالتالي ترك طيبة بلدة (آمون) ، وذهب إلى (أخناتون) المدينة الجديدة التي بناها ، وخصصها معبداً (آتون الشمس) إلهه الجديد ^(٢) ، بيد أن التبدل لا يكون مفهوماً إلا إذا وقع حدث خطير وغريب أيضاً ليغير حياة الشخصية الفرعونية تغييراً عميقاً ، لأن يرى مثلاً عرق جيشه ، ويرى نفسه أيضاً غريقاً في البحر الأحمر ، ثم إذا به يجد نفسه بطريقه أو بأخرى

(١) موجز تاريخ العالم القديم » Petite Histoire Illustrée du Monde ancien « ص ٢٦ للأستاذ هيليري دي بارانتون .

(٢) فقرة ذكرها (هيليري دي بارانتون) في كتابه المذكور ص ٤٢ .

مُنجى ، كا حدثنا القرآن ، والمسألة على كل حال تتعلق بنجاة بدنية ، بما أن فرعون لم يتحول إلى إله موسى ، بل اختار تحولاً روحياً وثنياً حدثنا عنه علماء التاريخ المصري القديم .

فإلام يكن أن تصير - على هذا - الشهادة الحيثية ؟ وماذا يعني مسلك الملكة على وجه الخصوص ؟

إن من الطبيعي أن يكون لتبدل حال فرعون نتائج بالغة ، وخاصة في الحياة الزوجية ، ذلك لأن الزوجة ظلت تعبد الإله (آمون) ، بينما تحول الزوج كاهناً لإله الشمس ، فنتج عن هذا انشقاق ديني وسياسي وزوجي ، وإذا بأختاتون يقتل الأمير الحيثي الذي جاء يطلب يد الملكة المتردة ، مسطراً بذلك مأساة زوجية سياسية .

ولكم نتمنى أن نعرف إذا ما كانت الملكة قد بقية في عاصمتها (طيبة) ، الأمر الذي يضفي مزيداً من الوضوح على الوجه السياسي والزوجي للمسألة ، وأيضاً ما كان الأمر ، فإن القرآن لا ينافق مطلقاً الكتاب المقدس في هذه النقطة ، ولكنه يضيف إليها - على كل حال - تفصيلاً توضيحاً يتفق مع الأخبار الدينية ومع العقائد العلمية .

ومن هذا القبيل أن تذكر الرواية الكتانية جبل (أرارات) في قصة الطوفان ، ويحدد التفسير اليهودي المسيحي موقع هذا الجبل في (أرمينيا) ، ثم يذكر القرآن اسماً خاصاً هو اسم جبل (الجودي) الواقع في الموصل ، ثم نجد أن الاكتشافات الجيولوجية والأثرية الحديثة تحدد مكان حدوث ظاهرة الفيضان في مكان قريب من ملتقى دجلة والفرات ، غير بعيد من بلدة (أر) حيث ولد إبراهيم عليه السلام ، فمن الجائز أن يشير النصان إلى قصتين متايزتين لظاهرة الفيضان ، ولكن من الجائز أيضاً أن يكون في الأمر خطأ وقع فيه نسخ الكتب المقدسة ، خطأ من تلك الأخطاء التي من أجلها لعن أرمياء (أقلام النساخ الكاذبة) .

وأخيراً فإن الرواية القرآنية مستقلة تمام الاستقلال عن الفكرة اليهودية المسيحية التي ترى - من زوايا مختلفة - في صلب المسيح حقيقة تاريخية ، فإذا بالقرآن يؤكد في هذا الموضوع : ﴿ وَمَا قَاتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكُنْ شَيْءٌ لَهُمْ ﴾ . [النساء ١٥٧/٤]

هذه الرواية الأصلية في القرآن لا تتفق مع أية وثيقة يهودية مسيحية . ومن جهة أخرى ترك مخطوطات المسيحيين الأول الباب مفتوحاً لجميع الفروض عن نهاية المسيح وعن مدة رسالته .

و (إيرينيه Irené) - الذي ذكره الأستاذ (مونتييه Montet) باعتباره الشاهد الأول على وثاقة إنجيل القدس يوحنا - يعترف في نهاية القرن الثاني بأن المسيح ظل يعلم الناس حتى سن الخمسين ، خلافاً للرواية الحالية التي تفيد أنه قد انتهت رسالته في سن الثانية والثلاثين ، فلو أنها أردنا أن نرد - بأي ثمن - التاريخ التوحيدى القرآنى في هذه النقطة إلى مصدر مسيحي ، فمن الممكن أن تقرب جزئياً بين رأى القرآن عن اختفاء المسيح ورأى النظرية الدوسيتية Doctrine docétiste الذي يقرر صراحة (الموت الظاهر) لل المسيح تبعاً لإنجيل بطرس .

هذا التقريب يظل على الرغم من هذا جزئياً ، لأن القرآن يعد مولد المسيح وحياته وقائع أرضية لا تقبل الجدل ، بينما تضع الدوسيتية Le Docétisme كل هذا في نطاق فهم عام لفكرة (الظاهر)^(١) . وهكذا يمكن أن نتتبع خطوة خطوة الفكر القرآنية والفكرة الكتابية ، لنجد فيها فيما يتصل بالأصول التاريخية موضوعات مشتركة لا تنكر ، ولكننا نجد أيضاً كثيراً من نقط التباعد والاختلاف . ولعل من الواجب لكي ندفع هذا البحث إلى أقصى ما يمكن افتراضه . أن نقرر علاقة القرآن ، لا ب مصدر واحد فحسب ، بل بكثير من المصادر

(١) فكرة الظاهر مرتبطة بفكرة القرآن في قوله تعالى : ﴿ وَلَكُنْ شَيْءٌ لَهُمْ ﴾ [النساء ١٥٧/٤] . (المترجم)

اليهودية المسيحية . وربما وجب فضلاً عن هذا - أن تقرر جدلاً - على الرغم من التباعد المذكور في كثير من نقاط التاريخ التوحيدى - أن القرآن قد استوحى من واحد أو أكثر من الروايات الكتابية التي لم يعد لها وجود الآن . !!

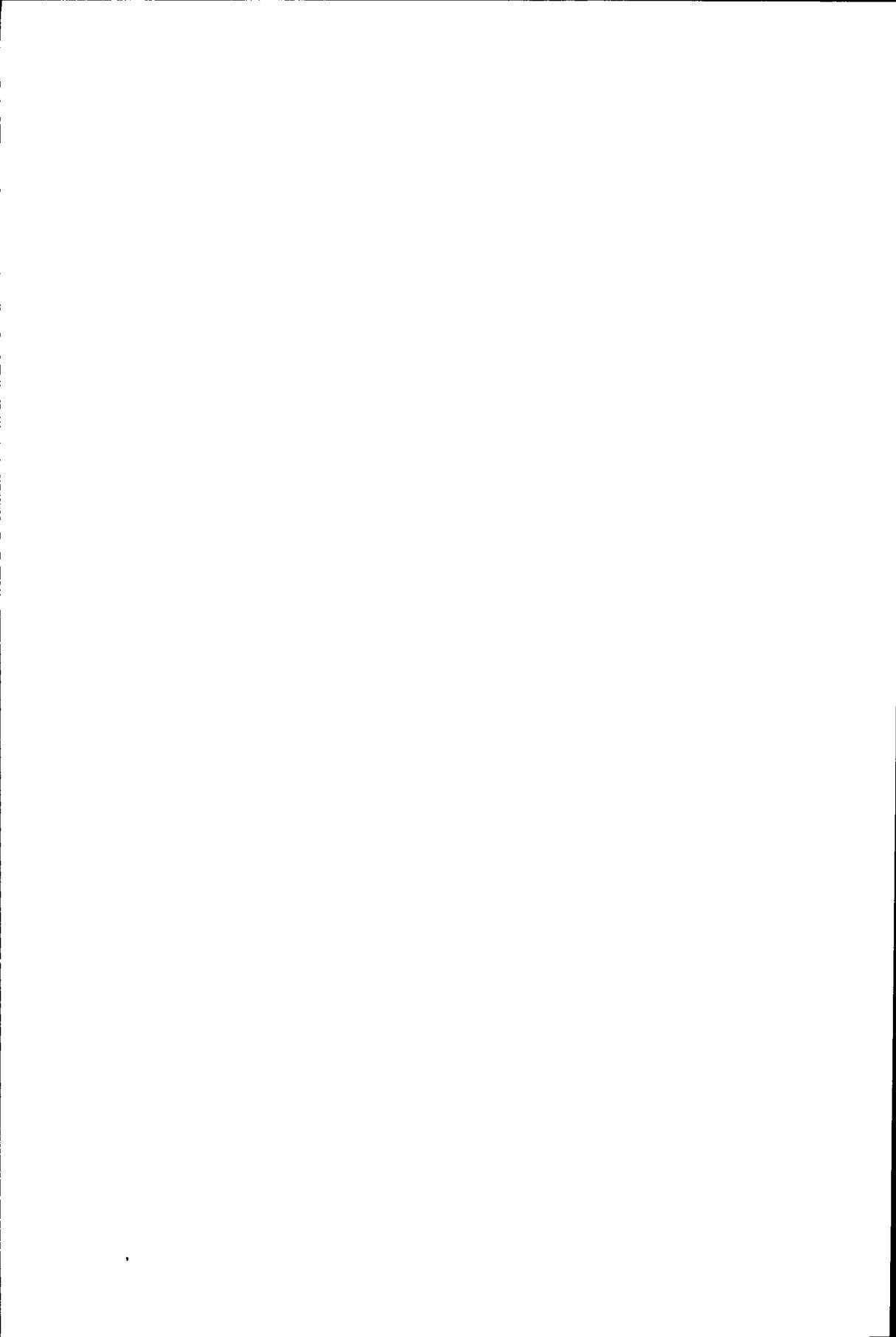
ولعل من الواجب أخيراً أن تقرر مجازة لسذاجة النقاد المحدثين أن النبي كان يعمل بطريقة عالم فقيه ، يكشف عن كثير من الوثائق ويتأملها ، ثم يرتبها وينسقها كما يستمد منها الرواية القرآنية .. !!!

إن من الحق أن للفكر النبدي في الحديث سذاجة محيرة ، حتى لزاه جديراً بما وصفه الأستاذ (مونتى) نفسه بمناسبة حديثه عن بروفسور الطب (استرك Astruc) (١٦٨٤ - ١٧٦٦) : « إن من البين أن استرك يتضل - مع شيء من السذاجة - موسى وهو يرجع إلى الوثائق يستشيرها ، ويعمل كأنما هو أحد علماء القرن الثامن عشر » .



م الموضوعات وموافق قرآنية

- إرهاص القرآن
- مالا مجال للعقل فيه
- فواتح السور
- المناقضات
- المواقفات
- المجاز القرآني
- القيمة الاجتماعية لأفكار القرآن



م الموضوعات و مواقف قرآنية

حاولنا في المقياس الأول وفي بداية هذا المقياس أن نبرز الخصائص المادية والنفسية التي تفصل القرآن عن الذات الإنسانية . وسنبحث في هذا الفصل ، في بعض الآيات ، ما يميز هذا الكتاب بصفة خاصة عن عقريته الإنسان .

إرهاص القرآن

لقد أثبتنا هنالك أن الوحي تلقائي وغير شخصي ، ونضيف مع ذلك هنا أن هذا الذي أثبتناه هو بلا شك الخصائص الظاهرة المؤثرة في نظر النبي ، والتي دفعته إلى أن يدعم اقتناعه الخاص بالسر الإلهي في القرآن ، وبدون هذا الشرط الذي نصعه مقدماً ربما يصبح اقتناع النبي في ذاته ظاهرة غير مفهومة .

ولقد رأينا - فيما مضى - أن هذا الاقتناع لم يتم في لحظة ، ولم يكن من باب التسليم الأعمى ، بل كان تدريجياً وعلقلياً ، يشيع حاجات عقل وضعيف كعقل محمد ، ويحجب عن رغبته الملحة في اليقين القاطع ، وفي ظروف كهذه تعدد أية أماراة على التفكير والإرادة ، وسبق العلم الشخصي بما سيأتي به الوحي ويتنظم مداه المحتمل ، لغزاً جديراً بإثارة انتباها .

وحقاً . ماذا نقول في رجل لم يفكر ، ولا يريد أن يفكر . ؟ !

لم يُرِد ، ولا يريد أن يستخدم إرادته . ؟ !

لم يكن له أن يتأمل في تيار الظاهرة المقبل . ؟ ! .

ولا يريد أن يضمر هذا التأمل . ؟ ! .

وهو مع ذلك يرى (الكلمة) صادرة عنه ، مطبوعة بكل دقة بطابع تفكير وإرادة ونظام ، وأحياناً تبدو هذه (الكلمة) وهي تعلن عن نسق الوحي التالي لها ، فكأنما احتوت على علم سابق خارق للعادة بما سيليها من الآيات !! ذلك فيما يبدو لنا هو الطابع العام للقرآن ، باعتباره مجموعاً صادراً عن إرادة وتفكير وتنسيق ، بل عن علم يبدو أنه ثمرة إعداد سابق . وإنما تتجلّى هذه الصفة في حالات تصدير موجه الوحي بآية تشبه إلى حد ما - طبيعة الجيش ، تحمل سره وتعرف وجهته ، وهي متقدمة عليه . وذلك هو المقصود من استعمال المصدر Anticiper ، إذ أن معناه : العلم بالشيء مسبقاً (Prévoir) ، ومثل هذا الفعل النفسي لا يمكن أن يتصور دون الاشتراك الشعوري للذات الفاعلة ، وعليه فمنذ ذلك الانطلاق الروائي للظاهرة القرآنية ، حينما كانت الأزمة الأدبية والشك يتبددان من نفس النبي وحده نزل عليه ذلك الوحي المذهل :

﴿ ورَتَلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمول

[٤٧٣ و ٥]

ولكن ما وزن هذا القول الثقيل .. ؟ .. إنه القرآن كله عندما يكتمل في مدى ثلات وعشرين سنة ، أي عندما نزل أمين الوحي للمرة الأخيرة ، كما يختتم الوحي على لسان النبي ﷺ .

وذلك الثقل ؟ !! إنه ثقل الفكرة الدينية والتجربة الخلقية ، ثقل الإيمان المضطرب لدى ربع الإنسانية الآن ، وهو أيضاً - في ميزان التاريخ - ثقل تلك الحضارة الإسلامية التي كانت خاتمة لدورة الحضارات .

نعم ... إنه لقول ثقيل ! .. فأي إرهاص ... ليس للفكرة وللتاريخ اللذين

ما زال امتدادها مستمراً حتى الآن فحسب ، بل لتيار الوحي ذاته ، ذلك الذي سينتهي بعد ثلاثة وعشرين عاماً .

هل هو لا شعور ..؟. أو استشعار ..؟. أو علم صادر عن تفكير وإرادة ؟ هذه كلها كلمات خالية من المعنى عندما توضع أمام النتائج الموضوعية التي عرفناها عن الذات الحمدية من ناحية ، وأمام (القول الثقيل) الذي هو القرآن من ناحية أخرى .

لا شك أننا يمكننا أن نرى في تصدير عام كهذا مجرد الرغبة اللاشعرية لذات تندف نفسها في غمار المستقبل ، ويمكننا أيضاً أن نتصور أن فيلوفاً ما يستطيع - كفعل (نيشه) - أن يصدر مذهبه الفلسفية بطريقة مدوية ، ولكن هناك تصديرات لا يمكن بسبب موضوعها الحد أن تفسر ، دون أن نعدها ذات معرفة سابقة شاملة بهذا الموضوع ، وإلى القارئ مثالان من هذه التصديرات الخاصة التي ترمز لموضوع محمد تماماً .

المثل الأول : قوله تعالى :

﴿ نَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصْصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمْ يَأْتِ الْفَالِقُينَ ﴾ [يوسف ٣١٢]

ليست هذه الآية تصديراً لقصة يوسف ..

إننا نجد فيها ما يشبه التأكيد الاستهلاكي ، مؤيداً بالنقد التاريخي ، على أن النبي ﷺ كان يجهل تماماً القصة المذكورة قبل نزول القرآن ، بل إن (جهله) هذا عنصر جوهري لاقتناعه الشخصي ، فأمامنا بلا مراء طليعة لتيار الوحي ، الوحي الذي نزل بموضوع خاص محمد تماماً : هو قصة يوسف ، وهي ما زالت حتى تلك اللحظة غريبة عن الفكرة الحمدية ، ولدينا على ذلك واقعان لا بد من الفصل فيما فيها يتعلق (بجهل) النبي في هذه النقطة :

أ - فمن الوجهة التاريخية ، لم تكن الفكرة الحمدية قد ضلت بعد تفاصيل قصة يوسف قبل أن ينزل بها الوحي .

ب - ومن الوجهة النفسية ليس (لشعور) النبي أي دور في عملية الوحي ، وهو - بداعه - لا يحتوي تيار الوحي الذي لم يأت بعد . أما (لا شعوره) فلم يكن له أن يلد تلقائياً فكرة مركبة أثبتها التاريخ بصورة وضعية إيجابية .

فهذا التسبيق أمام جرى ظاهرة لا يسيطر عليها الشعور ، وما كان لها أن تصدر فقط عن اللاشعور ، للأسباب المشار إليها في الفصول السابقة ، هذا التسبيق يظل عصياً على الفهم بصورة مزدوجة لو أثنا قصرنا تفسيره على الذات الحمدية .

وأما المثال الثاني فتقدمه لنا هذه الآية التي استهلت بها سورة النور :

﴿ سُورَةُ أَنْزَلْنَا هَا وَفَرَضْنَا هَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّعْلَكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور ١٢٤]

ويبرز أمامنا في هذه الآية الافتتاحية ما يشبه التخطيط البسط للسورة المنزلة ، التي تشمل على (الآيات البينات) وهي ما زالت في حيز القوة ، ولم تخرج إلى نطاق الفعل ، ومع ذلك فإنها منذ الآن قد سبقت إلى علم الإنسان كأنها المدف المقصود من تيار الوحي النازل بعد ، ولعل في هذا أمارة تفكير سبقت في علمه هذه الآيات البينات ، وطابع إرادة تضعها نصب تأملنا ، الأمر الذي لا يتفق مطلقاً مع استعداد الذات الحمدية ، وخاصة في حالة تلقيها الوحي .

☆ ☆ ☆

مala مجال للعقل فيه

فواتح السور

في القرآن سور كثيرة تبلغ تسعًا وعشرين ، لا تستهل بكلمة مفهومة ، بل برموز أبجدية بسيطة ، أسبغ عليها علم التفسير تأويلاً مختلفاً ، وقد بحثت فيها عقلية العصور المتأخرة عن إشارات ملغزة لأفاصيص ، بعيدة المدى في التاريخ الإنساني .

أيًّا ما كان الأمر فإن معنى هذه الفواتح المبهمة - إن كان فيها إبهام - يقف أمام عقولنا سداً محكماً .

على أننا لا يهمنا هنا هذا الوجه من المسألة ، وإنما الذي يهمنا هو طابعها الظاهري فقط ، فهذه الحروف الافتتاحية لا يمكن أن تتراءى لناظرنا اليوم هيأكل متحجرة أو متخللة ، فإن النبي نفسه كان يرتلها هكذا ، كل حرف متغير منفصل في تجويده الصوتي .

جدول إحصائي لفواتح السور

المحروف	أسماء السور التي وردت فيها
أ	البقرة - آل عمران - العنكبوت - الروم - لقمان - السجدة
م	الأعراف
ص	يونس - هود - يوسف - إبراهيم - الحجر
ر	الرعد
ل	مريم
ه	طه
ط	الشعراء - القصص
س	النمل
س	يس
ص	صاد
ح	غافر - فصلت - الزخرف - الدخان - الجاثية - الأحقاف
ح ع	الشوري
ق	ق
ن	القلم

هذه بصفة عامة هي الفواتح التي لا مجال فيها للتفكير ، ولسنا نعتقد بإمكان تأويلها ، إلا إذا ذهبنا إلى أنها مجرد إشارات متفق عليها ، أو رموز سرية لموضوع محمد تام التحديد ، أدركته سرًا ذات واعية .

ترى هل تكون هي ذات محمد ؟ ... إن من الواجب أن تقرر في هذه الحالة أن محمدًا لا يقف موقفاً سلبياً ، بل يتدخل - على العكس - بطريقة شعورية صادرة عن تفكير في اختيار هذه المحروف ، وفي توجيهها الرمزي ، لكي يعين

باتفاق ما موضوعاً مدركاً بطريقة سلبية . وهنا نلمس تعارضاً بيناً بين هذا الوضع والدور السلبي المعين لهذه الذات في المقياس الأول ، ومن ناحية أخرى ، لا بد أن نعد الحروف الأبجدية في ذاتها كائنات رمزية غريبة عن مفهوم الأمي وفكرة ، فلا تعني هذه الآيات لديه معنى عملياً ، وبالتالي فالمفهوم متكون باتفاق ، فنحن نخطئ الفهم حين نقول إن رموزاً كهذه يمكن أن تدخل في مفهوم أمي ، في تلك الحالة الخاصة التي تسمى (حالة التلقى) ، فهل الأمر مجرد اختلال في شعور اضطراب مؤقتاً ؟ ... أو أنه من المجاز أن يكون مرضًا عضويًا أصاب الجهاز الصوتي ، وهو ما يسمى لدى علماء الطب *La Glossolalie*^(١) ؟ .. ولكن النبي كأرأينا في المقياس الأول يمثل أكمل المعادلات الشخصية في نواحيها الثلاث : الخلقية ، والعقلية ، والبدنية ، ولم يدع التاريخ أدنى ريب في هذه النقطة . فلا مجال إذن لأن نتخيل أي افتراض عن الذات الحمدية ، حتى نشرح هذا الإبهام ، أو ذلك المرض العضوي . ومن وجهة أخرى لسنا نجد في أدب هذه الذات الشخصية الغي وهو (الحديث) ، أي أثر لتلك المغلقات ، ولا توجد أية رواية مشافهة عن النبي ، مشتملة على مثل هذا التصدير الرمزي .

والآن لو أننا جردننا المسألة من اعتبارات الذات الحمدية ، فلا ننظر إليها إلا بالنسبة للقيمة الذاتية للقرآن - دون أن نسرع بالحكم على أصله أو طبيعته - فسنبقى أمام اللغز نفسه . والحق أن القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً يعد أكمل نموذج أدي استطاعت اللغة أن تفصح عنه ، فليس به أدنى اختلال ، بل إن الاتساق البديع شامل لجميع نواحيه ، في روحه الجليل الغامر ، وفي نذرته الرائعة المؤثرة ، وفي مشاهداته الباهرة ، وفي حلاوة وعوده الفائقة ، وفي فكرته المتسامية المتشامخة ، وأخيراً في أسلوبه البهي المعجز .

(١) يقصر النقد الحديث هذه الظاهرة - وخاصة في حالة أرمياء - على الاضطراب العضوي الذي يحدث عند النبي في حالة الكشف . (المؤلف)

ولنا أن نضيف ملاحظة عن تخصيص وضع هذه الرموز في فاتحة بعض السور دون بعضها الآخر ، إذ في ذلك ما يدل على وجود تنظيم ضفي مقصد ، هذه الملاحظة تبني افتراض الصدفة ، أو مجرد شرود ذات سلبية ، غير واعية . واختصاراً ، ليس لنا أن نحمل الظاهرة على طارئ نفسي أو عضوي مفاجئ لدى النبي ، ولا أن نؤولها باعتبارها نقصاً أديباً ، في نص يُعد بحق كاملاً .

لقد حاول معظم المفسرين أن يصلوا من موضوع هذه الآيات المغلقة إلى تقاسير مختلفة مبهمة ، أقل أو أكثر استلهاماً للقيمة السحرية التي تخص بها الشعوب البدائية الكواكب ، والأرقام ، والمحروف . ولكن أكثر المفسرين تعقلاً واعتدالاً هم أولئك الذين يقولون في حال كهذه بكل تواضع : « الله أعلم » .



المناقضات

بعد أن حاولنا بيان استقلال الظاهرة القرآنية ، وموضوعيتها بالنسبة للذات الحمدية ، يصبح هدفنا من هذا الفصل أن نؤكد محاولتنا تلك بتفصيل القول فيما حدث أحياناً من مناقضة صريحة بين الميل والاتجاهات الطبيعية لدى النبي ، وبين ما يعتريه خلال تلقيه الوحي . هذه المناقضة تجلو لأعيننا الخصائص الظاهرة التي بيانها وأكداها حتى الآن في القرآن ، أعني : موضوعيته واستقلاله بالنسبة للذات الحمدية . وأول مثال على هذه المناقضة قوله تعالى :

﴿ ولا تعجلُ بالقرآنِ منْ قبِلِ أَنْ يَقْضِي إِلَيْكَ وَحِيهُ ﴾ [طه ٢٠ / ١١٤]

فلقد كان النبي في مستهل دعوته يجهد ذاكرته وهو يعاني حالة التلقي ، لكي يثبت الآيات كما نزلت ، وتلك حالة غريزية تلقائية تحدث لأي إنسان ينصل لآخر ، وهو يريد أن يحفظ كلامه ، فهو يكرره في نفسه .

فالتكرار في الحقيقة عمل تدريبي للذاكرة ، غريزي أساسياً ، فهو لهذا يصدر طبيعياً عن الذات نفسها ، أيًّا كانت درجة وعيها ، بل قد يحدث أن نكرر كلمات شخصية مخضّة ، في أحلامنا مثلاً ، ولكن حالة التلقي ليست حالة بين اليقظة والنوم Hypnagogique ، ولا سيما بالنسبة للذات الحمدية ، التي ربما كانت تقوم بتدريب ذاكرتها تلقائياً ، ولكن بطريقة آلية مقصودة ، تحفظ معها في هذه الحالة بعض حريتها ووعيها ، ويتجلّى هذا في هيئتها البدنية ، إذ يظل النبي جالساً ، كاً يتجلّى في سلوكها العقلي ، حين يكرر ما يوحى إليه .

فالآلية المذكورة تأتي بما يضاد هذا السلوك الطبيعي ، إذ يطلق النبي لإرادته

العنان إلى مدى معين ، حتى يحفظ بالتكرار ما تفجر في مجال عقله ، فأثاره جرسه وأيقظه .

والآية تهدف إذن إلى مصادر حرفيته في استخدام ذاكرته ، حيث تحصر حركتها في هذا التكرار المنهي عنه ، وبذلك لا تتجاهل الآية حرية اختيار النبي ، وإرادته أن يدرب ذاكرته فحسب ، بل تتجاهل أيضاً القانون النفسي لوظيفة التذكر نفسها . وهكذا نلاحظ مناقضة مزدوجة بين الظاهرة القرآنية وبين الذات الحمدية . هذه المناقضة المزدوجة لإرادة النبي ، ولقانون وظيفة التذكر ، تثبت بوجه خاص تفرد ظاهرة ذات مجال مطلق ، مستقل عن العوامل النفسية والزمنية ، وبهذا تؤكد خاصي السمو والإطلاق للظاهرة القرآنية .

والمناقضة الثانية تقتبسها من حياة النبي الخاصة ، فلقد سجلت أحداث هذه الحياة - كأنعلم - المراحل الرئيسية للتشريع القرآني ، ولا عجب ، بعد أن رأينا ما لهذا الارتباط بين أحداث حياة (الرجل) وبين قانون السماء من قيمة تربوية ، أما الذين يعجبون فإن عليهم أن يذكروا أن قانوناً تملئه السماء لغير أهل الأرض يمكن أن يكون مراعياً لعوائد الملائكة سكان السماء ، أما إذا أنزل من أجل البشر ، فربما لم يكن له معنى بالنسبة لهم لو لم يكن أساس تفسيسه الحالات المادية المنتزعة من حياتهم اليومية . وهذه حالة من تلك الحالات مأخوذة من حياة النبي نفسه ، وقد كانت مناسبة لنزول الوحي ببعض المبادئ القانونية فيما يتعلق بالشهادة بوصفها دليلاً قانونياً .

والحادثة التي نبحثها رواها مؤرخو السيرة تحت عنوان (حادثة الإفك)⁽¹⁾

(1) أورد المؤلف في المامش تلخيصاً لحديث هذه القصة ، وقد رأينا الاستفهام عن ترجمة هذا الموجز ، إذ أن القصة بكتابتها مروية في جميع كتب الحديث . وقد رواها البخاري تحت عنوان (باب حديث الإفك) عن طريق عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عائشة رضي الله عنها . (المترجم)

فإن المنافقين بالمدينة لم يكفوا عن تدبير صنوف المؤامرات والمكائد ليشنوا دعوة رسول الله عن الحركة ، فكانوا يهبلون الفرص ليبهثوه وينالوا من هيبته ، ويعوقوا كفاحه ، فلقد كان (مكيافيلي) من بينهم تلاميذ نجاء ، قبل أن يخرج (ميكيافيلي) إلى الوجود . ونعود إلى حديثنا ، فقد وجدت الزوجة الشابة (عائشة) رضي الله عنها نفسها فجأة منقطعة عن القافلة ، جبستها عنها ضرورة ، فاسترطت القافلة في سيرها ، مستأصلة معها رحلها ، وأقبل الليل فأخذت تنادي مستئضة ، حتى ظنت نفسها قفيدة في الصحراء ، فنامت في الطريق أشبه بطفلة ، وإذا بصحابي كان يسير في مؤخرة القافلة يجدها هناك فيتعرف عليها ، وينزل عن ناقته ليركب أم المؤمنين ، ثم يلحق بالقافلة .

ولكن المنافقين كانوا هناك ، فأشاروا أن عائشة قد لعبت دور الفتاة العابثة .. فضيحة ..
وبيهم المسلمون بقتل زعيم المنافقين ... أزمة .

هذا هو الإطار التاريخي الذي تعرض فيه حالتنا ، وسرى أنها قد حلّت حلاً رائعاً في نطاق الظاهرة القرآنية . فالواقع أن النبي قد دمه الشك ، فلقد كان إنساناً على الرغم من كل شيء ، ولكن هذا الإنسان كان ذا ضمير يستمد سموه من سمو دعوته ، فهو يعلم أن أعماله ستكون أحكاماً ومقاييس ، فما هو القرار الذي يمكن أن يتخدنه شريطة أن يكون متفقاً مع طبيعته الإنسانية ، ومع أساس دعوته العلوي ..؟ إن المسألة بهذه الصورة تعد اختباراً حاسماً للدعوة ، فبحكم فطرته الإنسانية ، وربما تأثراً ياباً الحبيطين به أرسل النبي عليه السلام عائشة إلى منزل أبيها ، واحتجت عائشة دون جدوى ضد هذه الإهانة والتهاون ، أما النبي فلم يطلقها كيلاً ينشئ سابقة قانونية ، ولم يعف أيضاً كيلاً يعرض عظمة دعوته العلوية للخطر . ولقد اقتضى هذان الاعتباران لديه حالة معينة كان يعاني

خلالها الشك في سلوك زوجه من ناحية ، والتردد في اتخاذ قرار ظالم من ناحية أخرى ، وفي هذه الحالة لا يجدي سوى الحياد الذي يهدى افعالات الإنسان ، ويناسب ظروف النبي ، فالغفران قد يكون أعمى ، والأدلة قد تكون ظالمة ؛ وعليه فلقد كان لصلاحة النبي الشخصية والعليا من كل وجه أن يتزم حياداً دقيقاً ، بأن يترك عائشة لدى أبيها . وموقف كهذا لا يدع مأخذاً لأنسنة المنافقين الحداد ، ولنقدم المفروض ، بلة العقل المجرد . ولم يكن على النبي من الوجهة الإنسانية أن يتخذ موقفاً آخر ، أعني لم يكن عليه أن يعمل شيئاً مطلقاً ، وقد كانت هذه خطته فعلاً .. حتى نزول الوحي ، فإذا به يعتق الرجل من شكه ومن تردداته ، معرضاً في الوقت نفسه القيمة العلوية للرسالة لاختبار هائل .
ونسجد أن سورة (النور) تسن أولاً (حد الزنى) :

﴿ الزانية والزاني فاجلدوها كلّ واحد منها مائة جلدة ، ولا تأخذكم بها رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابها طائفة من المؤمنين ﴾ [النور ٢٤/٢]

وهذا هو المبدأ القانوني الأول .

ثم إنها تبرئ عائشة رضي الله عنها بطريقة رائعة باهرة ، وهي تبني هذا المبدأ القانوني ، وتوكّد اشتراط الشهادة في مثل هذه الحالات :

﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، وحرّم ذلك على المؤمنين . والذين يرمون المحسنات ثم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون ﴾ .
[النور ٤ و ٢٤]

ولكي يضفي النبي على هاتين الآيتين تفسيرهما التاريخي وجدناه يعيد إلى بيته (الزوجة) الفاضلة ، التي رفضت أن تعرف بالجميل لإنسان ، فهي تحبب

أباها^(١) الذي يدفعها إلى شكر النبي قائلة : « والله لا أقوم فإني لا أحمد إلا الله عز وجل ». على أن نصوص هذه التبرئة تعد خطيرة بالنسبة لدعوة النبي ، إذ تعطينا فوق قيمتها الذاتية لحمة مباشرة ، وغير متوقعة عن شخصيتين جعلت منها الصدفة حكين فاهمين لتلك القيمة ، هما : عائشة ، والصحابي الذي أوصلها .

أي مغزى تدركه هاتان الشخصيتان في حكم يعلن صراحة أن (الزانية) لا يمكن أن تكون سوى زوجة (زان) ؟ . وهو حكم مطلق ، كيلا يصادم اعتبارات ذات إنسانية دهمها الشك ، وألزمتها المصلحة العليا أن تقف موقف الحيطة والتحفظ الدقيق ، فإن عقلاً ينشد الحقيقة والدقة في الحكم لا يمكن أن يستسلم للطيش ، فيدين بريئاً ، أو يغفر مجرم .

وهكذا تظهر لنا بجلاء مناقضة صريحة بين (ذات) مشدودة إلى الحيطة والتحفظ ، وبين ما ينزل به الوحي عليها من أحكام قاطعة .

☆ ☆ ☆

(١) ما ورد في البخاري هو : « قالت لي أمي : قومي إليه ، فقلت .. » الخ .. (المترجم)

الموافقات

إن ارتياضنا القرآن وتأملنا له مع اختلاف مقاصدنا ومع تعلقنا مقدماً بزاعم المثقفين المحدثين ، يبهرنا بنظام أفكاره الغريب ، ومادتها العجيبة ؛ على أن اهتمامنا قد تزايد منذ بعيد بازدياد سياحتنا في هذا العالم الذي يتازب بنظامه وهندسته وطبيعته الخاصة ، وهو في هذه المعانى جيئاً يشبه دوائر المعارف العلمية أو الكتب التعليمية المعدة لتطبيق خاص . لقد سقطت مزاعمنا تلقائياً ، كاً تسقط دائماً المزاعم أمام ثورات العلم ، أو انقلابات التاريخ ، وأمام الانتصارات الساحقة للحق وللخير ، ونحن هنا نجد أنفسنا ملزمين (باعتراف) هو اعتراف مثقف أقبل على القرآن بطوية فطرية ، كيما يكتشف فيه (كومة) من المعلومات المحددة ، كأنه يطلع على أحد المجلدات الفنية . على أن هذا الاعتراف - علاوة على أنه يقلل بتفاصيل شخصية عديمة الجدوى موضوعاً محدوداً - فإنه ربما يكون استطراداً ملأ بالنسبة للخطة المتبعة .

ونحن لن نقول هنا سوى كلمة واحدة هي أن المثقف قد تخلى الآن عن مزاععه الساذجة ، من أجل أن يدخل باهتمام جديد إلى العالم القرآني ، تماماً كأنه شخصية من الشخصيات التي نسمع عنها في حكايات الجن ، لتجد نفسها معرة عن ملابسها ، وليتسنى لها أن تتوغل في عالم السحر والغموض . وإذا كان لا يليق بنا أن نعد القرآن كتاب علم فإننا نلاحظ فيه مع ذلك آيات تحتوي الاهتمامين كليهما : لمسها حقيقة علية ، وإلقاءها بهذا المنس مزيداً من الوضوح على علاقة الذات الحمدية بالظاهرة القرآنية . فدراسة بعض هذه الآيات مفيدة إذن من الوجهين

التاريخية والنفسية . وضروري أن نلاحظ من الوجهة النفسية أن موضوع التفكير تحدده في جوهره طبيعة الفكر الذي يصوغه ، وهو يحتل مكانه في سياق الاطراد الطبيعي لهذا الفكر ، ويجب على الأخص أن يكون جزءاً من الأفكار الخاصة بالذات التي تفكر فيه ، وأن يدخل في نطاق تجربتها ، وفي مجال رؤيتها ، وبعبارة أخرى : لكي تصح نسبة هذه الملاحظات إلى النبي يجب أن ثبت أن :

الأفكار الحمدية = الأفكار القرآنية

وربما تصح هذه المعادلة لو أثنا تحققنا من أن موضوع آية ما يمكن أن يصدر عن مجال ذات محمد ، وأن يندمج في نسق فكره ، وأن ينبعث عن تجربته ، وأن ينزع من محيط بصره . وفي هذه الحالة قد تفصح هذه المعادلة . بترتيبها المشار إليه آنفأ . عن علاقة سببية ، لتكون الأفكار الحمدية سبباً في حصول الأفكار القرآنية ، وإذا ثبت العكس تصبح المعادلة مستحيلة ، إذ تنفي العلاقة السببية ، وهو ما نسعى إلى إثباته هنا . وعليه ، فنحن نتصور تصوراً كاملاً طبيعة الفكر لدى إنسان فني في المشكلة الدينية والمشكلة الغيبية والمشكلة الروحية خاصة ، وربما تصورنا أيضاً اطراط هذا الفكر في وصفه الطبيعي ، وهو الاطراد الذي يجب أن يضم في مجال إدراكه البصري الواقع وسبب حدوثها ، والكون وعلة كونه . وينبغي أيضاً أن يربط بين الخالق والخلوق برباط الإيان ، وأن ينصب للકائنات والأشياء سلماً من الدرجات الخلقية .

لقد شغلت أفلاطون فكرة كهذه ، فانبجست منها فلسفته الخلقية . أما حين يحدث تحول جوهرى في تيار الفكر لدى إنسان ما ، فينتقل اهتمامه فجأة من أفق إلى آخر ، فإن ذلك يدفعنا - دون شك - إلى أن ندقق النظر من قريب في هذه الحالة الغريبة ، فلو اتضح لنا أنها غريبة عن الفكر الديني الذي نريد أن ندرس امتداده فمن الواجب أن نعدها (ظاهرة فريدة) ، والقرآن يقدم لنا دائماً كثيراً

من هذه الغرائب التي تعلق الاهتمام ، وتلجم فجأة اطراد الفكر وانسيابه ، فنشرع بأن المستوى قد تغير ، كأننا وضعت هذه الغرائب هنالك قصداً لتكون مرقاة يصعد فيها التأمل طفرة إلى ما هو أسمى من مستوى الذات الإنسانية ، فإذا بالعقل - وهو الذي تعود أن يفكر فيها هو معلوم ، وفيما هو قابل للعلم مما يتصل بالمستوى الإنساني - يجد نفسه وقد حمل بعيداً ليلاحظ من هنالك ، في وميض آية من آيات القرآن ، أفقاً من آفاق المعرفة المطلقة .

لماذا نرى في اطراد فكرة غيبية صورة بصرية ؟ ومن خلال عرض تشعيري تتدفق حقيقة أرضية أو ساوية .؟ لا شك أن هذا عجيب ! .. ولا شك أننا لو تأملنا من قريب هذه الغرائب فسنكتشف في اطراد الفكر القرآنية روحأً مذهلاً ، ونسقاً رفيعاً ، لا يصدر إلا عن معرفة مطلقة مخضة تتدفق منها الآية ، فنحن مضطرون إلى أن نعد أمثل هذه الغرائب إشارات بينات ، وشهماً ثوابق ، تكشف للفكر الإنساني المبهور عن المصدر الغيبي الذي تدفقت منه تلك الفكرة ، التي سبقت عصور التقدم الإنساني ، واتفقنا مع الحقائق التي كشف عنها العلم بعد ذلك بقرون ، وكأننا سبقت هذه الغرائب العقل الإنساني الذي يتتطور ، لتكون طلائع شاهدة على السر الأسمى للمعرفة القرآنية .

إن القرآن يتجه بالخطاب إلى البشر سكان الأرض ، أولئك الذين يهمهم ولا ريب أن يعرفوا كل شيء عن الأرض التي تحملهم ، فما هو شكل هذا الكوكب المظلم ؟ ... وللإجابة عن هذا السؤال لا يسلك القرآن مسلكاً علمياً ، فهو ليس كتاباً في وصف الكون ، ولو أنه كان كذلك لحوى تلك الأفكار التخمينية ، التي كانت تقول بها النظرية البطلمية^(١) La Théorie Ptolemienne الشائعة آنذاك ،

(١) بطليوس هو الذي افترض أن الأرض مركز الكون الذي تدور حوله الشمس والكواكب الأخرى ، وقد حل محل النظرية نظرية كوبيرنيك السائدة الآن .

ومعلومات ذلك العصر عن الأرض تذهب إلى كرويتها التامة ، وتدبر أيضاً إلى أنها ساكنة في مركز الفضاء^(١) . أما الأفكار الأفلاطونية المشار إليها فقد كانت أكثر زخرفة ، إذ أن أفلاطون حين تغنى بظواهر الكون أراد أن يجعل الأرض مركز قبة الفلك المترنم .

هذه إذن هي المصادر العلمية التي يمكن أن تستقى منها الإجابة الإنسانية عن السؤال الموضوع ، ولكن إجابة القرآن - على الرغم من أنها لا تحمل طابعاً تعليمياً شأن كتب وصف الكون - تبدو كأنها تضع معالم بسيطة أمام العقل الإنساني على جوانب طريق التقدم العلمي . ولنننظر في الآية الآتية ، قوله تعالى :

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتَى الْأَرْضَ نَنْقَسِهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الأنبياء ٤٤/٢١]

ففي هذه الآية فكرتان متميزتان ينبغي أن نؤكد كلاً منها على حدة :

إحداهما : ذات طابع هندسي ، فتشكل الأرض قد عين ضمناً في قوله : « أطراف » .

والآخرى : ذات طابع آلي عبرت عنه صراحة (نقصها) . والواقع أن لفظة (أطراف) تقتضي فكرة عن شكل الأرض ، فرأى شكل هو ؟ ... إن الأرض لا توحى بدهاهة بشكل خطي في الفضاء ، أو بشكل مسطح أو مسدس أو مربع أو مثلث .. الخ .. إذ أن أقل تسوء في مساحتها يوحى بدهاهة بفكرة الأبعاد الثلاثة ، وبالتالي بشكل هندسي متند في الاتجاهات الثلاثة ، ولكن جميع الأشكال الهندسية في الفضاء لا تتفق مع فكرة (الأطراف) فأقرب الأشكال إلى التصور - حين نأخذ في اعتبارنا اللفظ المكمل (انتقاد الأطراف) ، وحين نسأير

(١) بوكيه Boquet (تاریخ الفلك Histoire de l'Astronomie)

معارف الهندسة الأرضية عن (دحو القطبين ^(١) *Applatissement aux Pôles*) هو الشكل البيضاوي .

هذا التوافق الذي يخص شكل الأرض ودحو قطبيها ، تلك الخاصة المساحية التي أثبتها العلم الحديث عموماً ، أقول : هذا التوافق قد ازداد وضوحاً حين أيدته الأفكار القرآنية الأخرى التي تتحدث عن كوكبنا ، وتفق مع الحقيقة العلمية ، فإذا اقتصر العلم في أوربا حتى عهد (كوبيرنيك Copernic) و (فابيوناتشي Fabionacci) على الأفكار البطلمية ، فها هو ذا القرآن يصف صراحة قبل ذلك بثانية قرون حركة الأرض فيقول : ﴿ وترى الجبالَ تحسّبها جامدةً وهي تمرّ مَ السحابَ ﴾ [النمل ٨٨/٢٧]

هذه الفكرة عن حركة الأرض جوهرية في ذاتها ، وهي زيادة على ذلك توحى بفكرة ملزمة لها ، هي فكرة (محور الحركة) ، وبالتالي بفكرة (القطبين) والقطبان قد عينها لفظ (أطراف) ، وأشار إليها في فكرة (دحو القطبين) .

ولكن من أين يأتي هذا الكوكب الذي تحدث القرآن عن شكله ودحوه ، وحركته في إشارتين شفافتين ؟ .. يبدو لنا أن النظريات قبل (لابلاس Laplace) - بصرف النظر عن الأساطير - لم تواجه هذا السؤال . ولكن منذ (لابلاس) عدت الأرض شارة مظلمة منفصلة عن الشمس ، أما القرآن فمن غير

(١) تخينا أن نستعمل عبارة « دحو القطبين » في ترجمة عبارة *Applatissement aux Pôles* لأن الدحو البسط والترقيق ، وهو المعنى الوضعي لكلمة *Applatissement* ، وهو أيضاً تعبير يتصل بشكل الأرض البيضاوي ، فقد قال في القاموس عند كلامه على مادة (دحا) والأدحية والأدحّة مبيض النعام في الرمل » ويطلق على البيضة في بعض البلاد العربية الآن (الدحة) أو (الدحية) ، ولعل سر هذا الشكل البيضاوي للأرض يكمن في قوله تعالى ﴿ والأرض بعد ذلك دحها ﴾ . (المترجم)

أن يلجأ إلى التفسير العلمي نراه يضع بعض المعلم على هذه الطريق :

﴿ لا الشمس ينبغي لها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلُّ فِلْكٍ

يَسْبِحُونَ ﴾ [يس ٤٠/٣٦]

ومن الممكن أن يقال : إن الأمر هنا يتعلق بفكرة معتسفة تحدد اتفاقاً نقطة بدء في تقسيم الزمن ، ومع ذلك فليس ما يمنع من تفسير الآية طبيعياً ، مع اعتبارنا المعنى العام للنص ، ولعلها في هذه الحالة تتفق مع الفكرة العلمية عن (الليل) من حيث كونه ظاهرة طبيعية أعقبت البرودة التدريجية للأرض ؛ إذ الواقع أنه طالما كانت الأرض كتلة ملتهبة فإنها لم تكن تعرف الليل ، فكانت في نهار طبيعي دائم .

وأخيراً فإن هذا الوصف الكوني مكمل بأفكار قرآنية أخرى ، ليست بأقل أهمية في إثبات التوافق مع الحقيقة العلمية ، ولنا أن نذكر خاصة خط مسیر الشعاع الضوئي في الجو ، فنحن نعلم أن الجو هو : « تراكب طبقات متتابعة تقل فيما بينها كثافة الماء ابتداء من الأرض » ، وفي وسط كهذا يجب أن يكون مسلك الشعاع الضوئي طبقاً للقانون الثاني للعاليين (الهيثم^(١) - ديكارت) ، وهو (قانون الانكسار) ، ولكن القرآن الذي يلفت أنظارنا دائماً إلى ظواهر الطبيعة

(١) هو أبو علي الحسن بن الهيثم - ولد بالبصرة عام ٢٥٥ هـ « ٩٦٥ م » ومات بالقاهرة عام ٤٢٠ هـ « ١٠٢٨ م » وكان من علماء الرياضة المبرزين ، وقد استطاع أن ينقل رسائل المتقدمين في الرياضة والطبيعة ، وأن يضع الكثير من الرسائل في هاتين المادتين وفي الطب الذي كان مهنته الأصلية ، ومن أهم مؤلفاته كتابه (المناظر) عن البصريات والضوء ، وأصله العربي مفقود ولم تبق إلا ترجمته اللاتينية التي قام بها (وتلو Wilete) عام ١٢٧٠ م ، وهو صاحب نظريات : انتشار الضوء ، والأنواع ، وخداع البصر ، والانعكاس ، كما تناول موضوع انكسار الأشعة الضوئية التي تمر في أوساط شفافة كالملوء والماء ، وذلك قبل أن يثبتت (سمل Smell) و (ديكارت Descarte) قانون الجيوب في الضوء بستة قرون تقريباً . وللحسن رسالة في الضوء ، وأخرى عن ظواهر الشفق وألوان الطيف والهالة والظل والكسوف والخسوف ... الخ .. (المترجم)

يدعونا إلى أن نرى يد الخالق - التي لا ترى - في أقل خطوط الظل : ﴿ ألم تر إلى ربكَ كيفَ مَدَ الظلَّ ولو شاءَ جعلَةَ ساِكِنًا ثمَّ جعلنا الشِّمسَ عليه دليلاً . ثمَّ قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ﴾ [الفرقان ٤٦ ، ٤٥]

كيف نفسر هذا القبض اليسير^(١)؟ .. إن قانون (المهيم - ديكارت) يقول إن الشاعر الضوئي الذي ينتشر في مجال ذي كثافة متغيرة باستقرار يخترق في مسیره خطأً منحنياً ذا تجويف متوجه نحو النقطة الأكثر كثافة ، وفي هذا المجال يقبض الظل (قبضاً يسيراً) بالنسبة لما قد يكون عليه الفراغ الذي لا يوجد فيه انكسار ، وفي هذا توافق ملحوظ بين الفكرة القرآنية والخاصة البصرية الحضة التي يجهلها العلم الإنساني في العصر القرآني .

و بما أننا في حديث الجو ، فلنذكر اتفاقاً آخر مما قرره القرآن : فمنذ اكتشاف الطبقات العليا بفضل الطيران والبالونات استطعنا أن ندرك ظاهرة عضوية تنتج عن تعدد الهواء ، إذ يشعر الصاعد في العلو ببعض الصعوبة في التنفس ، ويحس بالضيق والانقباض . لقد اقتبست الفكرة القرآنية من هذه الظاهرة استعارة بارعة ، فيقول القرآن :

﴿ من يَرِدَ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيهِ يَشْرُحُ صَدَرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يَرِدُ أَنْ يَضْلِلَهُ يَجْعَلُ صَدَرَهُ ضِيقًا حَرَجًا كَأَنَّا يَصَعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام ١٢٥/٦]

وربما أمكننا أن نجزم بأن تسلق الجبال قد لفت نظر هواة التسلق إلى هذه الظاهرة ، حتى قبل ارتياح الطبقات الجوية ، فضلاً عن أن الآية لا تستخدم في الموازنة تعبير الصعود (في الجبال) ، بل تستخدم صراحة تعبير الصعود (في

(١) ذهب المفسرون الذين فاتتهم فكرة القرآن في هذا الباب إلى تفسير هذه الآية متحاشين تحديد معنى الفعل (قبض) مع أنه جد واضح ، ومؤولين (يسيراً) تأويلاً غريباً فأصبح معنى الجملة عندهم (ثم قبضناه إلينا وكان ذلك يسيراً علينا) .

السماء) ونضيف إلى هذا أن مهد العبرية العربية بلد ذو سطح منبسط ، وسهول واسعة لا يفيده المرء منها تجربة ، أو فكرة في تسلق الجبال ، فنحن مجبرون أن تقرر هنا أيضاً اتفاقاً رائعاً للفكرة القرآنية مع الواقع العلمي .

وأخيراً فعلى هذه الأرض التي يبدو القرآن وكأنما يلقي على أصولها البعيدة بعض الإشارات الضوئية وجد الإنسان ، فن أين أتي هذا الإنسان ؟ . وأين هي نقطة البدء في الحياة الحيوانية ؟

لقد تخيل العلم دورة بيولوجية تغذت في وسط مائي حيث تكونت الخلية الحية الأولى وتشكلت واقتلت ، حتى وصلت إلى هيئة الإنسان ، فمن الأهمية بمكان أن نلحظ التوافق بين الدورة العلمية وبين الفكرة القرآنية التي تصوغها الآيات التالية :

(١) ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ إِنْسَانٍ مِّنْ طِينٍ ﴾ .
(طين = ماء + تراب) [السجدة ٧/٣٢]

(٢) ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سَلَالَةٍ مِّنْ مَاءٍ مَّهِينٍ ﴾ [السجدة ٨/٣٢]

(٣) ﴿ ثُمَّ سَوَاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ . [السجدة ٩/٣٢]

فقد سجلت أطوار الدورة بوضوح في هذه الآيات ، إذ تسجل الآية الأولى طور الخلق الأول ، وتسجل الآية الثانية طور التناслед ، وتسجل الثالثة طور الاكتال . ولقد وضعنا قصداً الشرح التخطيطي لكلمة (طين) بين قوسين لكي نستخرج منه كلمة (ماء) ، الذي هو نقطة البدء في الدورة البيولوجية في النظرية العلمية . ليس هذا متعسفاً لأن القرآن يحدد - دون لبس - هذا الطور من أطوار الخلق ابتداء من الماء حيث يقول :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ ﴾ . [الأنبياء ٣٠/٢١]

لقد ذهب المفسرون الذين فاتتهم الفكرة القرآنية إلى تفسير الاسم المعين (الماء) بمعنى الاسم غير المعين (ماء) الذي يساوي : (سائل منوي) ، فتفسيرهم هذا قد ينطبق على آيات أخرى تتحدث عن طور التنازل . ولكي ننتهي من هذا الاستطراد في تفصيل الدورة البيولوجية في الفكرة القرآنية ، نرى من المفيد أن نورد تعداداً ، ورد بصورة تتفق مع مراحل الحياة الحيوانية .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّنْ مَاءٍ فَنِمْهُ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ [النور ٤٥/٢٤]

وفي نسق آخر للأفكار يقع توافق عجيب جدير بالذكر في الآية التالية :

﴿ فَأَتَيْعَ سَبِبًا ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرَبُ فِي عَيْنٍ حَمَئَةٍ ﴾ [الكهف ٨٥/١٨ ، ٨٦]

وربما تبدو هذه الآية العجيبة ذات سداقة حلوة ، ومع ذلك فلو أثنا نظرنا إلى خط الطول الذي تقع عليه مكة ، فإن مغرب الشمس سيكون على مدى تسعين درجة طولية إلى الغرب ، وهذا الطول يمتد إلى نواحي خليج المكسيك ، حيث يتفرع بحرى بحري ، هذا التيار البحري الدافع هو الذي يحمل إلى شواطئ أوروبا الشمالية ما يناسبها من الدفء المستمد من (عينه الحمئة أو الحامية) ^(١) وفي هذه الأنحاء نفسها حاول المهندس الفرنسي (جورج كلود George Claude) استخدام الطاقة الحرارية في البحار ، ونجح في ذلك نظرياً .

أو ليس هذا بالتحديد هو المكان الذي تغرب فيه الشمس بالنسبة لخط طول مكة الذي يعد بصورة ما خط طول الفكرة القرآنية ؟ . هذا أيضاً توافق عجيب . ولنذكر من ناحية أخرى ذلك الانقلاب الجبار الذي حدث منذ قرن باكتشاف

(١) قرأ معاوية « وَجَدَهَا تَغْرَبُ فِي عَيْنٍ حَمَئَةٍ » وهي قراءة مسموعة قطعاً . (المترجم)

الكهرباء واستخدامها في الحياة على سطح الأرض ، إن النتائج النظرية والعملية لهذا الاكتشاف ذات دوي عريق هائل في حياتنا ، وفي فكر الإنسان وفنونه ، وقد يكون جديراً بالذكر أن نجد إشارة إلى هذه الظاهرة الخطيرة الشأن في الكتاب الذي قال عنه : ﴿ ما فرَّطْنَا في الكتابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام ٢٨/٦] وقد لفت نظرنا بعض المفسرين المحدثين لتلك الإشارة في الآية الآتية :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مِثْلُ نُورِهِ كِشْكَاهٌ فِيهَا مَصْبَاحٌ ، الْمَصْبَاحُ فِي زَجَاجَةٍ ، الزَّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دَرِّيٌّ يَوْقَدُ مِنْ شَجَرَةِ مَبَارِكَةٍ زَيْتُونَةٍ ، لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ ، يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْلَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور ٢٤/٤٥]

ففي هذه الآية أجمل مجازات القرآن التي ألمت الفزالي كتاباً من أعمق مؤلفاته هو (المشكاة La Cavité) ، ولكن عقلية المفسرين المحدثين قد أدركت في هذا المجاز أكثر من إشارة صوفية ، أدركت موافقة من أعجب مواقفات الفكرة القرآنية للواقع الذي قرره العلم ، ونحن نريد هنا - لزيادة الإيضاح - أن نؤكد بدورنا الخاصة الموحية للآية المذكورة ، بأن نرتّب عناصرها الأساسية في قالب إيضاحي ، بحيث تصبح الآية (ولو لم تمسه نار فإن النور يضيء من مشكاة فيها مصباح في زجاجة) ، وبهذا تصبح الإشارة أكثر شفافية ، لكننا نستطيع أن نستطرد في تبيان الصفة الخاصة لهذه الآية ، مستعيرين من مصطلحات الصناعة ما يعادل ألفاظها ، وإنما يصبح هذا الاستبدال بالمعادلات الآتية :

مشكاة = Projecteur = عاكس

مصباح = شيء ملتهب مضيء = سلك

زجاجة = أنبوبة

وليس في هذه المعادلات شيء من الاعتساف ، فهي مستوحاة من ألفاظ الآية نفسها ، وفي ضوء طبيعة مجازها الفريدة ، التي تؤدي إلينا فكرة مصباح

يضيء دون أن تمسه نار . وبعد هذا الاستبدال تتكون لدينا الجملة الآتية ، حيث يصير الرمز شفافاً تماماً : (ولو لم تمسه نار ، يضيء النور من عاكس فيه سلك في أنبوبة ، يوقد من زيت شجرة مباركة لا شرقية ولا غربية)^(١) . فهنا يجب أن نلاحظ جيداً موافقة من أغرب المواقفات بين الفكرة الموجة وبين الحقائق التي أثبتتها العلم بعد ذلك .

ويكمنا أن نلاحظ أيضاً في حالات أخرى عجزنا عن إيضاح هذه الفكرة الموجة في ضوء فكرة الإنسان الخاصة . فلو أنها أردنا أن نخلع على عصمنا هذا المضطرب بالحروب المهمة رمزاً مميزاً فلربما وجدناه في الفكرة الرهيبة التي توحى لنا بها (القذيفة أو القنبلة) ، إن رمزاً كهذا قد ورد في قوله تعالى :

﴿ يرسلُ علِيكُمَا شَوَاظٌ مِّنْ نَارٍ وَنَحَاسٌ ﴾^(٢) [الرحمن ٢٥/٥٥]

فهل يتسعى لكتاب ما أن يصوغ رمزاً لأدوات الموت أكثر من هذا ؟ ولقد كان هذا التوافق غريباً مدهشاً ، إذ لم يستخدم فن الحرب حتى معركة (سجل الماسة) سوى السلاح الأبيض ، ففي هذه المعركة تعلم الإنجليز استعمال البارود ، لكي يستخدموه بعد سنوات معدودات في معركة (كريسي) .

وأخيراً فلكي نختم هذا الفصل الذي بحثنا فيه بعض الظواهر الطبيعية ، قد نتساءل عن مدى العالم الذي تنتشر فيه هذه الظواهر ، هل لهذا الامتداد حدود ... ؟ إن القرآن يجيب صراحة :

(١) استخدمت الشجرة دائماً في الرمز الشعبي بمعنى مجازي هو معنى القوة = الطاقة وبالتالي فإن واحداً من أشكالها الموجة في الآية هو سريان الكهرباء (زيت شجرة مباركة) .

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وروح بخض « نحاس » معطوفة على « نار » . وهي القراءة التي اختارها المؤلف ، ونسبها إلى من يدعى « مكي بن الأثير » ولا وجود لقارئ بهذا الاسم فيما لدينا من المراجع (انظر النشر ج ٢ ص ٣٨١ ، وطبقات القراء ج ٢ ص ٢٠٨ و ٢٠٩ وغيرها في الجزء نفسه) وقرأ الباقون برفعها ، معطوفة على « شواط » . (المترجم)

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات ٥١/٣٧]

وهكذا يبدو الفضاء - في نظر القرآن - وكأنه لا ينتهي ، وكأنه يزداد على الدوام . هذه الفكرة التي أصبحت الآن علمية هي التي هالت (Einstein) نفسه عندما اكتشف عالم الطبيعة (هابل Hubble) أن الكواكب السديمية تبعد عن سديمنا ، واستنبط عالم الرياضة البلجيكي القسيس (Le maître Lemaître) من ذلك نظرية (امتداد الكون) .

أوليس عجباً مذهلاً أن تضع الفكرة الموجة - هكذا دائماً - معالها المضيئة أمام الفكر العلمي ، حتى كأنها تصف له الطريق ؟!. وهل يستطيع أحد أن يقول إن معالم كهذه قد انبثقت من عقل أمي ، وبأن هناك بالتالي معادلة بين :

الأفكار الحمدية و الأفكار القرآنية ؟!!

☆ ☆ ☆

المجاز القرآني

إن عقريّة لغة ما مرتبطة بما تهبه الأرض لبلاغتها الخاصة ؛ فطبيعة المكان والسماء والمناخ والحيوان والنبات ، هذه كلها خلاقة للأفكار والصور التي تعد تراثاً خاصاً بلغة دون أخرى ، وهكذا تضع الأرض طابعها على أدوات البلاغة التي يستخدمها شعب ما ، كما يعبو عن عقريّة ، وبالتالي فإنّ النقد الذاتي لأي أدب يجب أن يكشف في هذا الأدب إلى حد ما عن علاقته بعناصر التربة التي ولد فيها .

وكذلك فيما يتصل بتحليل الأسلوب القرآني ، فإنّ هذا التحليل يجب أن يكشف عما يربطه بالتربيّة العربيّة .

ولعل المزاج هو العنصر البلاغي الفريد الذي يحدد معالم الأسلوب ، ويحدد بصورة ما موقعه الجغرافي ، فامرؤ القيس عندما وصف فرسه قال بيته المشهور :

مكر مفر مقبل مدبر معأ كجلود صخر حطه السيل من عل
فإذا تأملنا ألفاظ هذا المجاز وجدناه يعبر عن صورتين متراثتين تماماً
مقتبستين من حياة الصحراء وإطارها ، فقد استخدمت عقريّة الشاعر العظيم
- في بلاغة فطرية - عناصر احتواها الوسط الجغرافي ، وهي صورة فرس يعدو ،
وصورة جلود صخر حطه السيل . فالبيت عربي في جوهره ، لأن الوسط الذي
يتمثل فيه وسط عربي طبعه بطابعه الخاص . ولكن المجاز القرآني ليس دائماً ولا
غالباً انعكاساً للحياة البدوية في الصحراء . فهو يستمد - على عكس ذلك -
عناصره وألفاظ تشبيهاته من بيئات وجواء ومشاهد جد مختلفة ؛ فالآفكار المتصلة

بالنبات كالشجرة وأنواع الرياض تصور لنا طبيعة أرض كثيفة الزرع ، طيبة الماء ، أكثر من أن تصور أرض الصحراء القاحلة الرملية . والأنهار التي تخترق المروج الخضر تذكرنا بالأرض الخصبة على ضفاف النيل ، أو الفرات ، أو نهر (الجانج La Gange) بالهند ، أكثر مما تذكرنا بفازات بلاد العرب . والسحب التي تسوقها الرياح لتعي الأرض بعد موتها ليست من المشاهد اليومية في سماء بلاد العرب ، فإن هذه السماء القارية صافية ملتهبة ، حتى كأنها موقد نحاس محمر ، عارية عري الصحراء نفسها . وفضلاً عن ذلك فإننا نجد في القرآن صوراً ذهنية كثيرة لا تتصل بسماء الجزيرة ولا بأرضها .

ليس من خطة هذا الكتاب أن ندرس المجاز القرآني ، بل أن نبين فقط أهميته في دراسة الظاهرة القرآنية من وجهة نظر نقدية ، ولذلك نقدم للقارئ مثالين مقتبسين من سورة النور يوضحان هذه الأهمية .

المثال الأول قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٌ بِقِبَعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّهَانَ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابٌ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور ٢٩/٢٤]

ففي هذه الصورة الأخاذة يتجلّى سطح الصحراء العربية المنبسط ، والخداع الوهبي للسراب . فنحن هنا أمام عناصر مجاز عربي النوع ، فأرض الصحراء وسماؤها قد طبعا عليه انعكاسها ، فليس ما نلاحظه مما يتصل بالظاهرة القرآنية التي تشغelnَا ، سوى ما نجده في الآية من بлагة ، حين تستخدم خداع السراب الملم ، لتأكد بما تلقى من ظلال تبدد الوهم المأهيل ، لدى إنسان مخدوع ، ينكشف في نهاية حياته غضب الله الشديد ، في موضوع السراب الكاذب ... سراب الحياة .

والمثال الثاني قوله تعالى :

﴿أَوْ كَظْلَمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَّجِيْ يَغْشَى مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ،
ظَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ
نُورًا فَاللَّهُ مِنْ نُورٍ﴾ . [النور ٤٠/٢٤]

فهذا المجاز يترجم على عكس سابقه عن صورة لا علاقة لها بالوسط الجغرافي للقرآن ، بل لا علاقة لها بالمستوى العقلي ، أو المعارف البحرية في العصر الجاهلي ، وإنما هي في مجموعها منتزعه من بعض البلدان الشمالية التي يلفها الضباب ، ولا يمكن المرء أن يتصورها إلا في النواحي كثيفة الضباب في الدنيا الجديدة أو في (إيسلندا) . فلو افترضنا أن النبي رأى في شبابه منظر البحر فلن يعدو الأمر شواطئ البحر الأحمر أو الأبيض . ومع تسلينا بهذا الفرض فلسنا ندري كيف كان يمكن أن يرى الصورة المظلمة التي صورتها الآية المذكورة ؟ . وفي الآية فضلاً عن الوصف الخارجي الذي يعرض المجاز المذكور سطراً خاصاً بل سطراً : أولها : الإشارة الشفافة إلى تراكب الأمواج . والثاني : هو الإشارة إلى الظلامات المتراكفة في أعماق البحار ، وهاتان العبارتان تستلزمان معرفة علمية بالظواهر الخاصة بقاع البحر ، وهي معرفة لم تتح للبشرية ، إلا بعد معرفة جغرافية المحيطات ، ودراسة البصريات الطبيعية . وغنى عن البيان أن نقول : إن العصر القرآني كان يجهل كلية تراكب الأمواج ، وظاهرة امتصاص الضوء واختفائه على عمق معين في الماء ، وعلى ذلك فما كان لنا أن ننسب هذا المجاز إلى عبقرية صنعتها الصحراء ، ولا إلى ذات إنسانية صاغتها بيئة قارية .

☆ ☆ ☆

القيمة الاجتماعية لأفكار القرآن

لقد حاولنا حتى الآن أن ندرس الأفكار القرآنية بالنسبة للذات الحمدية ، من زاويتها النفسية والتاريخية ؛ ومن المفيد في هذا الفصل الأخير أن ندرسها في أهميتها الاجتماعية . فهناك مثلاً مشكلة في تاريخ الإنسانية لا تفتأ تواجهها وخاصة في هذه الأيام ، تلك هي (مشكلة الخمر) .

والحق أنه للمرة الأولى في التاريخ الإنساني ووجهت هذه المشكلة في القرآن : وحلت بطريقة معينة ، فكيف كان ذلك ؟ . ها هو ذا التخطيط النفسي والتشريعي لهذا القرار الذي حدث للمرة الأولى في تشريع أحد المجتمعات الإنسانية :

أولاً : ﴿ يسألونك عنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمٌ أَكْبَرٌ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ [البقرة ٢١٩/٢]
وهنا وقفة أولى .

وثانياً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرِبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء ٤٢/٤]
وهذا هو الموقف الثاني .

ثالثاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة ٩٠/٥]

هذا هو المسلك الشرعي الذي اتبعه القرآن من أجل أن يواجه مشكلة الخمر الخطيرة ويجعلها ، فما هو أثر هذا التشريع ؟ ..

إن الإحصاء في البلاد الإسلامية ، حتى المتدهرة منها ، يدلنا على قلة تعاطي الخمر فيها ، بينما تعاني الإنسانية منها - بكل أسف - في البلاد المتقدمة ، فالعالم الإسلامي بوجه عام يجهل منذ ثلاثة عشر قرناً هذه النكبة ، فكيف أحرز تحرير الخمر في القرآن هذا النجاح ..؟

إنه المنهج دون أدنى شك ، ذلك الذي عرضناه عرضاً تخطيطياً ينتهي بأمر شرعي صارم . والواقع أن النص الأول يثير آشام الخمر في الضمير المسلم فحسب ، وقد كانت هذه هي الطريقة المحفوظة لإشارة المشكلة وتسجيلها بصورة ما في عداد المهموم الاجتماعية لمجتمع ناشئ ، وبهذه الطريقة أمكن لل المشكلة أن تشق طريقها في ضمير الصفة المختار ، في هذا المجتمع الذي يحكمه الدافع الخالي . فالملوّف الأول سيكون إذن مرحلة (حضانة) ضرورية ، هي المرحلة النفسية لل المشكلة وعلى أساس هذا البناء الفاضل للضمير المسلم يقوم النص التحديدي في الآية الثانية : ﴿ لَا تَقْرِبُوا الصَّلَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء ٤٣/٤] ، فهنا تحديد ، لأنّه لكيلا تكون سكارى خلال أوقات الصلوات الخمس ، يجب ألا تقرب السكر أبداً ، فهو يهدف إلى أن يظهر مدمني الخمر تدريجياً ، وإلى أن يرتب حظراً خلقياً ، قبل أن يسن التحرير النهائي ، وتوضع العقوبة المجازية لارتكاب الجرم الحرم . وبهذه الطريقة تحاشى القرآن أن يثير في الوقت نفسه مشكلة اقتصادية هي مشكلة تجارة الخمر ، إذ كانت هذه التجارة قد غفت واتسعت ، حتى خلع عليها عرب الماحلية ألقاباً كثيرة يعنون بها مطالبهم من أنواع الخمور^(١) ، ولقد ظلت الكلمة المشهورة لامرئ القيس ، والتي قالها عندما

(١) انظر درمنجهام في (مقدمة في مدح الخمر) لابن الفريد ، بالفرنسية .

أعلمونه ببوت أبيه ، شاهدأً تاريخياً على إسراف العرب قبل الإسلام في تعاطي الخمر ؛ قال هذا الشاعر ساعتئذ : (اليوم خمر وغداً أمر) .

ففي هذا الوسط الذي انتشر فيه شرب الخمر وتجارتها ، أثار القرآن المشكلة ، وكان من المصلحة أن يتدرج في تكيف الحالة الاقتصادية الجديدة ، وربما كان هذا هو الذي يعلل الموقف الثاني ، قبل التحرير النهائي .

ولعلنا لا نستطيع أن ندرك أهمية هذه الاعتبارات عن الظاهرة القرآنية لو لم يكن لدينا مثال آخر لتشريع إنساني يجعله أساساً لموازنة الخطة القانونية ، لقد أثارت المشكلة بعد ذلك بثلاثة عشر قرناً من الزمان اهتمام المشرعين في أمة ، لعلها أرق الأمم حضارة ، هي الولايات المتحدة الأمريكية ، وسنضع هنا كا فعلنا قبل ذلك تحطيطاً لخطوات هذا التشريع الذي رأى النور في أمريكا في صورة تعديل دستوري عام ١٩١٩ م .

فحوالي عام ١٩١٨ م ثارت المشكلة في الرأي العام الأمريكي ، وفي عام ١٩١٩ م أدخل في الدستور الأمريكي تحت عنوان (التعديل الثامن عشر) ، وفي السنة نفسها أيد هذا التعديل بأمر حظر أطلق عليه التاريخ قانون (فولستيد Acte Velstead) و قد أعدت لتنفيذ هذا التحرير داخل الأراضي الأمريكية وسائل هي :

- (١) الأسطول أجمعه لمراقبة الشواطئ .
- (٢) الطيران لمراقبة الجو .
- (٣) المراقبة العلمية .

فإذا كان حل الموقف ؟

فشل كامل لأمر المحظر ، وسقوط قرره التعديل الدستوري الحادي والعشرون الذي صدق عليه الكونغرس عام ١٩٣٣ م .

وذلك هو الموجز التاريخي للمسألة التشريعية بأكملها ، تلك التي سميت في تاريخ الأمة الأمريكية : (عهد التحرير) .

☆ ☆ ☆

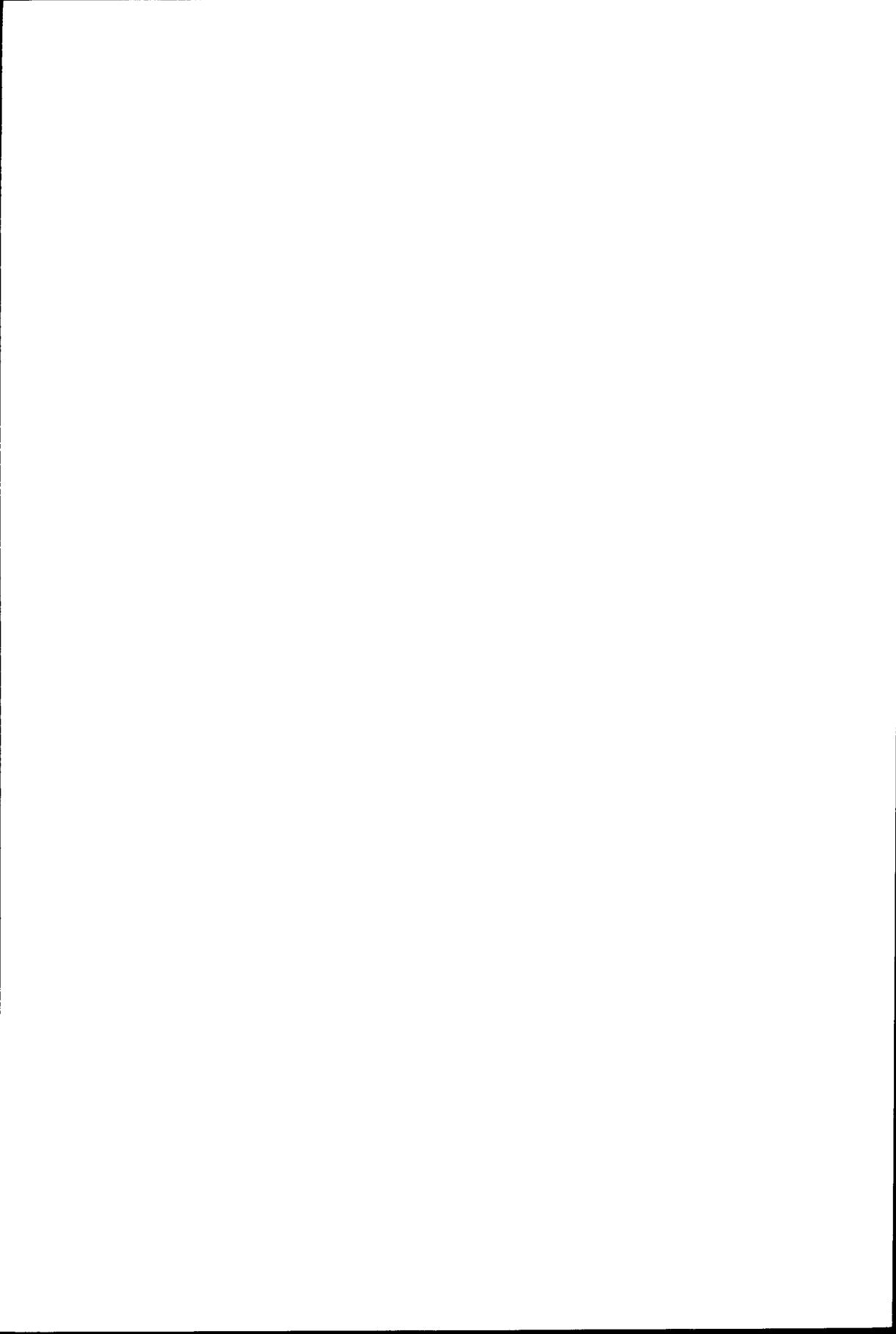
وبعد ففي ضوء القرآن يبدو الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته ، كا تحكم الجاذبية المادة ، وتحكم في تطورها .

والدين على هذا يبدو وكأنه مطبوع في النظام الكوني ، قانوناً خاصاً بالفكرة ، الذي يطوف في مدارات مختلفة ، من الإسلام الموحد إلى أحط الوثنيات البدائية ، حول مركز واحد ، يخطف سناء الأ بصار ، وهو حافل بالأسرار ... إلى الأبد ..

☆ ☆ ☆

المفرد

- ١ - مفرد الآيات القرآنية
- ٢ - مفرد الأحاديث النبوية
- ٣ - مفرد الأعلام (يشمل الأشخاص والدول والأمكنة)
- ٤ - مفرد المذاهب والجماعات والشعوب
- ٥ - مفرد المعاهدات والمؤتمرات والمنظمات
- ٦ - مفرد المراجع والمصادر
- ٧ - مفرد الموضوعات



١ - مسرد الآيات القرآنية

الآية	الصفحة	رقمها
-------	--------	-------

سورة البقرة (٢)

﴿ وَإِن كُنْتُمْ فِي رِبِّ مَا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مُّثْلِهِ ، ٢٤-٢٣ وَادْعُوا شَهَادَةَ كُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أَعْدَتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ .

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كَنْ فَيَكُونُ ﴾ .

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتَلوُ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيَزْكِيْكُمْ وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحَكْمَةَ ، وَيَعْلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمُسِرِّ ، قُلْ فِيهِمَا إِنَّمَا كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ النَّاسِ ، ٢١٩ وَإِنَّمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ .

سورة آل عمران (٣)

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نَوْحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لِدِيْهِمْ إِذْ يَلْقَوْنَ ٤٤ أَقْلَامَهُمْ أَيْمَنَ يَكْفُلُ مَرِيمَ ، وَمَا كُنْتَ لِدِيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِّمُونَ ﴾ .

﴿ قُلْ فَأَتُوا بِالْتُّورَاةِ فَاتَّلُوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أَخْرَجْتُ لِلنَّاسِ ، تَأْمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ .

الصفحة	رقمها	الآلية
سورة النساء (٤)	٢١٦٨ ح ^(١)	﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوْا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةٍ ١٤ مِنْكُمْ ، إِنْ شَهَدُوا فَأْمَسْكُوهُنَ فِي الْبَيْوَتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَ سَبِيلًا ﴾ .
١٨٤	٢٢	﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ وَعَمَاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبِنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ، وَأَمْهَاتُكُمُ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ ، وَأَخْوَاتُكُمْ مِنْ الرَّضَاعَةِ ، وَأَمْهَاتُ نِسَائِكُمْ ، وَرَبَائِبِكُمُ الَّتِي فِي حِجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ الَّتِي دَخَلْتُمْ بَهْنَ ، إِنَّمَا لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بَهْنَ فَلَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ ، وَجَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ، وَأَنْ تَجْمِعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ ، إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ : إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .
٢٩٨، ٢٩٧	٤٣	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرِبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سَكَارَى حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ .
٢٦٥	١٥٧	﴿ وَمَا قَاتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكُنْ شَبَهُ لَهُمْ ﴾ .
سورة المائدة (٥)		
١٤١	٤	﴿ الْيَوْمَ أَكْلَمْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتَمْتُ عَلَيْكُمْ نَعْمَقَى ، وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ .
٢٠٩	٢١	﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا أَوْ فَسَادًا فِي الْأَرْضِ فَكَانَ قَتْلُ النَّاسِ جِيَّمًا ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَانَ أَحْيَا النَّاسَ جِيَّمًا ﴾ .
٢٩٧	٩٠	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَرْ وَالْمِيسَرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ .
١٤٧	١١١	﴿ وَإِذَا أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيْنَ أَنْ آمَنُوا بِي وَبِرَسُوْلِي ، قَالُوا : آمَنَا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُوْنَ ﴾ .

(١) ح = حاشية

سورة الأنعام (٦)

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنَ ، مَكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَالِمٌ
نَمْكَنْ لَكُمْ ، وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مَدْرَارًا ، وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهِمْ ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْنَدِينَ ﴾ .

﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

﴿ فَنِّيْرَ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرُحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يَرِدْ أَنْ
يَضْلِلَهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرْجًا كَفَأَا يَصْنَعُ فِي السَّمَاءِ ۝ .

﴿ قُلْ فَلَلَّهِ الْحَجَةُ الْبَالِغَةُ ، فَلَوْ شَاءَ لَهُ دَكَمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

سورة التوبة (٩)

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ
أَبْلَغَهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذَا هُمْ فِي الْغَارِ إِذَا يَقُولُ
لِصَاحِبِهِ : لَا تَحْزُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ
بِجَنَوِيدٍ لَمْ تَرُوهَا ﴾ .

سورة يومن (١٠)

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوَتْهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيْكُمْ
عُمَرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقُلُونَ؟ ﴾ .

﴿ هُوَ الَّذِي يَسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكِ
وَجَرِيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيْبَةٍ ، وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَهُمْ رِيحٌ عَاصِفٌ ،
وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنَنُوا أَنَّهُمْ أَحْيَطُهُمْ ﴾ .

الصفحة	رقمها	الآية
١٩٩	٢٧	﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَفْتَرِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدِيهِ ، وَتَقْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبٌ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .
٢٦٢	٩١ و ٩٢	﴿ أَلَّا نَوْقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْفَسَدِينَ ، فَالْيَوْمَ نَجِيكَ بِيَدِنِكَ لِتَكُونَ مِنْ خَلْفِكَ آيَةً ﴾ .
١٥٩	٩٤	﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُتَرَدِّينَ ﴾ .

سورة هود (١١)

٦٠ ، ٢٥	١٤ و ١٢	﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأَنْتُوا بَعْشَرْ سُورَ مِثْلَهُ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مِنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّا أَنْزَلْنَا بَلْعَمَ اللَّهِ وَأَنَّ لَآءِهِ إِلَّا هُوَ فَهُلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .
٢٥٧	٤٩	﴿ تَلَكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيَ إِلَيْكَ ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَقْنِينَ ﴾ .

سورة يوسف (١٢)

٢٤٩-٢١١	وردت السورة من أول آياتها حتى الآية ١٠١ في معرض موازنتها مع القصة التي وردت في الكتاب المقدس .
٢٧١	﴿ نَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ النَّصْصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ .
١٠٤	﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .
٢٥٤	﴿ وَرَفَعَ أَبُو يَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرَّوْا لَهُ سَجَدًا ، وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايِّي مِنْ قَبْلِ ، قَدْ جَعَلْنَا رَبِّي حَقًا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السُّجْنِ ، وَجَاءَكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَّغَ

الصفحة	رقمها	الآلية
		الشيطان يبني وبين إخوتي ، إن ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم ﴿٤﴾ .
		سورة إبراهيم (١٤)
١٩٣ / ١٩٣	٥	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرُجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ ، وَذَكَرَهُمْ بِأَيَامِ اللَّهِ ﴾ .
		سورة النحل (١٦)
٥٠	١١١	﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ، وَتَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُنَّ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .
		سورة الإسراء (١٧)
٦٠ ، ٣٠ ، ٢٥	٨٨	﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسَانُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِهِشْلَهُ هَذَا الْقُرْآنُ لَا يَأْتُونَ بِهِشْلَهُ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَعْضُظُهُمْ بِهِرَأً ﴾ .
		سورة الكهف (١٨)
٢١٠ / ٢١٠	٨٣	﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ .
٢٩٠	٨٦ و ٨٥	﴿ فَأَتَيْعَ سَبِّاً ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمَّةٍ ﴾ .
		سورة مريم (١٩)
٦٣	٥	﴿ قَالَ : رَبِّي وَهُنَّ الْعَظِيمُ مِنِي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْئاً ﴾ .
		سورة طه (٢٠)
١٧١	٩٩	﴿ كَذَلِكَ نَقْصٌ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ أَتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذَكْرًا ﴾ .
٢٧٧ ، ١٧٢	١١٤	﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْضِي إِلَيْكَ وَحْيِهِ ﴾ .

الصفحة	رقمها	الآلية
سورة الأنبياء (٢١)		
٢٥	٢٠	﴿ أَولَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتَقَأْ فَفَتَقْنَا هَمَّا ﴾ .
٢٨٩، ٢٥	٣٠	﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٌ ﴾ .
٢٨٥	٤٤	﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتَى الْأَرْضَ نَنْقَصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ .
سورة المؤمنون (٢٣)		
٥٠	٧٤، ٧٣	﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِمٍ ، وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكُونُ ﴾ .
سورة النور (٢٤)		
٢٧٢	١	﴿ سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِعِلْمِكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .
٢٨٠	٢	﴿ الزَّانِيَةُ وَالْزَّانِي فَاجْلِدُوهُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةً جَلْدٍ ، وَلَا تَأْخُذُوهُمْ بِهَا رَأْفَةً فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَا يُشَهِّدُ عَذَابَهَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .
٢٨٠	٢	﴿ الزَّانِي لَا يُنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشَرِّكَةً ، وَالْزَّانِيَةُ لَا يُنكِحُهَا إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشَرِّكَةً ، وَحَرَمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . وَالَّذِينَ يَرْمَوْنَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُو بِأَرْبَعَةٍ شَهِيدَاءٍ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدًا وَلَا تَقْبِلُوهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .
٢٩١	٢٥	﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مِثْلُ نُورِهِ كَشْكَاهَ فِيهَا مَصْبَاحٌ ، الْمَصْبَاحُ فِي زَجَاجَةٍ ، الزَّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كُوكَبٌ درَّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مَبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ، يَكَادُ زَيْتَهَا يَضِيءُ وَلَوْمَ تَسْسَهُ نَارٌ ﴾ .

الصفحة	رقمها	الآية
٢٩٠	٤٥	﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّنْ مَاءٍ ، فَنَّهُمْ مِّنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مِّنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مِّنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ .
٢٩٥	٩٣	﴿ مُّثُلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كُسْرَابٌ بِقِيَمَةِ يَحْسِبُهُ الظَّمَآنُ مَاءٌ ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابٍ ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .
٢٩٦	٩٤	﴿ أَوْ كَظَلَامَاتٍ فِي بَحْرٍ لَّجِيْ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقَهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقَهِ سَحَابٍ ، ظَلَامَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهَ لَهُ نُوراً فَالَّهُ مِنْ نُورٍ ﴾ .
سورة الفرقان (٢٥)		
١٨١	٢٢	﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جَلَّةً وَاحِدَةً ، كَذَلِكَ لَنْ يُثْبَتَ بِهِ فَوَادِكَ وَرِتَلَنَا تَرْتِيلًا ﴾ .
٢٨٨	٤٤ و ٤٥	﴿ أَلَمْ تَرِ إِلَى رَبِّكَ كِيفَ مَدَ الظَّلَلَ وَلَوْ شَاءَ جَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلَنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دِلِيلًا . ثُمَّ قَبضَنَا إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ .
سورة النمل (٢٧)		
٢٨٦	٨٨	﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَرَى مِنَ السَّحَابِ ﴾ .
سورة القصص (٢٨)		
١٧١	٧٨	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رَسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ ، مِنْهُمْ مِّنْ قَصَصَنَا عَلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مِّنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ .
١١٩	٨٦	﴿ وَمَا كَتَبْتَ تَرْجُو أَنْ يَلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ، فَلَا تَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴾ .
سورة العنكبوت (٢٩)		
١٧٠	٤٨	﴿ وَمَا كَنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُطْهُ بِيَبْيَنِكَ ﴾ .

الآية	الصفحة	رقمها
-------	--------	-------

سورة لقمان (٣١)

﴿ يَا بْنِ إِنَّا إِنْ تَكْ مُثْقَلَ حَبَّةً مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ .

سورة السجدة (٣٢)

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ ﴾ .
 ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سَلَالَةِ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ .
 ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ .

سورة الأحزاب (٣٣)

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْتَمُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسَكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ، وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ .

سورة يس (٣٦)

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا شَمْسٌ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرُ ، وَلَا لَلَّيلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلُّ فِلَكٍ يَسْبِحُونَ ﴾ .

سورة ص (٣٨)

﴿ قُلْ هُوَ نَبْأٌ عَظِيمٌ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مَعْرُضُونَ ، مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمِلَائِكَةِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصُّونَ ، إِنْ يَوْحِي إِلَيَّ إِلَّا أَنَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ .

سورة الزمر (٣٩)

﴿ مَا نَبْدِلُهُمْ إِلَّا لِيَقْرِبُونَا إِلَى اللَّهِ زَلْفَى ﴾ .
 ﴿ هُوَ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثَ كِتَابًا مُتَشَاهِدًا مَثَانِي تَقْشِيرِهِ جَلَودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رِبِّهِمْ ، ثُمَّ تَلَيْنَ جَلَودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ هُدِيَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُضْلَلَ اللَّهُ فَالَّذِي هُوَ مِنْ هَادِهِ ﴾ .

الصفحة	رقمها	الآية
سورة فصلت (٤١)		
٢٠٥	١١	﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ۚ ۝ .
١١	٥٣	﴿ سَرِّهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ۝ الْحَقُّ ۝ .
سورة الشورى (٤٢)		
١٧٠	٥٢	﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي ۝ مَا الْكِتَابُ وَلَا إِبْيَانٌ ۝ .
سورة الزخرف (٤٣)		
١٧١	٤٥	﴿ وَاسْأَلْ مِنْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رَسْلَنَا ، أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْنِ ۝ آمِلَةٌ يَعْبُدُونَ ؟ ۝ .
سورة الأحقاف (٤٦)		
٦٣	٩	﴿ قُلْ مَا كُنْتَ بَدِعًا مِّنَ الرَّسُلِ ، وَمَا أَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي ۝ وَلَا بِكُمْ ، إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ۝ .
١٨٧ ح		سورة محمد (ص) (٤٧)
١٧١	٣٠	﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأُرْيَنَاكُمْ فَلَعْرَفْتُمْ بِسِيَامْ ۝ .
سورة الذاريات (٥١)		
٢٩٣	٣٧	﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍِ وَإِنَا لَمَوْسِعُونَ ۝ .
سورة النجم (٥٣)		
١٥٧	٤١	﴿ وَالنَّجْمُ إِذَا هُوَى ، مَا ضلَّ صَاحِبَكُمْ وَمَا غَوَى ، وَمَا يَنْطَقُ عَنِ ۝ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى مَا كَذَبَ الْفَوَادُ مَا رَأَى ، ۝ وَ١٢-١١ أَفْتَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ، وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةٌ أُخْرَى ۝ .

الآية	الصفحة	رقمها
سورة الرحمن (٥٥)		
﴿ يَرْسِلُ عَلَيْكَا شَوَاظٌ مِّنْ نَارٍ وَنَحَّاسٌ ﴾ .	٢٩٢	٢٥
سورة الحديد (٥٧)		
﴿ فَضَّرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورَةٍ بَابٌ ، بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ ﴾ .	٢٠٣	١٣
سورة الجمعة (٦٢)		
﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأَمَمِينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتَلوُ عَلَيْهِ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحَكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .	٢٥٦	٢
سورة المنافقون (٦٣)		
﴿ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُنَافِقُونَ ، قَالُوا : نَشْهُدُ إِنَّكُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ . وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكُمْ لِرَسُولِهِ . وَاللَّهُ يَشْهُدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكاذِبُونَ ﴾ .	١٨٦	١
سورة الحاقة (٦٩)		
﴿ وَلَوْ تَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخْذَنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقْطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينِ ، فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ .	٤٨	٤٤-٤٧
سورة المعارج (٧٠)		
﴿ تَرْجَعُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ .	٢٠٣	٤
سورة المزمل (٧٣)		
﴿ وَرَتَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ .	٢٧٠	٤
﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ .	٢٧٠ ، ١٥٦	٥

الآية	الصفحة	رقها
سورة المدثر (٧٤)		
﴿ يَا أَيُّهَا الْمَدْثُرُ ، قَمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبُّكَ فَكِبِرْ ﴾ .	١٢٧	٢-١
﴿ قَمْ فَأَنْذِرْ ﴾ .	١٥٢	٢
﴿ ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيداً ﴾ .	٢٠٨	١١
سورة الانشراح (٩٤)		
﴿ أَلَمْ نُشْرِحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنَا عَنْكَ وَزْرَكَ ، الَّذِي أَنْقَضَ ٢-١ ظَهْرَكَ ﴾ .	١١١	
سورة العلق (٩٦)		
﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلْقٍ ، اقْرَأْ ٥-١ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمَنْ ، عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .	١٢٦، ٢٧	
سورة النصر (١١٠)		
﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرَ اللَّهِ وَالْفَتْحَ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ ٣-١ أَفَوْجَأَ ، فَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفَرَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَاباً ﴾ .	١٤٠	
سورة الإخلاص (١١٢)		
﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَّهٗ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ .	٢٠١	٤-١

٢ - مسرد الأحاديث النبوية

الصفحة

الحديث

« أ »

« أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعني » مسلم ١٧٣٥ - أحادي ٢١٦٨ ح
ترتيب المسند ١٠٠/٢١ جامع الأصول ٢٠٧/٩ .

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينكسفان لموت أحد ولا
لحياته » البخاري ٤٢/٢ ، ٤٤ ، ٤٨ - مسلم ٢٧ ، ٣٦/٢ ، ١٨٥/١ - النسائي ٨٥/١ .
١٢٤ ، ١٥٤/٤ - مالك ١٥٢ ، ١٥٣ - الدارمي ٣٥٩/١ ، ٣٦٠ - الإمام أحمد : ترتيب
المسند ١٧٣ - ابن ماجه ١٥٢ الأحاديث ١٢٦١ إلى ١٢٦٣ الصفحة ٤٠٠/١ ،
٤٠١ الدارقطني ٩٤/٢ و ٩٥ .

« إن كان النبي ليقوم أو ليصلِّي حتى ترمي قدماه أو ساقاه فيقال له فيقول : ١/١٢١ ح
أَفَلَا أَكُونْ عَبْدًا شَكُورًا » حديث المغيرة . رواه البخاري ٦٢/٢ .
وقالت عائشة عنه (ص) : « كان يقوم حتى تفطر قدماه » الإمام أحمد - ١/١٢١ ح
ترتيب المسند ٢٢٧/٤ ، ٢٢٨ .

« أَهْيَا النَّاسُ مِنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ فَلَيُؤْدِهِ ، وَلَا يَقْلُ فَضْحَ الدِّينِ ، أَلَا وَإِنْ ١٤٢
فَضْحَ الدِّينِ أَهُونُ مِنْ فَضْحِ الْآخِرَةِ ، وَإِنْ عَبْدًا خَيْرُهُ اللَّهُ بَيْنَ الدِّينِ وَبَيْنَ
مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ » البخاري ٢٥/٢ - مسلم ٢٩/٣ - أَحْمَد (ترتيب المسند)
٢٧٥/٢١ .

« أَلَا هَلْ بَلَغْتَ ؟ أَجَابَ الْحَاضِرُونَ الرَّسُولَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ : ١٤١ ح
« اللَّهُمَّ نَعَمْ » أَبُو دَاوُد ٢٩٨/١ - الطَّبَرَانِي - ترتيب المسند وشرحه ٢٩٧/٢١ .

الحديث

الصفحة

« ت »

« تأيير النخل » مسلم ٩٥٧ - أحمد ترتيب المسند ٣٠٨/٢٣ - ابن ماجه ٢٤٧٠ - ١/١٦٧ ح . ٨٢٥/٢

« ج »

« جاءني رجلان يلبسان البياض فأمسكاني وفتحا صدري وقلبي وأخرجا ١١١ منه علقة سوداء » مسلم ٢١٥/٢ - مقدمة مسند الدارمي باب ٢ .

« خ »

« خذوا عني خذوا عني » مسلم ١١٥/٥ - ٤١/٤ - ١٤٣٤ - ١/١٦٨ - أحمد ترتيب المسند ٢١٠/٨ - البيهقي ٨٤/٦ - ابن ماجه ٢٥٥٠ - ٨٥٢/٢ - ٨٥ - ٨٤ .

« ف »

« فكأنما كتب في قلبي كتاباً » حديث الرسول (ص) بعد نزول سورة العلق - ١/١٢٦ ح . السيرة الخلبية ٣٢٨/١

« ك »

« كيف تقضي فيها يعرض لك ؟ » سؤال الرسول (عليه السلام) معاذ بن جبل . ١٠٦
أجابه معاذ : أقضى بكتاب الله ، فإن لم أجده فيه أخذت بسنة رسول الله ،
فإن لم أجده فيها أجهد برأيي ولا آلو . أبو داود من كتاب الأقضية باب ٢٢ -
حديث ٣٥٩٢ .

« ل »

١٥٩ « لا أشك ولا أسأل » تفسير الطبرى ١١٦/١٠ .
١٣٩ « للناس أجر ولكل أجران » البداية والنهاية ٢١٧/٢ - الروض الأنف ١٢٧/٢ .
١٣٧ « اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض ، اللهم أنجز ما وعدت » مسلم ١٥٦/٥ - الترمذى ٢٦٩/٥ - أحمد ترتيب المسند ٣٩/٢١ - ابن هشام معلقاً في السيرة ١٩٨/٢ .

« اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلني ؟ إلى عدو يتجممني أم إلى قريب ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي . لكن عافيتك أوسط لي ؛ أعود بنور وجهك الذي أشرقت من أجله الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تحل بي غضبك ، أو تنزل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » سيرة ابن هشام ٢٢/٢ - رواه أصحاب السير دون إسناد منهم ابن كثير عن ابن إسحق معلقاً . ١٢٦/٢

« اللهم في الرفيق الأعلى » البخاري ٩٣/٨ - مسلم ١٣٧/٧ - ١٣٨ - الترمذى ٥٢٥/٥
ابن ماجه ١٦١١ - ٥١٧/١ - موطأ مالك ١٩٠ - أحمد ترتيب المسند ٢٤٦/٢١ .

« م »

« الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتعنت فيه ٤٩
وهو عليه شاق له أجران » مسلم ١٩٥/٢ - الترمذى ١٧١/٥ - الدارمي ٤٤٤/٢ -
أحمد ترتيب المسند ١٣/١٨

« ما من نبي إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي ٥٩ ، ٣١
أوتته وحياً أو حي إلى ، فأنما أرجو أن أكون أكثراً منهم تابعاً يوم القيمة »
أحمد - ترتيب المسند ١٨/٤

« من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا ٤٩
أقول (ألم) حرفاً ، ولكن أقول ألف حرفة لام حرفة وميم حرفة »
الترمذى ١٧٥/٥ - الدارمي بلنفظ قريب منه ١٤٢٩/٢ والحاكم والبخاري عن ابن مسعود
كما ذكره في الجامع الصغير .

« و »

« وعلى العاقل مالم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات ، ساعة ١٢٠
يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفكر فيها في صنع

الحديث

الصفحة

الله ، وساعة يخلو فيها الحاجة في المطعم والمشرب ، وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً إلا لثلاث : تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة في غير حرم » رواه ابن حبان والحاكم .

« ويلك قطعت عنق صاحبك » رد الرسول ﷺ على رجل أثني على آخر عنده . ١٧

» ي «

« يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ » سؤال الحارث بن هشام ١٥١/١ ح رسول الله ﷺ . وكان جوابه : « أحياناً يأتيه مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدّه على فيفصّم عيّ وقد وعيت عنه ما قال . وأحياناً يتثلّل لي الملك رجلاً فيكلّماني فأعاني ما يقول » .

وقالت عائشة (رضي الله عنها) : « ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصّم عنه ، وإن جبّينه ليتّقدّ عرقاً » البخاري ج ١ (كتاب كيف كان بده الوحي) .

« يا معاذ إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا ١٤٠ وقبرّي » مسند أحمد ٢٢٥/٥ - ترتيب المسند ٢١٨/٢١ البداية والنهاية ١٠٠/٥ .

ملاحظة :

(ورد الحديث في الكتاب بغير هذا اللفظ) .

٣ - مسرد الأعلام

(يشمل الأشخاص والدول والأمكنة)

«أ»	«ج»
أبو عمرو (قارئ) ١/٢٩٢ ح	آبار مدين ١٣٨
أبو عمرو بن العلاء ٣٧	آرارات (جبل) ٢٦٤
أبو لمب ١٣٩	آربري (مستشرق) ٢٤، ٢٢
أحد (معركة) ١٣٦، ١٨٠	آمنة (أم الرسول «عليه السلام») ١١١-١٣٦
الأحر (البحر) ٢٦٢-٢٩٦	إبراهيم (عليه السلام) ٤٢، ١٧، ٤٢، ٨٦، ١٢٢، ٢٠٠، ٢٠٠، ٢٦٤، ٢٥٢، ٢١٠
أخناتون (امتحب الرابع) ٢٦٣، ٢٦٤	إبراهيم (ابن الرسول «عليه السلام») ١٣٩
أرنان (بن يهودا) ٢١٦	ابن الأثير ١/١٢٢ ح - ١/١١٥ ح - ١/١٣١ ح
أر (مولد إبراهيم) ٢٦٤	ابن إسحق (صاحب السيرة) ١٠٩
الأردن (نهر) ١٣٦	ابن جبير ١/١٥٩ ح
أرمياء (من أنبياء اليهود) ٨٨، ٩١، ٩٢، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٦٩، ١٧٣	ابن حزم ١/١١١ ح
أرمينيا ٢٦٤	ابن حبان (راوية حديث) ١/١٢٠ ح
الأزهر (الجامع) ١٥	ابن سلام ٤٠
إسحق (عليه السلام) ٢٠٠	ابن كثير (قارئ) ١/٢٩٢ ح
استرك (أستاذ طب) ٢٦٦	ابن العسال ٢٥٩
إسماعيل (عليه السلام) ١٧، ١١٤، ١١٦، ١٢٢	ابن مسعود (صاحب السيرة) ١٠٩
أشعاء (من أنبياء اليهود) ١/٨٨ ح	أبو بكر الصديق ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠
أشعاء الثاني ٩٣، ٢٠٠	أبو جهل ١٩١
أفلاطون ١/١٧٣ ح، ٢٨٢، ٢٨٥ ح	أبو طالب (عم الرسول) ١١٢، ١١٤، ١١٦، ١٢٢، ١٣١، ١٥٢، ١٩٦
إقليدس ٧١	
الألوسي ١/٢٦٠ ح	

بوذا	٨٥	امرأة القيس	٤٤، ٤٥، ٤٦، ٢٩٤، ١٩٠
بوكيه ١/٢٨٥ ح	٢٦٣، ٢٦٢	امتحنـت الرابع	
بيروت	٢١١	أميـل مـردوـخ (مـلـك بـاـبـلـ)	٩٨، ٩٧
» ت «		أنـدـريـه لـوـدـز (مـؤـلـفـ)	٩٨، ١/٩٥ ح
التبت (جبال)	٨٥	أنـدـريـه لـوـدـن	٢٠٧
تبوك (غزوة)	١٣٨	أنـس (صـاحـبـيـ)	١/١٦٧ ح
تكوا (قرية فلسطينية مندثرة)	٩٤	أنـشـتـين	٢٩٣
توت عنخ آمون	٦٧	الـأـوـسـ	١٣٥
توماس الأكويـني	٢٠١	اوـسـتـرـلـيـتـزـ (ـمـعرـكـةـ اـتـصـرـفـيـهاـ نـابـلـيـونـ)	١٣٧
توماس كارـلـيلـ (ـمـسـتـشـرـقـ وـفـيـلـوـفـ)	١٩٥	إـيـرـينـيـهـ	٢٦٥
تيري (الأب)	٢٠٢، ١/٢٠٤ ح	أـيـسلـنـدـاـ	٢٩٦
» ث «		» ب «	
ثابت بن أنس (راوية حديث)	١/١١١ ح	الـبـابـ (ـحـاـوـلـ تـقـلـيـدـ أـسـلـوـبـ الـقـرـآنـ)	١٧٢
ثور(غار)	١٣٢	بـاـبـلـ	١٦٩، ٩٧
» ج «		بـارـيسـ	١٥
الـجـاـحـظـ	٤٢، ٦٢	الـبـاـقـلـانـيـ	٤٨، ٤٦، ٤٤، ٤٣
جالوت	١٩١	بـاهـلـةـ	٤٥
الـجـانـجـ (ـنـهـرـ)	٢٩٥	بـحـيـرـاـ (ـرـاهـبـ)	١١٢
جبرون (وـادـ)	٢١٢	الـبـخـارـيـ	١٠٧، ١/١١١ ح، ١/١٤٢ ح، ٢/١٥٣ ح، ١/١٤٢ ح، ٢/١٥٣ ح، ١/١٧٩ ح، ١/٢٨١ ح، ١/٢٨١ ح
الـجـعـدـ بـنـ دـرـهـمـ	٤٢	بـدـرـ (ـمـعرـكـةـ)	١٨٠، ١٣٧، ١٣٦
جلعاد (جـبـلـ)	٢١٤	الـبـرـازـيلـ	٧٨
الـجـوـدـيـ (ـجـبـلـ)	٢٦٤	بـطـرـسـبـرـجـ (ـمـكـتـبـةـ الـقـدـيـسـ)	٢٥٩
جورج كلود (مهندس فرنسي)	٢٩٠	بـشـرـ فـارـسـ (ـجـ ١/٢٥٨ ح)	
جيـكونـيـاسـ (ـمـلـكـ جـودـاـ)	٩٧	بـصـرـىـ	١١٣
جيـنـيـوـبـيرـتـ	٢٠٢، ١/٢٠٢ ح	بـصـرـةـ	٢٨٧
» ح «		بـطـلـيـوـسـ	١/٢٨٤ ح
الـجـازـ	١٩١	بـعـلـ (ـإـلـهـ)	٩١
الـحـسـنـ بـنـ الـهـيـمـ	١/٢٨٧ ح	بـلـهـ (ـأـمـرـأـ وـالـدـ يـوـسـفـ عـلـيـهـ السـلـامـ)	٢١١
		بـنـيـامـينـ (ـأـخـوـ يـوـسـفـ لـأـبـوـيـهـ)	٢٤٠، ٢٣٦، ٢٢٠
			٢٥١، ٢٤٧

رأيين (أحد إخوة يوسف عليه السلام) ، ٢١٢
 ٢٢٢ ، ٢١٥ ، ٢١٤
 رشيد رضا ، ٥٨ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ح
 رع آتن حوي (من فراعنة مصر) ٢٦٣
 روح (قارئ) ١٢٩٢ ح
 روزان (كاتب) ١١٨
 روما ١٢٧ ح

حراء (غار) ٢٧ ، ١٤٩ ، ١١٩ ، ١١٥ ، ١٥٥
 حزقيال (من أنبياء اليهود) ١٨٨ ح ، ٢٠٧
 حلية السعدية ١١١ ، ١١٠
 حماد بن سلطة (راوية حديث) ١١١ ح
 حنانيا (نبي مدع) ١٦٩ ، ٩٦ ، ٩٣ ، ١١
 حنين (معركة) ١٣٧ ، ١٠٦
 حيرة (رجل نزل عنده هؤلا خلال أحداث قصة
 يوسف عليه السلام) ٢١٦

« ز »

زارح ٢١٦
 ذكريا ٢١٠
 ذكي مبارك ٥٥
 زلفة (امرأة أبي يوسف عليه السلام) ٢١١
 الزمخشري ١٥٩
 زيد بن ثابت ١٠٥

« خ »

خالد القسري ٤٢
 خالد بن الوليد ١١٤
 خديجة (زوج الرسول ﷺ) ١٠٩ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٣
 الخزرج ١٣٥
 الخندق (معركة) ١٢

« س »

سارع (من فراعنة مصر) ٢٦٣
 سجلامة (معركة) ٢٩٢
 سعد بن أبي وقاص ١٢٦٠ ح
 سعيد بن المسيب ١٢٧٨ ح
 سهل (عام) ١٢٨٧ ح
 سنغافورة (معركة) ١٣٧
 سقراط ٦١
 سوتون باتي نفرخ براونزا (من فراعنة مصر) ٢٦٢

« د »

دانتي ٢٠٤
 دانيا (من أنبياء اليهود) ١٨٨ ح
 درمنجهام (صاحب ترجم) ١٠٩ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٢
 دوتاين (بلدة قديمة) ٢١٢
 ديكارت ١٢ ، ١٣ ، ٨٥ ، ٩٩ ، ١٢٧ ح
 دينيه (صاحب ترجم) ١٣٩ ، ١٠٩

« ش »

الشافعي ٤١
 شدياق (الأب) ٢٥٨
 شكيم ٢١٢ ، ٢١١
 شمعون (أحد إخوة يوسف عليه السلام) ، ٢٢٢
 ٢٥١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٤

« ذ »

ذوالقرنيين ٢١٠

« ر »

الرافعي (أديب) ١٩٢

عبد الله بن عتبة بن مسعود ١٢٧٨ ح ٨٥
 شخص : جد رسول ﷺ ١١١
 عدن ١٠٥ ١١٤
 عرفات ١٤١
 عروة بن الزبير ١٢٧٨ ح ١٩٠
 العزيز ١٩٣ ١٩٤
 العقبة (بيعة) ١٢٢
 علقمة بن وقاص ١٢٧٨ ح ١٤١
 عمار بن ياسر ١٣٩
 عمر بن الخطاب ٤٠، ٦٢، ٦٧، ٦٨، ١١٤، ١٠٥، ١٤٠، ١١٤، ١٩٠
 عنترة ١٩٠
 غير بن يهودا ٢١٦
 عيسى «عليه السلام» وانظر المسيح ٦٦ ١٨٨، ٦٦ ح ١٧٠
 «غ» ٢٥٨-٥٩ ١٢٥٨ ح ٢٥٨-٥٩
 الغزالي ٥٩-٤٠ ح ١٢٥٨
 «ف» ٦١
 فابيوناتشي ٢٨٦
 الفرات ٢٩٥
 فريديريك أنجلز ١٦٠ ١٢٥٦
 فرنسا ٨٠
 فوطيفار (رئيس شرطة فرعون) ٢١٥، ٢١٦
 فولستد (قانون تحريم الخمرة في أمريكا) ٢٩٩
 فيجورو (الأب) ١٩٣، ١٩٢ ١١٧
 فيدياس (نحات) ٦١
 «ق» ٩٨، ٢٠٠
 القاهرة ٢٨٧
 قس بن ساعدة ١١٧
 قسطنطينية ١٢٤
 شوريه (مؤلف) ٨٥
 شوع (عم يهودا) ٢١٦
 شيله بن يهودا ٢١٦
 صالح (النبي) صاحب النافقة ٢١٠
 صباغ (الدكتور، له دراسة أنكر فيها وجود شعر
 جاهلي) ٥٧، ٥٦
 صفية (عمة الرسول ﷺ) ٣/١٤٢ و٤ ح ١٩٠ ح
 صموئيل ١٩٠ ح ١٦٩
 صوفي أبو طالب (مؤلف) ١٦٩ ح ١٧٠
 «ط» ٤٢
 طاغور ١٧٠ ح ١١٢
 طالوت ٥
 الطائف ١١٢ ح ٥٦، ٥٥، ٢٢
 طرابلس لبنان ٥
 طنطاوي جوهري ٥٨
 طه حسين ٥٦، ٥٥، ٢٢
 طيبة (عاصمة الفراعنة) ٢٦٣، ٢٦٤
 طيبة (أوطاية وهي يثرب) ١٣٤
 «ع» ١١٢، ١٢١، ١٤٢، ٢١٦
 عائشة (زوج الرسول ﷺ) ١٧٩، ١٥٥، ١١٥١
 عاصمة الفراعنة ٢٦٤، ٢٦٣
 عاصمة مصر ٢٧٩، ١٢٧٨
 عاموس (من أنبياء اليهود) ٩٤، ٩٣، ٩١، ٨٩
 عبادة بن الصامت ١٥٣، ١٧٠
 عبد الرحمن تاج ١٧٢، ٢/١٧٢
 عبد القاهر الجرجاني ٤٨، ٦٢

مریم ٢١٠
 مسلم ١٠٧، ١١١/١ ح
 المسيح (عليه السلام) ٢٦٥، ٢١٠، ٢٠٩، ٢٠٧ ح
 مصر ٢١٤، ٥٤
 مصعب بن عمير ١٣٢
 معاذ بن جبل ١٤٠، ١٠٦ ح
 معاوية (قارئ) ١٢٩٠/١ ح
 المعرى ٢٠٤
 المغيرة (راوية حديث) ١١٢١/١ ح
 المقريزي ١١١/١ ح، ١٦٨، ٢/١٦٨ ح
 مكة ١١٢، ١٢٠، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٢٥، ٢٥٨، ١٧٩
 مكينييلي ٢٧٩
 أخلاقي (من أنبياء اليهود) ١٨٨/١ ح
 منشوريا ١٠٥
 موسى (عليه السلام) ٤٢، ٦٥، ٦٧، ١١٧، ١٣٦، ٢٦
 موسى بن طلحة ١٦٧/١ ح
 موسى بن ميون (عالم أندلسي) ١٩٤، ٢٠١
 مورسيل ٢٦٢
 مورو (الأب) ٦١
 الموصل ٢٦٤
 موتية (البروفسور) ٨٨، ١٠٣، ١٠٢/١ ح، ٢٦٥، ٢٦٦
 ميخا (من أنبياء اليهود) ٨٩
 ميسرة (غلام خديجة) ١١٤
 ميلستيد (عالم إنكليزي) ١٧٤/١ ح
 نـ ٢٠٢
 نابليون ٦٩/١ ح، ١٣٧/١ ح
 نهران ١٥٨
 النظام ٤٣
 النور (جبل) ١٢٥، ١٢٢
 كاذب ٢١٦
 كان (معركة انتصر فيها هانيبال) ١٣٧
 كريستيان شرفيس ٦٩/١ ح
 كريسي (معركة) ٢٩٢
 كوبرنيك ٢٨٦/١ ح، ٢٨٤
 كوللب (قانون) ٧٤
 لـ ٢٠٦
 لافواريزيه ٥٦/١ ح
 لامانس (مستشار) ٢٥٨، ٥٦
 لقمان ٢١٠
 لومتر (عالم) ٢٩٢
 ليوناردو فسي (رسام) ٦١
 مـ ١٩١
 ماسيرو ٢٦٣
 مالقة ١٣٧/١ ح
 ماندليف (عالم) ٧٥، ٧٤
 المتنبي ١٧٢
 محمد عبده ١٤٦، ٥٨
 محمد عبد الله دراز ١٦، ٨
 محمد فؤاد عبد الباقي ١٦
 محمود قاسم (رئيس قسم الدراسات الفلسفية في
 جامعة القاهرة) ١٦
 محمود محمد شاكر ٨، ٩، ١٥، ٥٠، ١٧، ٦١
 المدينة ١٣٥، ١٣٩
 مراكش ١٠٥
 مرجليلوث (مستشار) ٥٦، ٢٤، ٢٣، ٢٢، ٥٧
 ١٩١، ٥٧

نیتشہ	۲۷۱	» ی «
النیل	۲۹۵	یاقوت الحوی (صاحب معجم البلدان) ۱/۱۳۴ ح
	۱۳۳، ۱۳۲	یثرب
	۲۱۰	یحیی
هابل (عالی) ۲۹۳، ۷۸	۲۱۱، ۲۱۵	یعقوب (علیه السلام) و هو إسرائیل
هاروت ۱۹۱	۲۲۴، ۲۲۳، ۲۲۲	یعقوب (علیه السلام) و هو إسرائیل
هانیبال (قائد قرطاجی) ۱/۱۳۷ ح	۲۴۹، ۲۴۸، ۲۲۴	یعقوب (علیه السلام) و هو إسرائیل
ہبنقة ۴۵	۱۴۰، ۱۱۲	الین
المند ۱۱۲	۲۳۴، ۲۱۶، ۲۱۴	ہوذا (أحد إخوة يوسف)
ہوشع (من أنبياء اليهود) ۸۹	۲۴۸، ۲۳۵	یوسف (علیه السلام) ۱۹۳
ہیجل ۸۷	۱۰۰	یوسف (علیه السلام) ۱۹۳
ہیلیر دی باراتون ۲/۲۶۲، ۲۶۳، ۲۶۲ ح	۲۵۲، ۲۴۹-۲۱۱	تکراریہ فی السورۃ القرآنیۃ و فی الکتاب المقدس
و تلو (مترجم کتاب المناظر) ۱/۲۸۷ ح	۱۳۶	یوشع
الولايات المتحدة الأمريكية ۲۹۹	۹۲	یونس ۱/۸۸ ح
الولید بن المغیرة ۲۹، ۶۱، ۱۹۰، ۱۵۲، ۶۷		

٤ - مسرد المذاهب والجماعات والشعوب

الديكارتي (المذهب)	١٨٥، ٥٧، ٥٥، ١٣، ١٢	« أ »
المتصوفة	١٩٠ ح	الاستشراق ٢١، ٥٥
المتكلمون	٤٣	الإصلاح (حركة) ٢٠١
المعزلة	٤٢	الألبية (الحركة) ٢٠٢

٥ - مسرد المعاهدات والمؤتمرات والمنظمات

« ن »	نيقية (مجمع أساقفة)	١٠٣
-------	---------------------	-----

٦ - مسرد الكتب والمراجع والمصادر

إنجيل يوحنا	٢٦٥	« أ »
القرآن في الكوميديا الإلهية	١٧٢٠٤ ح	أسين بالاسيو وأخرويات
البابية والإسلام	٢١٧٢ ح	أزواج النبي ١١٢٦ ح
تاریخ الفلک	١٢٨٥ ح	أسرار البلاغة ٤٨
تاریخ الكتاب المقدس	١١٠٣ ح	إعجاز القرآن ٤٢
التوراة	٢٥، ١٠٣، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٣٥٢ ح،	إمتاع الأسماع ١١١١ ح، ١١٢١ ح، ١١٦٨ ح، ٢١٦٨ ح
	١٢٥٣ ح	أنبياء بنی إسرائيل ١٩٥ ح، ١٦٩ ح
	١٢٦٢ ح	إنجيل بطرس ٢٥٨، ٢٠٧، ٢٠٣، ١٠٣، ٦٦
		إنجيل بطرس ٢٦٥

في الشعر الجاهلي	٥٦، ٢٢	ح	» ح «
» ك «			حياة محمد ١٢٨ ح
الكامل ١١٢ ح، ١١٥ ح			» د «
كار الوالصين ٨٥			دلائل الإعجاز ٤٨، ٦٢
الكتاب المقدس ٢٥٨، ٢٦٢، ٢٦٤			» ر «
الكتاب المقدس والوثائق العلمية ١٩٣ ح			الرد على من ادعى ألوهية المسيح بترجمة الإنجيل
الكوميديا الإلهية ٢٠٤			٢٥٨ ح
» ل «			رسالة التوحيد ١٤٦
لودفج فرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية			رسالة الغفران ٢٠٤
١٦٠ ح			الروض الأنف ١٣٩ ح
» م «			» ز «
مسند الدارمي ١١١ ح			الزبور ٢٥
معجم البلدان ١٣٤ ح			
العلاقات السبع ٢٢			
مقدمة في مدح الخنزير ٢٩٨ ح			
المناظر ٢٨٧ ح			
موجز تاريخ العالم القديم ٢٦٣ ح			
» ن «			» س «
نابليون والإسلام ٦٩ ح			السيرة الخلبية ١١٥ ح، ١٢٦ ح، ١٣١ ح
النظم الاجتماعية والقانونية ٦٩ ح			» ش «
نظم القرآن ٤٣، ٦٢			شرح التووبي ١١١ ح
» و «			الشرف عند العرب قبل الإسلام ٢٥٨ ح
الوحى الحمدي ١٤٦ ح			» ص «
» ي «			صحيح البخاري ١١١ ح
يونان أريونس ٩١			صحيح مسلم ١١١ ح، ١٦٧ ح
» ف «			» ط «
الفلسفة الإسلامية والثقافة الفرنسية (محاضرة)			طبقات فحول الشعراء ٤٠
١٢٠٢ ح			

٧ - مسرد الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	كلمة الأستاذ عمر كامل مسقاوي
٧	الإهداء بخط المؤلف
٩	مقدمة الطبعة الفرنسية بقلم المرحوم عبد الله دراز
١٦	شكر وتنبيه
١٧	تقديم - فصل في إعجاز القرآن للأستاذ محمود محمد شاكر
٥١	مدخل إلى دراسة الظاهرة القرآنية
٦٩	الظاهرة الدينية
٧٣	المذهب المادي
٧٩	المذهب الغيبي
٨٣	الحركة النبوية
٨٧	مبدأ النبوة
٨٩	ادعاء النبوة
٩٢	النبي
٩٣	أرمياء
٩٥	الظاهرة النفسية عند أرمياء
٩٩	خصائص النبوة
١٠١	أصول الإسلام - بحث المصادر
١٠٨	الرسول
١١٠	عصر ما قبل البعثة

الصفحة	الموضوع
١١٠	طفولة النبي - مراهقته
١١٤	الزواج والعزلة
١٢١	العصر القرآني
١٢١	المرحلة المكية
١٣٢	المرحلة المدنية
١٤٣	كيفية الوحي
١٤٧	اقتناعه الشخصي
١٤٩	أ - مقاييس الظاهري
١٥٤	ب - مقاييس العقلي
١٦١	مقام الذات الحمدية في ظاهرة الوحي
١٦٧	الفكرة الحمدية
١٧٣	الرسالة
١٧٧	الخصائص الظاهرة للوحي
١٧٩	التنجم
١٨٢	الوحدة الكية
١٨٤	مثال على الوحدة التشريعية
١٨٦	مثال على الوحدة التاريخية
١٨٩	الصورة الأدبية للقرآن
١٩٥	مضمون الرسالة
١٩٧	العلاقة بين القرآن والكتاب المقدس
٢٠٠	ما وراء الطبيعة
٢٠٣	آخرويات
٢٠٥	كونيات
٢٠٧	أخلاق

الصفحة	الموضوع
٢٠٩	اجتاع
٢١٠	تاريخ الوحدانية
٢١١	قصة يوسف في القرآن والكتاب المقدس
٢٥٠	جدول التفاصيل القرآنية في قصة يوسف
٢٥٢	النتائج الموازنة للروايتين
٢٥٥	البحث النقدي لمسألة
٢٥٦	الفرض الأول
٢٥٩	الفرض الثاني
٢٦٧	موضوعات ومواقف قرآنية
٢٦٩	إرهاص القرآن
٢٧٣	مala مجال للعقل فيه - فواتح السور
٢٧٧	المناقضات
٢٨٢	الموافقات
٢٩٤	المحاز القرآني
٢٩٧	القيمة الاجتماعية لأفكار القرآن
٣٠١	المساره
٣٠٣	مسرد الآيات القرآنية
٣١٤	مسرد الأحاديث النبوية
٣١٨	مسرد الأعلام ويشمل الأشخاص والدول والأمكنة
٣٢٤	مسرد المذاهب والجماعات والشعوب
٣٢٤	مسرد المعاهدات والمؤتمرات والمنظمات
٣٢٤	مسرد الكتب والمراجع والمصادر